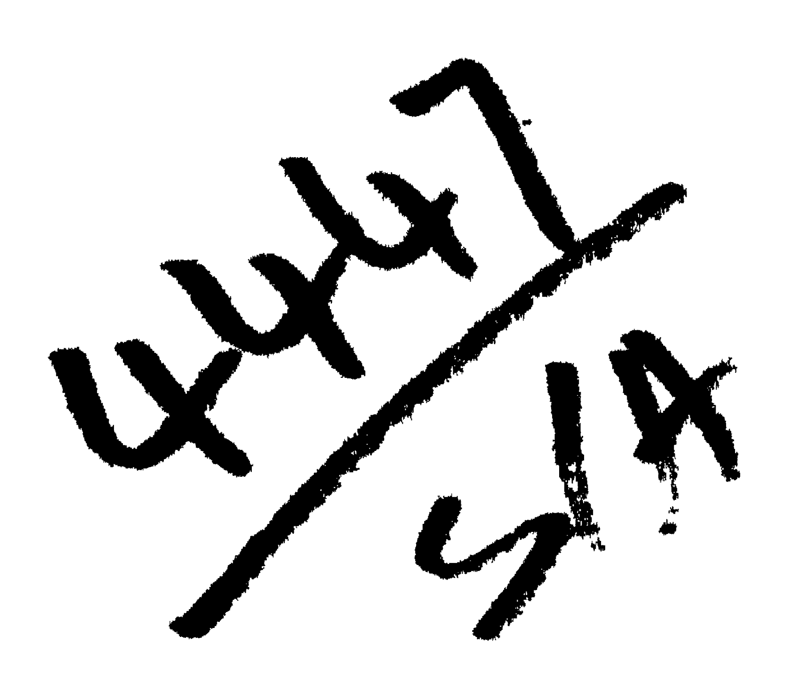

4447
514



تأليف

شيخ الإسلام ابن تيمية

٦٦١ – ٧٢٨ هـ

رحمنا الله وإياه ، وغفر لنا وله وللموحدين

حقق الأصل المخطوط وصححه

الشيخ محمد بن عبد الرزاق حمزة
الإمام الثاني والمدرس بالحرم المكي

الشيخ
سليمان بن عبد الرحمن الصنيع

صححه

محمد حامد الفقي

الطبعة الأولى

١٣٧٠ هـ — ١٩٥١ م

مطبعة السنة المحمدية
شارع غيط النوبي – القاهرة
ت ٧٩٠١٧



تأليف

شيخ الإسلام ابن تيمية

٦٦١ – ٧٢٨ هـ

رحمنا الله وإياه ، وغفر لنا وله وللمو[illegible]

—

حقق الأصل المخطوط وصححه

الشيخ محمد بن عبد [illegible]
الإمام الثاني والمدرس بالحرم المكي

الشيخ
سليمان بن عبد الرحمن الصنيع

صححه

محمد حامد الفقي

الطبعة الأولى

١٣٧٠ هـ – ١٩٥١ م

مطبعة السنة المحمدية
شارع غيط النوبي – القاهرة
ت ٧٩٠١٧

بسم الله الرحمن الرحيم

(الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ، ولم يجعل له عوجاً ، قيماً لينذر بأسا شديداً من لدنه ، ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً حسنا ، ماكثين فيه أبداً ، وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً ما لهم به من علم ، ولا لآبائهم كبرت كلمة تخرج من أفواههم . إن يقولون إلا كذبا) (هو الذى ينزل على عبده آيات بينات ليخرج الناس من الظلمات إلى النور ، وإن الله بكم لرؤوف رحيم) .

والصلاة والسلام الأتمان الأكملان على عبد الله ورسوله محمد ، خاتم المرسلين ، وإمام المهتدين وعلى آله أجمعين .

وبعد ، فقد تفضل السلفى الكبير ـ موئل الكرم والعلم والسلفية فى جدة ـ الشيخ محمد بن حسين بن عمر نصيف أفندى فأعطانى النسخة بارك الله فيه وله ، الخطية لرد شيخ الإسلام الإمام المجاهد الصابر المحتسب ، حبر هذه الأمة وعالمها ، الناصح الصادق : أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية الحرانى ، رضى الله عنه وأرضاه ـ على المنطق ، وهى منقولة بخط الأخ الشيخ عبد المعطى بن على بن يوسف المصرى المنوفى ، الذى هاجر لله ولرسوله إلى المدينة ، ومات بها رحمه الله وغفر لنا وله ، نقلها عن الأصل الخطى المحفوظ فى المكتبة المحمودية بالمدينة المنورة ، على ساكنها أفضل الصلاة والسلام ، ثم قابلها على الأصل مع الشيخ الفاضل محمد بن على الحركان من أفاضل طلبة العلم بالمدينة . ثم صححها الأستاذ العالم الفاضل المحقق الشيخ محمد بن عبد الرزاق حمزة ، وعلق عليها بتراجم مختصرة لبعض من ذكرهم شيخ الإسلام من الرجال عند المناسبات ، ثم راجعها وصححها تلميذه الفاضل الشيخ سليمان ابن عبد الرحمن الصنيع العنيزى ثم المكى ـ الذى كان حينئذ عضواً لهيئة الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر ، وتلميذاً فاضلا للشيخ محمد بن عبد الرزاق

وكان نقده للفلسفة من ناحيتين : مجانبتها الواضحة للعقل الصريح ، ومخالفتها الحمقاء للنقل الصحيح ، ولقد برهن على ذلك بالعقل والنقل ، وكان يأتى على القواعد الكلية التى يسفسط الفلاسفة ، فيزعمون أنها مسلمة ، فينقضها نقضاً مبرهناً بالدليل العقلى على فسادها أو تناقضها ، والفلاسفة يزعمون ـ فى خيلاء ـ : أنهم وحدهم أرباب المنطق والعقل والحكمة ، وأنهم آلهة الفكر المقدسون ، فيجىء ابن تيمية ويثبت بأدلة قوية قوة الحق : أن الفلسفة أوهام وأساطير ، وأن العقل الصريح يناقض ما ذهب إليه هؤلاء ، فيديل ببراهينه من كِبْر الفلسفة ، ويَفُلُّ من غَرْب خيلائها .

وإليك رأيه فى أدلتهم فى الفلسفة الإلهية « العلم الإلهى لا يجوز أن يستدل فيه بقياس تمثيلى يستوى فيه الأصل والفرع ، ولا بقياس شمولى تستوى فيه أفراده ، فإن الله سبحانه ليس كمثله شىء ، فلا يجوز أن يمثل بغيره ، ولا يجوز أن يدخل هو وغيره تحت قضية كلية تستوى أفرادها ، ولهذا لما سلك طوائف من المتفلسفة والمتكلمة مثل هذه الأقيسة فى المطالب الإلهية : لم يصلوا بها إلى اليقين ، بل تناقضت أدلتهم »[1] .

ويمثل الإمام الناحية الإيجابية فى النقد أيضاً ، فيبين الدليل الذى يستند إليه . ولقد وجه ابن تيمية جُلّ نقده للجانب الإلهى من الفلسفة ، أو للفلسفة « الميتافيزيقية » وناضلها نضالاً نحس فيه بتلك القوة الفكرية الجبارة ، وتلك الروح الدينية العالية ، التى يلهم الله بها ابن تيمية الحق فى نضاله .

نعم كان همه نقد الفلسفة الإلهية ، إذ رآها أمشاجا من الإلحاد والكفر والزندقة ، فيقول « للمتفلسفة فى الطبيعيات خوض وتفصيل ، تميزوا به .

(١) موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول جزء أول على هامش منهاج السنة النبوية (ص ١٤ ، ١٥)

بخلاف الإلهيات . فإنهم من اجهل الناس بها ، وابعدهم عن معرفه الحق فيها ، وكلام إرسطو معلمهم فيها قليل كثير الخطأ »[1] ويقول « ومذهب الفلاسفة الملحدة دائر بين التعطيل ، وبين الشرك والولادة . كما يقولونه فى الإيجاب الذاتى ، فإنه أحد أنواع الولادة . وهم ينكرون معاد الأبدان ، وقد قرن بين هذا وهذا فى الكتاب والسنة »[2] ورأيه مبسوط فى جل كتبه .

إن ابن تيمية استوعب الفلسفة ، وفهم خطرها الجامح على الدين والأخلاق والفكر ، فثار عليها ثورة الحق وانتصر . رآها هدامة للدين وللأخلاق ، مخالفة للعقل الصريح[3] ، وفى إثباته ذلك عن حق تتمثل عظمة ابن تيمية الفكرية .

خصوم ابن تيمية فى عصره : ماج عصر ابن تيمية بالآراء المتباينة ، والمذاهب المتضادة ، والعقائد المتنابذة

فلاسفة : يؤلهون أرسطو وإفلاطون ، ويثبتون قدم العالم ، ويصفون إلههم بما يجعله عدما أو صورة ليس لها وجود إلا فى الذهن ، وصوفيون : هم أبناء الفلاسفة ـ أو هم الفلاسفة ـ حاولوا ترويج الزيغ فى البيئة الدينية بأسلوب شاعرىّ ، فخرجوا يثبتون للإله الحلول المطلق ، أو المقيد فى بعض تعينات الوجود ، أو يؤمنون بالوحدة ـ شهودية أو وجودية ـ أو بالاتحاد ، وذلك نفى للإله الحق الذى جاء رسل الله يدعون الخلق إلى عبادته ، ويعرفونهم بأسمائه وصفاته . وجهميون : يجردون الله سبحانه من صفاته التى وصف بها نفسه ، ووصفه بها رسوله ، وينفون الاختيار عن الإنسان . ومعتزلة : شابهوا الجهمية فى التجريد ولكنهم نفوا كل أثر للقدر فى الأفعال الإنسانية ، وأثبتوا للانسان خلق أفعاله .

(١) ص ١٨٦ معارج الوصول من مجموعة الرسائل الكبرى
(٢) ص ١٨ من كتاب النبوات طبعة منير الدمشقى
(٣) لا تعوزنا النصوص فى البرهنة على هذا ، ولو مد الله لنا فى الأجل بسطناه على صفحات مجلتنا « الهدى النبوى » إن شاء الله تعالى .

وأشاعرة: حاولوا تأسيس مذهب جديد، ولكنهم وضعوا مذهباً تبدو فيه نزعتا التلفيق والاختيار، حاولوا التوفيق بين المعتزلة و بين السلف، فلم يفلحوا، و بين الجبريين والقدريين فأخفقوا. و باطنيون: تسموا بأسماء مختلفة، ولبسوا ألوانا من الزخرف الخادع، يجمعهم غرض واحد، هو القضاء على الإسلام بما يُلَبِّسون به على العقول – المدفونة في أكوام التقليد الأعمى والغفلة – من أساطير وتهاويل. و بما يزعمونه من حلول إلههم في بعض الكائنات، وظهوره في دورات كلية. وفقهاء: همهم التعصب لمذاهبهم وأحزابهم، وإن لم يظاهرهم قرآن أو تؤيدهم سنة، ونصارى و يهود وزنادقة.

كل هؤلاء خاصمهم ابن تيمية لله ولدينه ولرسوله، وكان أكثر هؤلاء قد تسلحوا بالمنطق الإرسطى، يرونه القانون الذى لا يضل، والطريق الأقوم الذى يهدى إلى الحق.

خاصم ابن تيمية كل هؤلاء مستوعباً آراءهم ومذاهبهم، فدرس الفلسفة، وفهم مسائلها فهما دقيقاً جيداً، والصوفية وتبين فى جلاء هدفها، والمنطق الإرسطى الذى يتسلحون به فى الحجاج، فتجلى له ما فيه من خلل ونقص. فأعلنها ثورة عاتية، سبق بها « بيكون » وسواه من فلاسفة الغرب.

درس ابن تيمية كل هده المذاهب درساً دقيقاً، جعله قوى الحجة فى مخاصمتهم وكان عادلا نزيهاً كريماً فى نقده. فتراه ينقل عنهم نقل الأمين العادل النزيه(١) و ينسب الرأى لصاحبه، لايخطىء فى النسبة، فما يتقوّل على فيلسوف، ولاصوفى ولامتكلم، ولافقيه، حتى كان أحياناً – رضى الله عنه – ينفى عن بعضهم ما ألصق

(١) يحقد بعض من وسعتهم مصرفى رحابها على الإمام العظيم، فيتهمه بالكذب فى النقل. وإنى لأتحدى هذا الوتور أن يثبت لنا شيئاً من هذا، أما نحن فنستطيع أن ندله على عشرات – بل مئات – يعرفون عنه هو هذا الافتراء فى النقل، ولعله إنما يحقد على ابن تيمية عروبته التى كان يمقت بها دخلاء الأعاجم، الذين لم تستطع قلوبهم النافقة أن تتخلص من حقدها القديم على الإسلام. ! !

به من قول يدمغه بالمروق ، كما فعل مع رابعة ، وكما يفعل أحيانا مع الغزالى[1] .
ولطالما تتبعت ابن تيمية فى نقوله عن الفلاسفة وعن الصوفية وعن الغزالى ، فوجدت الأمانة والدقة والخبرة وشمول المعرفة ، ناهيك بدقته فيما ينقل عن الكلاميين والفقهاء . أما السنة فهو بطلها المغوار ، وفارسها المجلى .

ويلخص لنا مؤلف كتاب (العقيدة والشريعة فى الإسلام)جهود ابن تيمية فيقول : « هبَّ لمناهضة البدع التى عملت على تحرير المعالم الأصلية للاسلام وتعديلها ، سواء أكان ذلك فى العقائد أم فى الأحكام والعبادات ، كما أبدى هذه الغيرة فى مقاومة الآثار التى أحدثتها الفلسفة فى الإسلام ، حتى الصيغ الكلامية الأشعرية ، على الرغم من أن السنة ـ يقصد من سموا أنفسهم أهل السنة ـ قد أقرتها منذ عهد طويل ، وكافح ابن تيمية الصوفية ومبادئها الحلولية ، كما استنكر تقديس النبى والأولياء . وأنكر الحج إلى قبر النبى ، واعتبار المسلمين إياه عملا ذا قيمة دينية عظيمة ، وعده بدعة مخالفة للدين . لقد نهض ابن تيمية ـ دون أن يوقفه شىء ـ إلى مقاومة السلطات الدينية ، التى أضفت على المراسيم الطفيلية الزائدة فى العبادات صفة شرعية ، هي ثمرة الإجماع ، فقد كان يرجع دائماً فى تحقيقها إلى السنة ، وإلى السنة وحدها[2] »

ثم يتحدث عن أثر مؤلفاته فيقول : « ومؤلفاته التى تقرأ وتدرس ، كانت فى كثير من البيئات الإسلامية قوة صامتة ، تثير من وقت لآخر انفجارات عدائية لمناهضة البدع الدخيلة على الإسلام » .

---

(١) غير أنه يصرح بالحق لا يداهن فيه ، فيقول « وكلام الغزالى فى المضنون خير منه كلام مشركى العرب » .

(٢) ترجمة كتاب العقيدة والشريعة لأستاذنا الدكتور الشيخ محمد يوسف موسى وزميليه الفاضلين ، ص ٢٣٥ . ويلاحظ : أنه ذكر ما يحتج به الدهماء على البدع والخرافات : أنها أجمعت عليها الأمة . وهذا اجماع باطل ، بل هو وهم كاذب

ويتحدث بروكلمان : عن عداء الفقهاء لابن تيمية فيقول « أولئك الفقهاء الذين لم يتورعوا عن اضطهاد رجل صالح مؤمن بالله أصدق الإيمان وأشده ، كابن تيمية الحنبلى ، لإحجامه عن مجاراتهم فى جميع ماذهبوا إليه من رأى ، ولمقاومته كثيراً من مظاهر التدين لدى العامة ، كعبادة الرسل والأولياء[1] » .

ألا يخزي الحاقدون ذوو الشنآن من شهادة هذين المستشرقين ؟

هذا الكتاب : فى القسم الأول من الكتاب يتحدث عن مذهب السلف فى الاعتقاد ، وصحة نسبة هذا المذهب إليهم ، عارضاً آراء أئمة السلف ، وأئمة المذاهب الفقهية فى هذا الموضوع ، وبعد هذا يدلل ابن تيمية بالنقل والعقل على أن السلف أعلم وأحكم أرباب المعتقدات فى الإسلام ، مفاضلا بين بعض الفرق وبعض ، جاعلا النسبة فى الأفضلية ، على نسبة القرب من السنة .

ويبدع ابن تيمية فى الحجاج حين يذكر ماعابه المفترون على أهل الحديث من قلة الفهم والمعرفة ، ويرد على فريتهم رداً قويا محكماً ، مبرهناً على دقة الفهم وشمول المعرفة عند أهل الحديث .

ثم يذكر المتكلمين ، مبيناً وهن اعتقادهم واضطرابه ، وأنهم أعظم الناس شكا وحيرة فى النهاية . ولابن تيمية هنا من لمعات الذهن ، وبوارق البصيرة ، وتألق الإدراك النفسى والعقلى : مايكاد يجلى غيوب الظواهر النفسية والفكرية .

ثم عرج على حصول العلم فى القلب عقب النظر فى الدليل، وهل هو بالتولد كزعم المعتزلة ، أم بفعل الله ، كقول الأشاعرة ، أم بفيض عن العقل الفعال ، كما يهذى الفلاسفة ؟ ؟

يعرض ابن تيمية هذا ، ثم يكر بالدليل، فيهدم مابنى الفلاسفة ، ويجلى الحق الحائر بين الأشاعرة والمعتزلة ، مبيناً كنه النظر المفيد للعلم ، مبرهنا على أنه

---

(١) تاريخ الشعوب الاسلامية لبروكلمان ص٢٤٧ ، المجلد الثاني من الترجمة نشر دار العلم للملايين ببيروت .

ما اعتمد على دليل هاد ، وأن الدليل الهادى لا يكون إلا من القرآن أو السنة عارضا فى استطراده أنواع النظر .

ويعود ابن تيمية إلى علماء الكلام ، فيصمهم باضطراب الأدلة ، وبالتناقض ، والتذبذب ، والأخذ بالرأى مع نقيضه ، مقارناً بينهم وبين أهل الحديث فى هذه الناحية ، فيذكر الثبات على العقيدة ، وعدم التناقض ، والنأى عن مهاوى الفكر ، ومزالق الرأى ، وأن كل ذلك لأهل الحديث .

ثم يحكى ما اتهم به المتكلمون أهل الحديث من أنهم مقلدون ، منكرون لحجة العقل ، ليسوا أهل نظر واستدلال ، ويرد تلك التهمة عن أهل الحديث بما أثر عنه من قوة الحجة وسطوع البرهان ، ثم يتحدث عن الاتحاديين والجهميين ، ورأيهم في الوجود الإلهى ، وصفاته ، مبيناً أوجه التشابه فى هذا الزيغ بين الفريقين ، وعن الغزالى وجنوحه إلى الفلسفة والتصوف .

ثم يفصّل ابن تيمية لنا مناهج الباحثين فى كلام الرسول ، فيتحدث عن مناهج « التخييل ، والتجهيل ، والتأويل » مبيناً أن خاتمة المطاف للمؤوِّلة : شك وريبة وحيرة بالغة .

ثم يتحدث عن الشيعة ، وزعمهم اختصاص على بن أبى طالب رضى الله عنه بعلوم وأسرار ليست فى كتاب الله ، ويتحدث عن الكتب المنسوبة إلى أئمتهم ، كالجفر وسواه ، مدللا على زيف كل هذه المزاعم .

ويستطرد ابن تيمية ، فيتحدث عن التفسير وجواز الترجمة . ثم يفيض فى الحديث عن الملائكة . ثم يعرض أسطورة الفلسفة الميتافيزيكية « الواحد لا يصدر عنه إلا واحد »(١) ويبلغ ابن تيمية الذروة حين يبين بالحجة العقلية زيف هذه الأسطورة هنا وفى منهاج السنة ، وفى مجموعة الرسائل الكبرى وغيرها .

---

(١) يهدف الفلاسفة من وراء هذه الأسطورة إلى إثبات : قدم العالم ، ونفى صفة الخلق عن الإله ، وتجريد الإله من صفاته الوجودية ، ونفى الربوبية والعناية .

ثم يعرض لرأي من قال : إن الحشوية على ضربين : مشبه مجسم ، ومتستر بمذهب السلف . ويعقب عليه ببيان الحق فى هذا ، مبيناً معنى هذه الكلمات « التوحيد ، التنزيه ، التشبيه ، التجسيم » مثبتاً حقيقة التوحيد الذى جاءت به الرسل عليهم الصلاة والسلام . ثم يتعرض لقول من زعم : أن طريقة السلف أسلم . وطريقه الخلف أعلم وأحكم . مظهراً فساده ، موضحاً أن السلامة والعلم والحكمة فى مذهب السلف .

ثم يتحدث عن الفلاسفة والباطنية وزندقتهم فى زعمهم : أن الرسول لم يبين الحق المستور في باب التوحيد رامياً إياهم — عن دليل — بالزندقة والكفر .

وأخيراً يعرض مارمى به ابن الجوزى الحنابلة من التجسيم . ويبين الحق جلياً واضحاً فى هذه المسألة ، ناقلاً خلاصة هامة عن أبى الحسن محمد بن عبد الملك الكرجى الشافعى من كتابه « الفصول فى الأصول عن الأئمة الفحول» عن السنة وفضائلها وعن مذاهب الأئمة الأعلام فى الصفات والأسماء الإلهية

هذا عرض القسم الأول من الكتاب ، وهو كما ترى حافل شامل يبين الحق بياناً جلياً فى أدق وأعمق ما بحث فيه الفكر البشرى منذ بَدَأ يتطلع إلى لمح الحقيقة من وراء الأفق النائى البعيد .

القسم الثانى : نقد المنطق : فى هذا تتجلى العظمة الفكرية ، والعبقرية الفذة النادرة ، للامام الجليل ابن تيمية رحمه الله . ويحيف الباحثون على الحق والحقيقة حين ينسبون إلى « بيكون[1] » و « جون ستيوارت مل[2] » وأضرابهما من

(١) فرنسيس بيكون المتوفى سنة ١٦٢٦ ، فيلسوف إنجليزى من زعماء الفلسفة الحديثة سبقه راموس وبعض رجال عصر النهضة فى التنديد بالمنطق الأرسطى ، ثم جاء هو يتم مابدأوه ، فحمل حملة شعواء عليه ، وعارضه معارضة شديدة ، حتى ألف كتابا سماه « الإرغانون الجديد » ، ليعارض به كتاب أرسطو الذى سماه « إرغانون » ولكنه كان دنىء الطبع لئيم النفس .

(٢) فيلسوف إنجليزى توفى سنة ١٨٧٢ من زعماء المذهب الحسى ، الذى كان =

مفكرى النوبية وفلاسفته الفضل الأول والأخير فى تقويم المنطق الإرسطى، وضبط منطق الاستقراء أو فى المواءمة بين المنطق الصورى والمنطق المادى بسلميهما يعرج العقل الإنسانى إلى قدس الحقيقة، نعم هاجم هؤلاء المنطق الإرسطي، متهمين إياه بالآلية والتعقيد، وفرط عنايته بالناحية الصورية لا بالملاحظة والتجربة وهى الوسيله الناجعة لفهم ظواهر الكون، و بالقياس لا بالاستقرار الذى هو أقوم سبيل لكسب المعلومات والوصول إلى المعرفة، لكن ابن تيمية كان أسبق منهم جميعاً، إذ نقد المنطق الإرسطى، فى عصر كان فيه ذلك المنطق صنم الفكر المعبود، نقده نقداً صحيحاً زلزل من هيكله، وهتك قناع القداسة الزائف عن وجهه، ليبدو فى صورته الحقيقية، ولكن كان لبيكون ولمل من يحتفى بهما، فذاع لهما ذلك الصيت البعيد.

أما ابن تيمية فكان بين معجب لم يعن ببحث مناحى العظمة الفكرية للإمام ابن تيمية، بل عنى ببحث الجانب الاعتقادى ونشره والذياد عنه، و بين حاقد موتور، يحاول طمس معالم هذه العظمة، وتلك العبقرية الوثابة فوق الذرى، الألاقة فوق الشمس، النادرة الوجود.

كان الحال ـ بعد ابن تيمية ـ كما يقول مؤلف كتاب العقيدة والشريعة: «كانت المؤلفات الكلامية التى صنفها العلماء بعد وفاته مباشرة تدور حول فكرة واحدة، وهى معرفة ما إذا كان ابن تيمية زنديقا أم مناضلا أمينا عن السنة؟»[1] غير أننا نستبشر خيراً بما بدأت المطبعة تنشر من دقائق كنوز هذا الفكر

= له خطره فى الفكر والأخلاق، وقد ردد فى منطقه كثيراً من آراء الرواقيين وبعض الشكاك القدماء، وجد فى ضبط قوانين الاستقراء، وأنكر الكليات والمعانى العامة غير معترف إلا بالوقائع الجزئية والظواهر الفردية والاستقراء الذى يعتمد به نوع من التمثيل.

(١) ص ٢٧٦ من كتاب العقيدة والشريعة فى الإسلام لجولدزيهر.

الإسـلامى الجبار ، ومن بحوث تدور حول تجلية مناحى العظمة الفـكرية لهذا الإمام العظيم .

منطق إرسطو وموقف المسلمين منه : عرف إرسطو بمنطقه قبل أن يعرف بشيء آخر من آثاره الفلسفية ؛ وكان لمنطقه السيادة المطلقة في العصرين : القديم والوسيط ، فلم ينازعه السيادة منطق آخر ، وأنّى تـكون ؟ وليس ثمت سواه ! فالجدل « الإفلاطونى[1] » أقرب إلى المناقشة والحوار منه إلى المنطق ، أما قانون « أبيقور[2] » فهو لا يرمى إلى وضع (قانون تعصم مراعاته الذهن عن الخطأ فى الفـكر) بل ينصبُّ على المعرفة أولا وطريق كسب المعلومات ، نعم قسم الأبيقوريون الفلسفة إلى ثلاثة أقسام « منطق ، طبيعة ، أخلاق » .

غير أن هذا التقسيم صورى تقليدى فحسب ، تأثروا فيه غالبا بأفلاطون ، لذا كانت عنايتهم بدراسة المنطق هزيلة .

أما « الرواقيون[3] » فنقدوا المنطق الأرسطى ، ووجهوا إليه اعتراضات هامة ، وكانوا لا يؤمنون بفـكرة « الـكلى » فـكان طبيعيا أن يرفضوا ما بنى عليها من قواعد المنطق وقوانينه ، وحاولوا تأليف منهج استقرائى ، يدنو إلى مناهج البحث العلمى الحديث .

---

(١) إفلاطون: فيلسوف يونانى ولد عام ٤٢٧ ق م وهو صاحب نظرية المثل المشهورة التى كانت مصدراً كبيراً لصوفية الأديان كلها فى أساطيرها :

(٢) فيلسوف يونانى ولد سنة ٣٤١ ق م . فى ساموس ، كانت الأخلاق عنده محور الفلسفة وغايتها ، ومذهبه فى الأخلاق مذهب اللذة ، فغاية الحياة عنده : هى اللذة .

(٣) الرواقية : معاصرة للأبيقورية ومعارضة لهـا ، وضع أصولها « زينون » وأتمها من بعده تابعان له ، ومذهبها فى الأخلاق : أن يعيش الإنسان وفق الطبيعة والعقل ، ويكاد يكون مذهبها حلولياً .

وكذلك عارض « الشكاك[1] » منطق إرسطو ، إلا أن هذه المعارضات كلها جرفها أمامه سلطان منطق إرسطو القاهر .

وقد دخل المنطق الإرسطى العالم الإسلامى في وقت مبكر[2] فعرفوه وعرفوا معه تلك الشروح التى أضافها إليه شراحه اليونانيون ، وعرفوا أيضا نقد الرواقية والشكاك للمنطق الإرسطى . وكان لمفكرى الإسلام وفلاسفته ومتكلميه وأصولييه وفقهائه مواقف متباينة أمام هذا المنطق .

أما الفلاسفة : فقد تلقوه بالإعجاب ، وأحاطوه بهالة من القدسية ، وأما المتكلمون والأصوليون : فجنحوا إلى الرواقية ، رافضين المنطق الإرسطى ، غير أن الغزالى كان أولَ أمره يقدس منطق إرسطو ، حتي ليقول « إن من لا يحيط به فلا ثقة بعلومه » وبالغ حتى جعله ميزانا يزن به العلوم الدينية وسواها ، فيقول فى كتابه القسطاس عن قوانين المنطق «لا أدعى أنى أزن بها المعارف الدينية فقط ، بل أزن بها العلوم الحسابية والهندسية والطبيعية والفقهية والكلامية ، وكل علم حقيقى غير وضعى ، فإنى أميز حقه عن باطله بهذه الموازين ، وكيف لا ؟ وهو القسطاس المستقيم » غير أن الغزالى رفض المنطق الإرسطى فى نهاية أمره ، وأنكر أن يكون سبيل الوصول إلى المعرفة ، ثم مضى يتلمسها عن طريق التجربة الباطنية ، أو أسطورة الكشف الصوفى ، كما صرح بذلك فى كتابه : « المنقذ من الضلال » .

أما ماسوي هؤلاء من فقهاء المسلمين : فكان موقفهم عدائيا تاما ، غير أنهم

---

(١) جماعة رأوا تعارض الآراء وتناقضها ، ففقدوا الإيمان بالحق والخير ، وإمامهم « بيرون » (٣٦٥ - ٢٧٥) ق م . المعروف بكونه صاحب مذهب اللاأدرية ، المنكر للعلم واليقين

(٢) قيل : فى عهد خالد بن يزيد . وقيل : فى عهد أبى جعفر المنصور ؛ ولسنا بصدد تحقيق تاريخى هنا

- تباينوا ، ففريق كان مظهر عدائه فتاوى يصدرها ، محرما بها الاشتغال بالمنطق ، كابن الصلاح ومن تابعه ، وفريق كان موقفه موقف الناقد بالبرهان ، وإمام هؤلاء جميعا : الإمام ابن تيمية رحمه الله .

نقد ابن تيمية للمنطق : لسنا بصدد دراسة شاملة لهذه الناحية عند الإمام ابن تيمية ، وحسبنا استنباط مظاهر نقده للمنطق من هذا الكتاب الذى نسعد بتقديمه إلى القراء .

عرض لأوجه النقد فى الكتاب : فى الكتاب يتحدث عن المنطق ، ويزيف زعم غلاته : أنه فرض كفاية . ثم يذكر ذم علماء المسلمين له ، وعدم كفاية المنطق فى الوصول إلى الحق ، وأنه لا يفيد أربابه الإيمان الواجب ، بل طالما كان المنطقى زنديقا ، وقد يجمع بين الإيمان والنفاق . ثم تحدث عن القياس وأنه ينعقد بالفطرة ، دون حاجة إلى تعلم المنطق . ويذكر أنه خدع بالمنطق ثم تجلى له عدم فائدته . ثم يعرج على نقد المتكلمين للمنطق ، متحدثا عن أنواع الأقيسة ومفاهيمها عند المناطقة ، وعن المشهورات ، وعن صلة القياس بالبديهة والفطرة ، ثم ينقد مناطقة الفلاسفة والمتكلمين واليهود والنصارى فى موقفهم من القياس . ثم يتحدث عن قياس التمثيل ، وعلم ما بعد الطبيعة ، وصلة المنطق بالعلوم وعدم الحاجة إليه فى الأمور العملية .

واستطرد – كعادته – مبينا تلازم الأصول الثلاثة « التوحيد ، الإيمان بالرسل ، الإيمان باليوم الآخر » ذاكرا : أن السعادة لا يحصلها منطق ولا حكمة ولا فلسفة المناطقة والحكماء والفلاسفة ، وبرهن على أن غير العلم الإلهى ليس فيه يقين ، وليس سبيلا للنجاة . ثم بين أن كلام المناطقة إنما ينحصر فى الحدود التى تفيد التصورات ، وفى الأقيسة التي تفيد التصديقات ، وأن غالب كلامهم فى هذا : فيه تكلف فى العلم وفى القول ، وجله لغو لا فائدة فيه .

نقد الحد : يزعم المناطقة « أن التصور الذى ليس ببديهى لا ينال إلا بالحد» هذا مقام سالب جال فيه الإمام وصال ، هادما لهذه القضية ، مثبتا فسادها بستة عشر وجها ، فزاد خمسة أوجه عما ذكره فى كتاب « الرد على منطق اليونانيين » وكنا نود تلخيص هذه الحجج العقلية الرائعة ، بيد أنا نترك للقارىء الكريم إعمال فكره ، ليستمتع بنفسه بذلك الحجاج الفكرى الرائع لذى يسمو به ابن تيمية إلى الدروة ، من دقة التفكير وقوة الملاحظة ، و بصر الإدراك ولمعان الذهن ونفاذ البصيرة . ثم يستطرد فيبين أن العرب والمسلمين منهم هم أعظم الناس إدراكا للفروق بين الصفات الذاتية ، وأدقهم فى التمييز بين المشتركات .

ثم بين فضل منطق متكلمى الإسلام على سواه من منطق الفلاسفة ومتكلمى الروم . ثم بين رأيه فى الحد عند المناطقة ، فيرميه بأنه حشو لكلام كثير ، وأنه يعقد السهل ، ويحيل الوضوح غموضا .

نقد القياس : وينتقد ابن تيمية القياس ، مبينا أن صورة القياس فطرية تنعقد دون حاجة إلى تعلم ، وأن باطل القياس المنطقى أكثر من حقه ، والحق الذى فيه فطرى لا نحتاج إلى هذا القياس فيه .

ثم بدأ يستدل على فساد القياس بحجج متعددة ، تجلت فيها المواهب الفكرية الرائعة النادرة للإمام ، تجليه لنا علما يسامى قصى النجم ، فوق قمة الفكر الإنسانى العليا . وحق ما يقول الشيخ مصطفى عبد الرزاق « ولو أن الدراسات المنطقية سارت منذ عهد ابن تيمية على منهاجه فى النقد ، بدل الشرح والتفريع والتعمق لبلغنا بهذه الدراسات من التجديد والرقى مبلغا عظيما[1] »

ها نحن عرضنا ذلك الكتاب الذى سعدنا بتقديمه ، والذى تهديه مشكورة

(١) ص ١٢٥ من كتاب فيلسوف العرب والمعلم الثانى

« مطبعة السنة المحمدية » إلى المفكرين ، لا فى الشرق الإسلامى فحسب ، بل فى شتى مناحى العالم الإنسانى .

ويقيننا : أن المطبعة الكريمة بهذا الكتاب الذى تهديه إلينا ؛ قد شيدت لنا صرحا آخر من بناء مجدنا الفكرى الإسلامى العظيم ، ولكم كنا نود أن يفرغ جماعة من علماء الأزهر والجامعة المصرية لدراسة ابن تيمية العظيم ، وبعث مآثره ونحن نلمح الأمل شعاع النور اليوم . لأن على رأس الأزهر اليوم رجلا عظيما يجل ابن تيمية ويقدره حق قدره ، وهو حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر علامة الإسلام اليوم « الشيخ عبد المجيد سليم » وفقه الله وأيده وسدده .

ترى هل يتحقق الأمل ؟

ألا إن الأمل من الله لماح الأشعة . وربنا بيده الخير وهو على كل شىء قدير . وهو الذى يقول وقوله الحق (وكان حقا علينا نصر المؤمنين) .

القاهرة { ٣٠ ربيع الثاني سنة ١٣٧٠
٧ فبراير سنة ١٩٥١ } عبد الرحمن الوكيل

بسم الله الرحمن الرحيم

مسألة

ماقولكم فى مذهب السلف فى الاعتقاد، ومذهب غيرهم من المتأخرين؟ ماالصواب منهما، وما تنتحلونه أنتم من المذهبين؟ وفى أهل الحديث: هل هم أولى بالصواب من غيرهم؟ وهل هم المرادون بالفرقة الناجية؟ وهل حدث بعدهم علوم جهلوها وعلمها غيرهم؟ وما تقولون فى المنطق؟ وهل من قال «إنه فرض كفاية» مصيب أم مخطىء؟.

الجواب

[الحمد لله وحده]

هذه المسائل بسطها يحتمل مجلدات، لكن نشير إلى المهم منها والله الموفق.

قال الله تعالى (٤ : ١١٥ ومن يشاقق الرسول من بعد ماتبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نُوَلِّهِ ماتولّى ونُصْلِهِ جهنم وساءت مصيراً) وقد شهد الله لأصحاب نبيه صلى الله عليه وسلم ومن تبعهم بإحسان بالإيمان. فعلم قطعاً أنهم المراد بالآية الكريمة، فقال تعالى (٩: ١٠٠ والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه. وأَعَدَّ لهم جنات تجرى تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً. ذلك الفوز العظيم) وقال تعالى (٤٨: ١٨ لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة، فعلم مافي قلوبهم، فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً).

فحيث تقرر[1] أن من اتبع غير سبيلهم وَلّاه الله ماتولى وأصلاه جهنم.

---

(١) لعل الصواب: فحيث تقرر أنهم على الهدى؛ وأن سبيلهم إلى رضوان الله والفوز بالجنة: تقرر ... الخ

فمن سبيلهم فى الاعتقاد : الإيمانُ بصفات الله تعالى وأسمائه التى وصف بها نفسه ، وسمّى بها نفسه فى كتابه وتنزيله ، أو على لسان رسوله ، من غير زيادة عليها ولا نقص منها ، ولا تجاوز لها ولا تفسير لها ، ولا تأويل لها بما يخالف ظاهرها ولا تشبيه لها بصفات المخلوقين ، ولا سِمات المحْدَثين ، بل أَمَرُّوها كما جاءت ، وردوا علمها إلى قائلها ، ومعناها إلى المتكلم بها .

وقال بعضهم — ويروى عن الشافعى — : « آمنت بما جاء عن الله ، وبما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم على مراد رسول الله » .

وعلموا أن المتكلم بها صادق لا شك فى صدقه فصدّقوه ، ولم يعلموا حقيقة معناها فسكتوا عما لم يعلموه . وأخذ ذلك الآخرُ عن الأول ، وَوَصَّى بعضهم بعضاً بحسن الاتباع والوقوف حيث وقف أولهم ، وحذَّروا من التجاوز لهم والعدول عن طريقتهم ، وبينوا لنا سبيلهم ومذهبهم ، ونرجو أن يجعلنا الله تعالى ممن اقتدى بهم فى بيان مابينوه ، وسلوك الطريق الذى سلكوه .

والدليل على أن مذهبهم ماذكرناه : أنهم نقلوا إلينا القرآن العظيم وأخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم نقلَ مُصدِّق لها مُؤْمن بها ، قابل لها ، غير مرتاب فيها ولا شاك فى صدق قائلها ، ولم يفسروا مايتعلق بالصفات منها ولا تأولوه ، ولا شبهوه بصفات المخلوقين ، إذ لو فعلوا شيئًا من ذلك لنقل عنهم ، ولم يجز أن يُكتَم بالكلية ، إذ لايجوز التواطؤ على كتمان مايُحتاج إلى نقله ومعرفته ، لجريان ذلك فى القبح مجرى التواطؤ على نقل الكذب وفعل مالا يحل ، بل بلغ من مبالغتهم فى السكوت عن هذا : أنهم كانوا إذا رأوا مَنْ يسأل عن المتشابه بالغوا فى كَفِّه ، تارة بالقول العنيف وتارة بالضرب ، وتارة بالإعراض الدال على شدة الكراهة لمسألته ، ولذلك لما بلغ عمر رضى الله عنه أن صَبِيغًا يسأل عن المتشابه أعدّ له عراجين النخل ، فبينما عمر يخطب قام ، فسأله عن (الذاريات ذرواً ،

فالحاملات وقراً) وما بعدها ، فنزل عمر فقال : « لو وجدتك محلوقاً [١] لضربت الذى فيه عيناك بالسيف » ثم أمر به فضرب ضرباً شديداً ، و بعث به إلى البصرة ، وأمرهم أن لا يجالسوه ، فكان بها كالبعير الأجرب لا يأتى مجلساً إلا قالوا « عَزْمة أمير المؤمنين [٢] » فتفرقوا عنه حتى تاب وحلف بالله ما بقى يجد مما كان فى نفسه شيئًا ، فأذن عمر فى مجالسته ، فلما خرجت الخوارج أُتِيَ ، فقيل له : هذا وقتك فقال : لا ، نفعتنى موعظة العبد الصالح [٣] .

ولما سئل مالك بن أنس رحمه الله تعالى فقيل : له ياأبا عبد الله (الرحمن على العرش استوى) كيف استوى ؟ فأطرق مالك وعلاه الرحضاء ـ يعنى العرق ـ وانتظر القوم مايجىء منه فيه . فرفع رأسه إلى السائل وقال : «الاستواء غير مجهول ، والكيف غير معقول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة ، وأحسبك رجل سوء » وأمر به فأخرج .

ومَنْ أوَّل الاستواء بالاستيلاء فقد أجاب بغير ما أجاب به مالك ، وسلك غير سبيله . وهذا الجواب من مالك رحمه الله فى الاستواء شاف كاف فى جميع الصفات ، مثل النزول والمجىء ، واليد ، والوجه وغيرها .

فيقال فى مثل النزول : النزول معلوم ، والكيف مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة .

وهكذا يقال فى سائر الصفات ، إذ هي بمثابة الاستواء الوارد بهالكتاب والسنة

وثبت عن محمد بن الحسن ـ صاحب أبى حنيفة ـ أنه قال : «اتفق الفقهاء وكلهم من الشرق والغرب على الإيمان بالقرآن والأحاديث التى جاء بها الثقات عن

---

(١) يعنى محلوق الرأس . وكان ذلك سيما الخوارج ، كما جاء الحديث فيهم « سيماهم التحليق » .

(٢) يعنون أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب عزم علينا أن لا نجالس صبيغاً آمراً لنا بذلك . (٣) يعنى عمر بن الخطاب رضى الله عنه

رسول الله صلى الله عليه وسلم فى صفة الرب عز وجل من غير تفسير[١] ولا وصف ولا تشبيه ، فمن فسَّر شيئًا من ذلك فقد خرج مما كان عليه النبى صلى الله عليه وسلم ، وفارق الجماعة . فإنهم لم يصفوا ولم يفسِّروا ، ولكن آمنوا بما فى الكتاب والسنة ثم سكتوا ، فمن قال بقول جَهْم[٢] فقد فارق الجماعة » انتهى .

فانظر رحمك الله إلى هذا الإمام كيف حكى الإجماع فى هذه المسألة ، ولا خير فيما خرج عن إجماعهم . ولو لزم التجسيم من السكوت عن تأويلها لفروا منه ، وأوّلوا ذلك . فإنهم أعرف الأمة بما يجوز على الله وما يمتنع عليه .

وثبت عن اسماعيل بن عبد الرحمن الصابونى[٣] أنه قال : « إن أصحاب الحديث المتمسكين بالكتاب والسنة يعرفون ربهم تبارك وتعالى بصفاته التي نطق بها كتابه وتنزيله ، وشهد له بها رسوله على ما وردت به الأخبار الصحاح ، ونقله العدول الثقات . ولا يعتقدون تشبيها لصفاته بصفات خلقه ، ولا يكيفونها تكييف المشبه ، ولا يحرفون الكلم عن مواضعه تحريف المعتزلة[٤] والجهمية.[٥] وقد أعاذ الله أهل السنة من التحريف والتكييف. ومنّ عليهم بالتفهيم والتعريف حتي سلكوا سبيل التوحيد والتنزيه ، وتركوا القول بالتعطيل والتشبيه، واكتفوا

---

(١) يريد تحريف الجهمية الذى يسمونه تفسيراً .

(٢) هو الجهم بن صفوان أبو محرز السمرقندي الضال المبتدع رأس الجهمية ماروي شيئاً ولكنه زرع شراً عظيما قتله نصر بن سيار سنة ١٢٨هـ لقيامه مع الحارث بن شريح قاضياً فى عسكره خارجين على أمراء خراسان اهـ ملخصاً من الميزان ولسانه

(٣) أثنى عليه التاج السبكى فى طبقاته بأنه المحدث المفسر شيخ الإسلام فى زمانه المتوفي سنة ٤٤٩ هـ .

(٤) هم أصحاب عمرو بن عبيد الذى كان من أصحاب الحسن البصرى واعتزل مجلسه فسمى هو وأصحابه معتزلة من حينئذ .

(٥) مقلدة الجهم بن صفوان المتقدم ذكره آنفا .

بنفى النقائص بقوله عز من قائل (٤٢ : ١١ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير) و بقوله تعالى (ولم يكن له كفواً أحد) » .

وقال سعيد بن جبير [١] « ما لم يعرفه البدريون فليس من الدين » .

وثبت عن الربيع بن سليمان[٢] أنه قال : سألت الشافعى [٣] رحمه الله تعالى عن صفات الله تعالى ؟ فقال : « حرام على العقول أن تمثل الله تعالى ، وعلى الأوهام أن تحُدَّه ، وعلى الظنون أن تقطع ، وعلى النفوس أن تفكر ، وعلى الضمائر أن تَعَمَّقَ ، وعلى الخواطر أن تحيط ، وعلى العقول أن تعقل إلا ما وصف به نفسه ، أو على لسان نبيه عليه الصلاة والسلام » .

وثبت عن الحسن البصري[٤] أنه قال : « لقد تكلم مطرف[٥] على هذه الأعواد بكلام ما قيل قبله ، ولا يقال بعده . قالوا : وما هو يا أبا سعيد ؟ قال : الحمد لله الذى مِنَ الأيمان به : الجهلُ بغير ما وصف به نفسه » .

وقال سحنون [٦] « من العلم بالله السكوت عن غير ما وصف به نفسه » .

وثبت عن الحميدى أبي بكر عبد الله بن الزبير [٧] أنه قال : « أصول السنة

---

(١) هو أبو محمد الربيع بن سليمان بن داود الجيزى المصرى ، صاحب الشافعى . لكنه كان قليل الرواية عنه . وأكثر روايته عن عبد الله بن عبد الحكم . روى عنه أبو داود والنسائي ، وتوفى سنة ٢٥٦ بالجيزة ودفن بها .

(٢) من أعلام فقهاء التابعين ومحدثيهم ومفسريهم . قتله الحجاج الثقفى سنة ٩٥

(٣) الإمام العلم القرشي المطلبي محمد بن ادريس بن العباس فقيه الحجاز ومصر واليمن ناصر السنة والذاب عنها توفى سنة ٢٠٤ هـ .

(٤) سيد التابعين علما وفقها وعبادة توفى سنة ١١٠ هـ .

(٥) مطرف بن عبد الله بن الشخير من سادات التابعين له فضل وورع وعقل وأدب مات سنة ٩٥ هـ .

(٦) صاحب مالك رحمهما الله تعالى توفى سنة ٢٤٠ هـ .

(٧) أحد الأئمة صحب ابن عيينه ١٩ ، سنة وصحب الشافعى وتفقه به وهو شيخ البخارى وأول حديث أخرجه فى صحيحه عنه توفى سنة ٢١٩ هـ .

ـ فذكر أشياء ـ ثم قال : وما نطق به القرآن والحديث مثل (٥ : ٦٤ وقالت اليهود يد الله مغلولة غُلَّت أيديهم)ومثل (٣٩ : ٦٧ والسموات مطويات بيمينه) وما أشبه هذا من القرآن والحديث . لا نزيد فيه ولا نفسره ، ونقف على ماوقف عليه القرآن والسنة ، ونقول (الرحمن على العرش استوى) ومن زعم غير هذا فهو جهمى » .

فمذهب السلف رضوان الله عليهم : إثبات الصفات و إجراؤها على ظاهرها ، ونفى الكيفية عنها . لأن الكلام فى الصفات فرع عن الكلام فى الذات ، و إثبات الذات إثبات وجود ، لا إثبات كيفية . فكذلك إثبات الصفات . وعلى هذا مضى السلف كلهم . ولو ذهبنا نذكر ما اطلعنا عليه من كلام السلف في ذلك لخرجنا عن المقصود في هذا الجواب .

فمن كان قصده الحق و إظهار الصواب اكتفى بما قدمناه . ومن كان قصده الجدال والقيل والقال والمكابرة، لم يزده التطويل إلا خروجاً عن سواء السبيل . والله الموفق .

وقد ثبت ما ادعيناه من مذهب السلف رضوان الله عليهم بما نقلناه جملة عنهم وتفصيلاً ، واعتراف العلماء من أهل النقل كلهم بذلك . ولم أعلم عن أحد منهم خلافاً في هذه المسألة ، بل لقد بلغنى عمن ذهب إلى التأويل لهذه الآيات والأخبار من أكابرهم : الاعتراف بأن مذهب السلف فيها ما قلناه . ورأيته لبعض شيوخهم في كتابه ، قال : « اختلف أصحابنا في أخبار الصفات ، فمنهم من أمَرَّها كما جاءت من غير تفسير ولا تأويل ، مع نفى التشبيه عنها . وهو مذهب السلف » فحصل الإجماع على صحة ما ذكرناه بقول المنازع والحمد لله .

وما أحسن ما جاء عن عبد العزيز بن عبد الله بن أبى سلمة [1] أنه قال :

---

(١) الشهير بالماجشون التيمى مولاهم المدنى الفقيه أحد الأعلام توفى سنة ١٦٦ هـ

« عليك بلزوم السنة فإنها لك بإذن الله عصمة . فإن السنة إنما جعلت ليستن بها ويقتصر عليها . و إنما سَنَّها من قد علم ما في خلافها من الزلل والخطأ والحمق والتعمق. فارْضَ لنفسك بما رضوا به لأنفسهم .فإنهم عن علم وقفوا ، و ببصر نافذ كفوا . ولَهُمْ كانوا على كشفها أقوى . و بتفصيلها لو كان فيها أحرى ، و إنهم لهم السابقون ، وقد بلغهم عن نبيهم ما يجرى من الاختلاف بعد القرون الثلاثة فلئن كان الهدى ما أنتم عليه لقد سبقتموهم إليه ، ولئن قلتم حدثٌ حدثَ بعدهم فما أحدثه إلا من اتبع غير سبيلهم ، ورغب بنفسه عنهم واختار ما نَحَتَهُ فكره على ما تلقوه عن نبيهم ، وتلقاه عنهم من تبعهم بإحسان . ولقد وصفوا منه ما يكفي وتكلموا منه بما يشفي . فمَنْ دونهم مُقَصِّر ، ومن فوقهم مُفْرِط . لقد قصر دونهم أناس فجفَوا ، وطمح آخرون فغلَوْا ، و إنهم فيما بين ذلك لعلى هدى مستقيم » .

فصل

وأما كونهم أعلم ممن بعدهم وأحكم ، وأن مخالفهم أحق بالجهل والحشو : فنبين ذلك بالقياس المعقول من غير احتجاج بنفس الإيمان بالرسول . كما قال الله (٤١ : ٦٣ سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق) فأخبر أنه سيُريهم الآياتِ المرئية المشهودة حتى يتبين لهم أن القرآن حق ، ثم قال (أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد) أى بإخبار الله ربك فى القرآن وشهادته بذلك .

فنقول : من المعلوم أن أهل الحديث يشاركون كل طائفة فيما يتحلون به من صفات الكمال و يمتازون عنهم بما ليس عندهم . فإن المنازع لهم لابد أن يذكر فيما يخالفهم فيه طريقا أخرى ، مثل المعقول والقياس والرأى ، والكلام والنظر والاستدلال والمحاجة والمجادلة ، والمكاشفة والمخاطبة والوَجْد والذوق ، ونحو ذلك

وكل هذه الطرق لأهل الحديث صفوتُها وخلاصتها ، فهم أكمل الناس عقلاً ، وأعدلهم قياساً ، وأصوبهم رأياً ، وأسَدَّهم كلاماً وأصحهم نظراً وأهداهم استدلالاً وأقومهم جدلا ، وأتمهم فراسة ، وأصدقهم إلهاما ، وأحدهم بصرا ومكاشفة ، وأصوبهم سمعا ومخاطبة ، وأعظمهم وأحسنهم وجدا وذوقا . وهذا هو للمسلمين بالنسبة إلى سائر الأمم ، ولأهل السنة والحديث بالنسبة إلى سائر الملل(١) .

فكل من استقرأ أحوال العالم وجد المسلمين أحدّ وأسدّ عقلا ، وأنهم ينالون فى المدة ، اليسيرة من حقائق العلوم والأعمال أضعاف ما يناله غيرهم في قرون وأجيال وكذلك أهل السنة والحديث تجدهم كذلك ممتعين . وذلك لأن اعتقاد الحق الثابت يقوى الإدراك ويصححه . قال تعالى (١٧:٤٧ والذين اهتدوا زادهم هدى) وقال (٤ : ٦٦ ــ ٦٨ ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيراً لهم وأشد تثبيتا ، وإذاً لآتيناهم من لدنا أجراً عظيما ولهديناهم صراطاً مستقيما) .

وهذا يعلم تارة بموارد النزاع بينهم وبين غيرهم ، فلا تجد مسألة خُولفوا فيها إلا وقد تبين أن الحق معهم . وتارة بإقرار مخالفيهم ورجوعهم إليهم دون رجوعهم إلى غيرهم ، أو بشهادتهم على مخالفيهم بالضلال والجهل . وتارة بشهادة المؤمنين الذين هم شهداء الله فى الأرض . وتارة بأن كل طائفة تعتصم بهم فيما خالفت فيه الأخرى ، وتشهد بالضلال على كل من خالفها أعظم مما تشهد به عليهم .

فأما شهادة المؤمنين الذين هم شهداء الله فى الأرض : فهذا أمر ظاهر معلوم بالحس والتواتر لكل من سمع كلام المسلمين ، لا تجد فى الأمة عُظِّم أحد تعظيما أعظم مما عُظِّموا به ، ولا تجد غيرهم يُعَظَّم إلا بقدر ماوافقهم فيه ، كما لا يُنَقَّص إلا بقدر ماخالفهم ، حتى إنك تجد المخالفين لهم كلهم وقت الحقيقة(٢) يقر بذلك ، كما قال

---

(١) يريد الفرق والطوائف الإسلامية .

(٢) يعنى يوم الوفاة والموت إذ به تظهر الحقيقة .

الإمام أحمد[١] « آية مابيننا و بينهم يوم الجنائز » فإن الحياة بسبب اشتراك الناس فى المعاش يعظم الرجل طائفته ، فأما وقت الموت فلا بد من الأعتراف بالحق من عموم الخلق . ولهذا لم يعرف فى الإسلام مثل جنازته ، مسح المتوكل[٢] موضع الصلاة عليه فوجد ألف ألف وستمائه ألف ، سوى من صلى فى الخانات والبيوت وأسلم يومئذ من اليهود والنصارى عشرون ألفاً . وهو إنما نَبُل[٣] عند الأمة باتباع الحديث والسنة ، وكذلك الشافعي و إسحق[٤] وغيرهما إنما نبلوا فى الإسلام باتباع أهل الحديث والسنة . وكذلك البخارى[٥] وأمثاله إنما نبلوا بذلك ، وكذلك مالك[٦] والأوزاعى[٧] والثورى[٨] وأبو حنيفة[٩] وغيرهم إنما نبلوا فى

---

(١) الإمام العلم شيخ أهل الحديث والسنة ، الصابر على المحنة فى الله وفى دينه وسنة نبيه : أحمد بن محمد بن حنبل أبو عبد الله الشيبانى المتوفى ببغدادسنة ٢٤١ ه .

(٢) المتوكل على الله الخليفة العباسى جعفر بن المعتصم بن الرشيد ، كانت خلافته (٢٣٢ — ٢٤٧ ه) قتله ولده المنتصر سنة ٢٤٧ ه و « المسح » القياس بما تقاس به الدور والأرضين .

(٣) من النبل وهو العظمة ،

(٤) الإمام المحدث شيخ الجماعة إسحاق بن ابراهيم الشهير بابن راهويه المتوفى سنة ٢٣٨ ه .

(٥) الإمام العلم الفرد شيخ الحديث على الإطلاق حفظاً وفقهاً وتعليلاً وتصحيحاً وتضعيفاً : محمد بن إسماعيل بن إبراهيم ، أبو عبد الله البخارى المتوفى سنة ٢٥٦ ه اتفقت الأمة على أن كتابه الجامع الصحيح أصح الكتب بعد كتاب الله تعالى .

(٦) أبو عبد الله مالك بن أنس إمام دار الهجرة فى وقته وجامع صافى علم المهاجرين والأنصار فى موطئه المتوفى سنة ١٧٩ ه .

(٧) أبو عمرو عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعى فقيه أهل الشام ومحدثهم . توفى سنة ١٥٧ ه . (٨) أبو عبد الله سفيان بن سعيد بن مسروق الثورى فقيه الكوفة ومحدثها وزاهدها ومفسرها ، مع الورع والتقوى والصلابة فى الدين . توفى سنة ١٦١ ه (٩) إمام أهل الرأى وواضع قوانين الفقه والقياس والاستحسان أبو حنيفة النعمان بن ثابت بن زوطى الكوفى المتوفى سنة ١٥٠ ه .

عموم الأمة وقُبِلَ قولهم لما وافقوا فيه الحديث والسنة وما تُكُلِّمَ فيمن تكلم فيه منهم إلا بسبب المواضع التى لم يتفق له متابعتها من الحديث والسنة إما لعدم بلاغها إياه أو لاعتقاده ضعف دلالتها أو رُجحان غيرها عليها .

وكذلك المسائل الاعتقادية الخبرية لم يَنْبُلْ أحد من الطوائف ورءوسهم عند الأمة إلا بما معه من الإثبات والسنة ، فالمعتزلة أولا ـ وهم فرسان الكلام ـ إنما يُحمدون ويُعظمون عند أتباعهم وعند من يُغضى عن مساويهم لأجل محاسنهم عند المسلمين بما وافقوا فيه مذهب أهل الإثبات والسنة والحديث وردهم على الرافضة (١) بعض ماخرجوا فيه عن السنة والحديث من إمامة الخلفاء وعدالة الصحابة ، وقبول الأخبار ، وتحريف الكلم عن مواضعه والغلو فى علىّ ونحو ذلك .

وكذلك الشيعة المتقدمون كانوا يرَجُحُون على المعتزلة بما خالفوهم فيه من إثبات الصفات والقدر والشفاعة ونحو ذلك ، وكذلك كانوا يُستحمدون بما خالفوا فيه الخوارج من تكفير علىٍّ وعثمان وغيرهما ، وما كفروا به المسلمين ، من الذنوب ، ويستحمدون بما خالفوا فيه المرجئة ، من إدخال الواجبات (٢) فى الإيمان . ولهذا قالوا بالمنزلة ، وإن لم يهتدوا إلى السنة المحضة .

وكذلك متكلمة أهل الإثبات ، مثل الكلابية والكرّامية والأشعرية إنما قُبِلوا واتُّبِعوا وَاسْتُحْمِدوا إلى عموم الأمة بما أثبتوه من أصول الإيمان من إثبات الصانعُ (٣) وصفاته ، وإثبات النبوّة ، والرد على الكفار من المشركين وأهل الكتاب وبيان تناقض حججهم وكذلك استحمدوا بما ردوه على الجهمية والمعتزلة والرافضة والقدرية من أنواع المقالات التى يخالفون فيها أهل السنة والجماعة . فحسناتهم نوعان : إما موافقة أهل السنة والحديث ، وإما الردّ على من خالف السنة

---

(١) هم غلاة الشيعة الذين أفرطوا فى التشيع لعلى بن أبى طالب وذريته حتى طعنوا فى خلافة الخلفاء الراشدين من أبى بكر إلى عثمان وطعنوا فى سائر الصحابة إلا قليلا منهم . (٢) كالصلاة والزكاة الخ .

(٣) لعل الأولى استعمال « الرب » .

والحديث ببيان تناقض حججهم . ولم يتبع أحد مذهب الأشعرى[١] ونحوه إلا لأحد هذين الوصفين ، أو كلاهما . وكل من أحبه وانتصر له من المسلمين وعلمائهم فإنما يحبه و ينتصر له بذلك . فالمصنف فى مناقبه الدافع للطعن واللعن عنه ـ كالبيهقى[٢] والقُشيرى أبى القاسم[٣] وابن عساكر الدمشقى[٤] ـ إنما يحتجون لذلك بما يقوله من أقوال أهل السنة والحديث ، أو بما رَدَّه من أقوال مخالفيهم لا يحتجون له عند الأمة وعلمائها وأمرائها إلا بهذين الوصفين ، ولولا أنه كان من أقرب بنى جنسه إلى ذلك لألحقوه بطبقته الذين لم يكونوا كذلك ، كشيخه الأول أبى على[٥] وولده أبى هاشم[٦] لكن كان له من موافقة مذهب السنة والحديث فى الصفات[٧] والقدر والإمامة[٨] والفضائل والشفاعة ، والحوض والصراط ، والميزان ، وله من الردود على المعتزلة والقدرية والرافضة والجهمية ، و بيان تناقضهم : ماأوجب أن يمتاز بذلك عن أولئك و يعرف له حقُّه وقَدْرُه (٦٥ : ٣ قد جعل الله لكل شىء قدراً) و بما وافق فيه السنة والحديث صار له من القبول والأتباع ماصار ، لكن الموافقة التى فيها قهر المخالف و إظهار فساد قوله : هي من جنس المجاهد المنتصر .

---

(١) أبو الحسن على بن إسماعيل الأشعرى شيخ جماعة من المتكلمين تنسب إليه مات سنة ٣٢٤ أو ٣٣٠ هـ أو بعدها .

(٢) أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقى صاحب السنن الكبرى والمصنفات التى سارت بها الركبان مات سنة ٤٥٨ هـ .

(٣) أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيرى صاحب الرسالة فى التصوف ورجال الطريقة مات سنة ٤٦٥ هـ .

(٤) أبو القاسم الحسن بن هبة الله بن عساكر صاحب تاريخ دمشق المتوفى سنة ٥٧١ .

(٥) هو محمد بن عبد الوهاب أبو على الجبائى شيخ المعتزلة فى زمانه توفى سنة ٣٠٣ هـ

(٦) وولده أبو هاشم عبد السلام بن أبى على الجبائى توفى سنة ٣٢١ هـ

(٧) يعنى إثباته لصفات الله تعالى خلافا لنفاتها من الجهمية ومن وافقهم ، و إثباته للقدر ، وأن أعمال الناس وغيرهم بمشيئة الله وقدرته ، خلافا لنفاة القدر .

(٨) يعنى أبا بكر ومن بعده من الراشدين وإثباته أفضائلهم خلافا للرافضة والشيعة الذين يطعنون فى إمامتهم وفضلهم .

فالراد على أهل البدع مجاهد ، حتى كان يحيي بن يحيي[١] يقول « الذب عن السنة أفضل من الجهاد » والمجاهد قد يكون عدلا فى سياسته وقد لا يكون ، وقد يكون فيه فجور ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم « إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر وبأقوام لا خلاق لهم » ولهذا مضت السنة بأن يُغزَى مع كل أمير ، براً كان أو فاجراً ، والجهاد عمل مشكور لصاحبه فى الظاهر لا محالة ، وهو مع النية الحسنة مشكور باطناً وظاهراً ، ووجه شكره : نصره للسنة والدين ، فهكذا المنتصر للإسلام والسنة يشكر على ذلك مِن هذا الوجه ، فحمد الرجال عند الله ورسوله وعباده المؤمنين بحسب ماوافقوا فيه دين الله وسنة رسوله وشرعه من جميع الأصناف ، إذ الحمد إنما يكون على الحسنات ، والحسنات : هى ما وافق طاعة الله ورسوله ، من التصديق بخبر الله والطاعة لأمره . وهذا هو السنة . فالخير كله باتفاق الأمة هو فيما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكذلك ما يُذَم من يُذَم من المنحرفين عن السنة والشريعة وطاعة الله ورسوله إلا بمخالفة ذلك .

ومن تُكُلِّم فيه من العلماء والأمراء وغيرهم إنما تَكلَّمَ فيه أهلُ الإيمان بمخالفته السنة والشريعة ، وبهذا ذم السلفُ والأئمة أهل الكلام والمتكلمين الصفاتية ، كابن كرَّام[٢] وابن كُلاب[٣] والأشعرى. وما تكلم فيه[٤] من تكلم من أعيان الأمة وأئمتها المقبولين فيها من جميع طوائف الفقهاء وأهل الحديث

---

(١) ابن بكير التميمى النيسابورى شيخ البخارى ومسلم وغيرهما توفى سنة ٢٢٦هـ

(٢) محمد بن كرام — بتشديد الراء — السجستانى رئيس طائفة الكرامية ، رمى بالتجسم وبأن الإيمان قول فقط بلا اعتقاد ولا عمل . مات سنة ٢٥٥ هـ . له ترجمة فى الميزان للذهبي وفى لسانه للعسقلانى . (٣) أبو محمد عبد الله بن سعيد بن محمد بن كلاب — بضم الكاف — الكرمانى القطان . مات بعد سنة ٢٤٠ هـ له ترجمة فى لسان الميزان للعسقلانى . (٤) يعنى فى الأشعرى ومن على شاكلته كابن كرام وابن كلاب .

والصوفية إلا بما يقولون إنهم خالفوا فيه السنة والحديث لخفائه عليهم أو إعراضهم عنه ، أو لاقتضاء أصل قياس مَهّدُوه ردّ ذلك[١] ، كما يقع نحو ذلك في المسائل العلمية[٢] . فإن مخالفة المسلم الصحيح الإيمانِ النص إنما يكون لعدم علمه به ، أو لاعتقاده صحة ماعارضه ، لكن هو[٣] فيما ظهر من السنة وعظُم أمرُه يقع بتفريط من المخالف وعدْوان ، فيستحق من الذم مالا يستحقه في النص الخفي[٤] وكذلك فيما يوقع الفُرقة والاختلاف يعظم فيه أمر المخالفة للسنة .

ولهذا اهتم كثير من الملوك والعلماء بأمر الإسلام وجهاد أعدائه ، حتى صاروا يلعنون الرافضة[٥] والجهمية وغيرهم على المنابر ، حتى لعنوا كل طائفة رأوا فيها بدعة . فلعنوا الكْلاَّبية والأشعرية ، كما كان في مملكة الأمير محمود ابن سُبَكتكين[٦] وفي دولة السلاجقة ابتداء ، وكذلك الخليفة القادر[٧] ربما اهتم بذلك واستشار المعتزلة من الفقهاء ، ورفعوا إليه أمر القاضي أبي بكر[٨] ونحوه

---

(١) يعني أنهم قد يمهدون قياساً ، فيقتضيهم طرده : أن يردوا شيئاً من السنة ، فلذلك يتكلم فيهم الذاب عن السنة ويبين فساد هذا القياس المخالف للسنة .

(٢) كذا وصوابها « العملية » يعني أن مخالفته للسنة لطرد قياس فاسد يقع في المسائل العلمية ، كما يقع في المسائل العملية الفقهية . (٣) يعني مخالفة النص .

(٤) يريد أن مخالف النص الجلي مفرط معتد مذموم أكثر من مخالف النص الخفي .

(٥) غلاة الشيعة الذين يرفضون خلافة أبي بكر وعمر وعثمان ويسبونهم وسائر الصحابة والجهمية . كل من يوافق جهم بن صفوان المبتدع في إنكار الصفات . والكلابية أتباع ابن كلاب المتقدم ذكره

(٦) أبو القاسم يمين الدولة محمود بن سبكتكين أمين الدولة صاحب بلاد غزنة الملك الكبير العادل ، صاحب الفتوحات العظيمة ، وقائد الجيوش الباسانية . تملك عليهم بعد أبيه سنة ٣٣٧ هـ . وتوفي سنة ٤٢١ هـ . وطال ملكه وعدله . له ترجمة في تاريخ ابن كثير ص ٢٩ ج ١٢ . وفي ابن خلكان (٤ ص ٢٦٢)

(٧) الخليفة أبو العباس القادر بالله أحمد بن الأمير إسحق ابن المقتدر بالله كانت خلافته من سنة ٣٨١ إلى سنة ٤٢٢ هـ .

(٨) هو القاضي أبو بكر محمد بن الطيب بن محمد الباقلاني ، توفي ببغداد سنة ٤٠٣ هـ

وهموا به ، حتى كان يختفى ، و إنما تستر بمذهب الإمام أحمد وموافقته ، ثم ولى النَّظَّام[(١)] وسعوا فى رفع اللعنة ، واستفتوا من استفتوه[(٢)] من فقهاء العراق ، كالدامغانى[(٣)] الحنفى وأبى إسحق الشيرازى[(٤)] ، وفتواهما حجة على من بخراسان من الحنفية والشافعية . وقد قيل : إن أبا إسحق استعفى من ذلك فألزموه ، وأفتوا بأنه لا يجوز لعنتهم ، و يعزر من يلعنهم ، وعلل الدامغانى بأنهم طائفة من المسلمين ، وعلل أبو إسحق — مع ذلك — بأن لهم ذَبًّا ورداً على أهل البدع المخالفين للسنة ، فلم يمكن المفتى أن يعلل رفع الذم إلا بموافقة السنة والحديث .

وكذلك رأيت فى فتاوى الفقيه أبى محمد[(٥)] فتوى طويلة ، فيها أشياء حسنة قد سئل بها عن مسائل متعددة قال فيها :

ولا يجوز شغل المساجد بالغناء والرقص ومخالطة المردان ، ويعزر فاعله تعزيراً بليغاً رادعاً ، وأما لبس الحلق والدمالج والسلاسل والأغلال ، والتختم بالحديد والنحاس فبدعة وشهرة ، وشر الأمور محدثاتها ، وهى لهم فى الدنيا وهى لباس أهل النار ، وهى لهم فى الآخرة ، إن ماتوا على ذلك . ولا يجوز السجود لغير الله من الأحياء والأموات ولا تقبيل القبور ويعزر فاعله . ومن لعن أحداً من المسلمين

---

(١) نظام الملك أبو على الحسن بن على بن إسحق المتوفي سنة ٤٨٥ ترجمه ابن كثير فى تاريخه ص ١٤٠ ج ١٢ . (٢) شرحها ابن كثير فى تاريخه ص ١١٥ ج ١٢

(٣) قاضى القضاة ببغداد أبو عبدالله محمد بن على الدامغانى الحنفي توفى سنة ٤٧٨ هـ بداية ص ١٢٩ ج ٢ .

(٤) هو الفقيه أبو إسحق إبراهيم بن على الفيروزبادى الشيرازى صاحب التنبيه والمهذب والنكت واللمع وطبقات الفقهاء وغيرها من الكتب النافعة فى فروع وأصول الشافعية. توفى سنة ٤٧٦ هـ . بداية ص ١٢٤ ج ١٢

(٥) هو أبو محمد عز الدين عبد العز بز بن عبد السلام الملقب بسلطان العلماء المتوفى سنة ٦٦٠ هـ .

عزر على ذلك تعزيراً بليغاً . والمؤمن لا يكون لعاناً ، وما أقربه من عود اللعنة عليه قال : ولا تحل الصلاة عند القبور ، ولا المشى عليها من الرجال والنساء ، ولا تعمل مساجد للصلاة فإنه « اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » قال : وأما لعن العلماء لأئمة الأشعرية فمن لعنهم عزر . وعادت اللعنة عليه فمن لعن من ليس أهلا للعنة وقعت اللعنة عليه ، والعلماء أنصار فروع الدين ، والأشعرية أنصار أصول الدين ، قال : وأما دخولهم النيران ، فمن لا يتمسك بالقرآن فإنه فتنة لهم ومضلة لمن يراهم كما يفتتن الناس بما يظهر على يدى الدجال ، فإنه من ظهر على يديه خارق فإنه يوزن بميزان الشرع . فإن كان على الاستقامة كان ماظهر على يديه كرامة ، ومن لم يكن على الاستقامة كان ذلك فتنة كما يظهر على يدى الدجال من إحياء الميت وما يظهر من جنته وناره ، فإن الله يُضِلُّ من لاخلاق له بما يظهر على يدى هؤلاء . وأما من تمسك بالشرع الشريف : فإنه لو رأى من هؤلاء من يطير فى الهواء أو يمشى على الماءفإنه يعلم أن ذلك فتنة للعباد . انتهى .

فالفقيه أبو محمد أيضاً إنما منع اللعن ، وأمر بتعزير اللاعن لأجل ما نصروه من أصول الدين ، وهو ما ذكرناه من موافقةالقرآن والسنة والحديث ، والرد على من خالف القرآن والسنة والحديث . ولهذا كان الشيخ أبو إسحق يقول « إنما نفقت الأشعرية عند الناس بانتسابهم إلى الحنابلة » وهذا ظاهر عليه وعلى أئمة أصحابه فى كتبهم ومصنفاتهم قبل وقوع الفتنة القشيرية [1] ببغداد ، ولهذا قال أبو القاسم ابن عساكر فى مناقبه [2] : « ما زالت الحنابلة والأشاعرة فى قديم الدهر متفقين

(١) كما ذكر ابن كثير فى حوادث سنة ٤٦٩ هـ من تاريخه البداية (ص ١١٥ ج ١٢ طبع مصر .

(٢) وعبارة ابن عساكر فى الكتاب المذكور (ص ١٦٣) طبعة دمشق سنة ١٣٤٧ وهو المسمى تبيين كذب المفترى فيما نسب إلى الإمام أبى الحسن الأشعرى . وهى نسبة إلى القشيرى : أبى نصر عبد الرحيم بن أبى القاسم عبد الكريم ابن هوزان القشيرى .

غير مفترقين ، حتى حدثت فتنة ابن القشيري » ثم بعد حدوث الفتنة وقبلها لا تجد من يمدح الأشعرى بمدحة إلا إذا وافق السنة والحديث ولا يذمه من يذمه إلا بمخالفة السنة والحديث .

وهذا إجماع من جميع هذه الطوائف على تعظيم السنة والحديث ، واتفاق شهاداتهم على أن الحق فى ذلك . ولهذا تجد أعظمهم موافقة لأئمة السنة والحديث أعظم عند جميعهم ممن هو دونه . فالأشعرى نفسه لما كان أقرب إلى قول الإمام أحمد ومن قبله من أئمة السنة كان عندهم أعظم من أتباعه ، والقاضى أبو بكر ابن الباقلانى لما كان أقربهم إلى ذلك كان أعظم عندهم من غيره . وأما مثل الأستاذ أبى المعالى (١) وأبى حامد (٢) ونحوهما ممن خالفوا أصوله (٣) فى مواضع : فلا تجدهم يُعظّمون إلا بما وافقوا فيه السنة والحديث وأكثر ذلك تقلدوه من مذهب الشافعى فى الفقه الموافق للسنة والحديث ، ومما ذكروه فى الأصول مما يوافق السنة والحديث ، وما ردُّوه مما يخالف السنة والحديث وبهذا القدر ينتحلون السنة ويُنْحَلونها وإلا لم يصح ذلك.

وكانت الرافضة والقرامطة ـ علماؤها وأمراؤها ـ قد استظهرت فى أوائل الدولة السلجوقية ، حتى غلبت على الشام والعراق ، وأخرجت الخليفة القائم ببغداد إلى تِكْريت وحبسوه بها فى فتنة البساسيرى المشهورة (٤) فجاءت بعد

---

(١) هو أبو المعالى عبد الملك بن عبد الله بن يوسف بن أبى محمد الجوينى الملقب إمام الحرمين . مات فى ربيع الآخر سنة ٤٧٨ هـ .

(٢) هو أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالى صاحب كتاب إحياء علوم الدين وغيره مات فى ١٤ جمادى الآخرة سنة ٥٠٥ هـ .

(٣) أصول الأشعرى .

(٤) نسبة إلى أرسلان التركى البساسيرى مقدم الأتراك ، قتل فى ذى الحجة سنة ٤٥١ إثر فتنته التى قام بها على الخليفة ببغداد ممالأة للعبيديين بمصر .

ذلك السلجوقية حتى هزموهم وفتحوا الشام والعراق ، وقهروهم بخراسان ، وحجروهم بمصر . وكان فى وقتهم من الوزراء : مثل نظام الملك ، ومن العلماء : مثل أبى المعالى الجوينى ، فصاروا بما يقيمونه من السنة و يردونه من بدعة هؤلاء ونحوهم لهم من المكانة عند الأمة بحسب ذلك .

وكذلك المتأخرون من أصحاب مالك الذين وافقوه[(١)] كأبى الوليد الباجى[(٢)] والقاضى أبى بكر بن العربى[(٣)] ونحوهما ، لا يُعظَّمون إلا بموافقة السنة والحديث وأما الأكابر ، مثل ابن حبيب وابن سحنون ونحوهما ، فلون آخر .

وكذلك أبو محمد بن حزم[(٤)] فيما صنفه من الملل والنحل إنما يُستحمد بموافقة السنة والحديث ، مثل ما ذكره فى مسائل القَدَر والإرجاء ونحو ذلك ، بخلاف ما انفرد به من قوله فى التفضيل بين الصحابة . وكذلك ما ذكره فى باب الصفات ، فإنه يُستحمد فيه بموافقة أهل السنة والحديث ، لكونه يثبت الأحاديث الصحيحة و يعظم السلف وأئمة الحديث ، و يقول إنه موافق للإمام أحمد فى مسألة القرآن[(٥)]

---

(١) أى الأشعرى . (٢) هو أبو الوليد سليمان بن خلف بن سعد التجيبى الباجى الفقيه المالكى . توفى سنة ٤٧٤ هـ .

(٣) هو الفقيه المالكى أبو بكر بن العربى شارح الترمذى ومفسر آيات الأحكام أخذ عن الغزالى وغيره . توفى سنة ٥٤٥ هـ

(٤) هو أبو محمد على بن أحمد بن سعيد بن حزم ، فقيه أهل الظاهر ولسانهم وحجتهم صاحب التصانيف النافعة كالمحلى والفصل والإحكام وغيرها توفى سنة ٤٥٦ هـ

(٥) قوله « ويقول إنه موافق للامام أحمد فى مسألة القرآن » الظاهر أنه فى غاية المخالفة له ، ومذهبه الذى ينقل عنه فى القرآن : مذهب باطل ، فإنه يقول : « القرآن أربعة : هذا المتلو والثابت فى الرسم العثمانى والمحفوظ فى الصدور ، وهذه الثلاث كلها مخلوقة ، والرابع المعنى القديم ، وكل واحد منها يسمى بالقرآن » وهذا مباين لمذهب الإمام أحمد الذى هو مذهب السلف . كذا فى هامش الأصل .

قلت : كذا الموجود فى الهامش ؛ والذى فى الملل والنحل لأبى محمد بن حزم : « القرآن خمسة أشياء أربعة مخلوقة » وزاد على ما هنا « المفهوم من ذلك الصوت » انظر (ج ٣ ص ٧) وكتبه سليمان الصنيع .

وغيرها ، ولا ريب أنه موافق له ولهم فى بعض ذلك ، لكن الأشعري ونحوه أعظم موافقة للامام أحمد بن حنبل ومن قبله من الأئمة فى القرآن والصفات ، وإن كان أبو محمد — ابن حزم — فى مسائل الإيمان والقدَر أقوم من غيره ، وأعلم بالحديث وأكثر تعظيما له ولأهله من غيره ، لكن قد خالط من أقوال الفلاسفة والمعتزلة فى مسائل الصفات ما صرفه عن موافقة أهل الحديث فى معانى مذهبهم فى ذلك ، فوافق هؤلاء[١] فى اللفظ وهؤلاء[٢] فى المعنى ، وبمثل هذا صار يذمه من يذمه من الفقهاء والمتكلمين وعلماء الحديث باتباعه لظاهر لا باطن له ، كما نفى المعانى[٣] فى الأمر والنهى والاشتقاق ، وكما نفى خرق العادات ونحوه من عبادات القلوب ، مضموما إلى ما فى كلامه من الوقيعة فى الأكابر ، والإسراف فى نفى المعانى[٤] ودعوى متابعة الظواهر ، وإن كان له من الإيمان والدين والعلوم الواسعة الكثيرة مالا يدفعه إلا مكابر ، ويوجد فى كتبه من كثرة الاطلاع على الأقوال والمعرفة بالأحوال والتعظيم لدعائم الإسلام ولجانب الرسالة مالا يجتمع مثله لغيره . فالمسألة التى يكون فيها حديث يكون جانبه فيها ظاهر الترجيح . وله من التمييز بين الصحيح والضعيف[٥] والمعرفة بأقوال السلف مالا يكاد يقع مثله لغيره من الفقهاء .

وتعظيم أئمة الأمة وعوامها للسنة والحديث وأهله فى الأصول والفروع من الأقوال والأعمال أكثر من أن يذكر هنا . وتجد الإسلام والإيمان كلما ظهر وقوى كانت السنة وأهلها أظهر وأقوى ، وإن ظهر شىء من الكفر والنفاق ظهرت البدع بحسب ذلك ، مثل دولة المهدى[٦] والرشيد[٧] ونحوهما ممن كان يعظم الإسلام

---

(١) أهل الحديث . (٢) الفلاسفة . (٣) الحكم والقياس الجلى والعلل وتعدية الحكم إلى مشتقات ما علق به الحكم (٤) أى الحكم والتعليل . (٥) أى من الحديث . (٦) هو الخليفة أبو عبد الله محمد المهدى بن أبى جعفر المنصور العباسى . وكانت خلافته سنة ١٥٨ إلى سنة ١٦٨ هـ . (٧) هرون الرشيد بن محمد المهدى ابن المنصور . كانت خلافته سنة ١٧٠ إلى وفاته سنة ١٩٣ .

والإيمان ، ويغزو أعداءه من الكفار والمنافقين . كان أهل السنة فى تلك الأيام أقوى وأكثر وأهل البدع أذل وأقل . فإن المهدى قتل من المنافقين الزنادقة من لا يحصى عدده إلا الله ، والرشيد كان كثير الغزو والحجّ . وذلك أنه لما انتشرت الدولة العباسية وكان فى أنصارها من أهل المشرق والاعاجم طوائف من الذين نعتهم النبي صلى الله عليه وسلم حيث قال « الفتنة ههنا » ظهر حينئذ كثير من البدع وعُرِّبت أيضاً إذ ذاك طائفة من كتب الأعاجم من المجوس الفرس والصابئين الروم والمشركين الهند ، وكان المهدى من خيار خلفاء بنى العباس ، وأحسنهم إيماناً وعدلاً وجوداً ، فصار يتتبع المنافقين الزنادقة كذلك . وكان خلفاء بنى العباس أحسن تعاهدا للصلوات فى أوقاتها من بنى أمية ، فإن أولئك كانوا كثيرى الإضاعة لمواقيت الصلاة ، كما جاءت فيهم الأحاديث « سيكون بعدى أمراء يؤخرون الصلاة عن وقتها ، فصلوا الصلاة لوقتها ، واجعلوا صلاتكم معهم نافلة » لكن كانت البدع فى القرون الثلاثة الفاضلة مقموعة ، وكانت الشريعة أعز وأظهر ، وكان القيام بجهاد أعداء الدين من الكافرين والمنافقين أعظم . وفى دولة أبى العباس المأمون [١] ظهر الخُرَّمية [٢] ونحوهم من المنافقين وعرب من كتب الأوائل المجلوبة من بلاد الروم ما انتشر بسببه مقالات الصابئين وراسل ملوك المشركين من الهند ونحوهم حتى صار بينه وبينهم مودّة ، فلما ظهر ما ظهر من الكفر والنفاق فى المسلمين وقوى ما قوى من حال المشركين وأهل الكتاب كان من أثر ذلك : ما ظهر من استيلاء الجهمية والرافضة وغيرهم من أهل

(١) أبو العباس عبد الله المأمون بن هرون الرشيد ، ولى الخلافة بعد قتله لأخيه محمد الأمين سنة ١٩٨ وبقى خليفة إلى أن مات سنة ٢١٨ هـ .

(٢) هم أتباع بابك الخرمى الذى عاث فى الأرض فساداً بخراسان وغيرها . وكان ابتداء شره سنة ٢٠٣ وانتهت فتنته بقتله على يد الخليفة المعتصم ١٣ ربيع الآخر سنة ٢٢٣ هـ . (البداية ص ٨٥ ، ج ١٠)

الضلال وتقريب الصائبة ونحوهم من المتفلسفة . وذلك بنوع رأى يحسبه صاحبه عقلاً وعدلاً ، وإنما هو جهل وظلم ، إذ التسوية بين المؤمن والمنافق والمسلم والكافر أعظم الظلم ، وطلب الهدى عند أهل الضلال أعظم الجهل ، فتولد من ذلك محنة الجهمية ، حتى امتحنت الأمة بنفى الصفات والتكذيب بكلام الله ورؤيته ، وجرى من محنة الإمام أحمد[1] وغيره ماجرى مما يطول وصفه .

وكان فى أيام المتوكل[1] قد عز الإسلام حتى ألزم أهل الذمة بالشروط العمرية[2] وألزموا الصغار ، فعزت السنة والجماعة ، وقمعت الجهمية والرافضة ونحوهم وكذلك فى أيام المعتضد[3] والمهدى[4] والقادر[5] وغيرهم من الخلفاء الذين كانوا أحمد سيرة وأحسن طريقة من غيرهم . وكان الإسلام فى زمنهم أعز ، وكانت السنة بحسب ذلك .

وفى دولة بنى بويه[6] ونحوهم : الأمر بالعكس ، فإنهم كان فيهم أصناف

---

(١) لخصها الشيخ ابن كثير فى البداية والنهاية ص ٣٣١ ج ١٠

(٢) أى التى أخذها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب على أهل الذمة عند فتح القدس .

(٣) أبو العباس المعتضد أحمد بن أحمد الموفق بن جعفر المتوكل خلافته ما بين سنة ٢٧٩ إلى سنة ٢٨٩ وفيها كانت وفاته . ترجمه ابن كثير ص ٨٦ ج ١١

(٤) قوله «المهدى» كذا بالأصل ، ولعل صوابه : المقتدى بالله أبو عبد الله ابن الذخيرة الأمير ولى العهد أبي العباس بن القائم بأمر الله ابن القادر بالله العباسى . كانت خلافته ما بين سنة ٤٦٧ إلى سنة ٤٨٧ هـ البداية ص ١٤٦ ج ١٢ .

(٥) أبو العباس القادر بالله ، تقدم ذكره ، قريبا خلافته ما بين سنة ٣٨١ إلى سنة ٤٢٢ هـ . (٦) كان أول ملوكهم معز الدولة أحمد بن الحسن بن بويه الذى قدم بغداد وقبض على المستكفى وخلعه وعذبه وسمل عينيه . وولى مكانه الطائع سنة ٣٣٤ هـ وانتهت مدتهم فى عهد الملك الرحيم الذى اعتقله طغرلبك محمد بن ميكائيل بن سلجوق أول ملوك السلاجقة سنة ٤٤٧ هـ

المذاهب المذمومة قوم منهم زنادقة ، وفيهم قرامطة كثيرة ومتفلسفة ومعتزلة ورافضة وهذه الأشياء كثيرة فيهم غالبة عليهم . فحصل فى أهل الإسلام والسنة فى أيامهم من الوهن ما لم يعرف ، حتى استولى النصارى على ثغور الإسلام وا نتشرت القرامطة فى أرض مصر والمغرب والمشرق وغير ذلك وجرت حوادث كثيرة .

ولما كانت مملكة محمود بن سبكتكين[1] من أحسن ممالك بنى جنسه كان الإسلام والسنة فى مملكته أعز ، فإنه غزا المشركين من أهل الهند ، ونشر من العدل ما لم ينشره مثله . فكانت السنة فى أيامه ظاهرة والبدع فى أيامه مقموعة .

وكذلك السلطان نور الدين محمود[2] الذى كان بالشام عَزَّ أهل الإسلام والسنة فى زمنه ، وذل الكفار وأهل البدع ممن كان بالشام ومصر وغيرهما من الرافضة والجهمية ونحوهم . وكذلك ما كان فى زمنه من خلافة بنى العباس ووزارة ابن هبيرة[3] لهم ، فإنه كان من أمثل وزراء الإسلام . ولهذا كان له من العناية بالأسلام والحديث ما ليس لغيره

وما يوجد من إقرار أئمة الكلام والفلسفة وشهادتهم على أنفسهم وعلى بنى جنسهم بالضلال ومن شهادة أئمة الكلام والفلسفة بعضهم على بعض كذلك فأكثر من أن يحتمله هذا الموضع ، وكذلك ما يوجد من رجوع أئمتهم إلى مذهب عموم أهل السنة وعجائزهم كثير ، وأئمة السنة والحديث لا يرجع منهم أحد[4] لأن « الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب لا يسخطه أحد[5] » وكذلك

(١) تقدمت الإشارة اليه قريباً (٢) السلطان نور الدين محمود بن زنكى الشهيد ملك مصر والشام سنة ٥٤٩ مترجم ص ٢١٣ ج ١٢ البداية لابن كثير

(٣) الوزير أبو المظفر يحيى بن محمد بن هبيرة العالم الصالح الصحيح المعتقد الحنبلى مؤلف كتاب « الإفصاح » توفى سنة ٥٦٠ هـ البداية ص ٢٥٠ ج ١٢ .

(٤) أى عن معتقد أهل السنة والحديث إلى معتقد أهل الكلام والفلسفة

(٥) جزء من حديث قصة هرقل مع أبى سفيان . رواه البخاري فى آخر بدء الوحى .

ما يوجد من شهادتهم لأهل الحديث بالسلامة والخلاص من أنواع الضلال، وهم لا يشهدون لأهل البدع إلا بالضلال . وهذا باب واسع كما قدمناه .

وجميع الطوائف المتقاتلة من أهل الأهواء تشهد لهم بأنهم أصلح من الآخرين وأقرب إلى الحق ، فنجد كلام أهل النحل فيهم وحالهم معهم بمنزلة كلام أهل الملل مع المسلمين وحالهم معهم .

وإذا قابلنا بين الطائفتين ـ أهل الحديث ، وأهل الكلام ـ فالذى يعيب بعض أهل الحديث وأهل الجماعة بحشو القول : إنما يعيبهم بقلة المعرفة أو بقلة الفهم ، أما الأول : فبأن يحتجوا بأحاديث ضعيفة أو موضوعة أو بآثار لا تصلح للاحتجاج ، وأما الثانى : فبأن لا يفهموا معنى الأحاديث الصحيحة ، بل قد يقولون القولين المتناقضين ولا يهتدون للخروج من ذلك .

والأمر راجع إلى شيئين . إما زيادة أقوال غير مفيدة يُظَن أنها مفيدة ، كالأحاديث الموضوعة ، وإما أقوال مفيدة لكنهم لا يفهمونها ، إذ كان اتباع الحديث يحتاج أولاً إلى صحة الحديث . وثانياً إلى فهم معناه ، كاتباع القرآن . فالخلل يدخل عليهم من ترك إحدى المقدمتين [1] . ومن عابهم من الناس فإنما يعيبهم بهذا . ولا ريب أن هذا موجود فى بعضهم ، يحتجون بأحاديث موضوعة فى مسائل الأصول والفروع وآثار مفتعلة وحكايات غير صحيحة ، ويذكرون من القرآن والحديث ما لا يفهمون معناه ، وربما تأولوه على غير تأويله وَوضعوه على غير موضعه ، ثم إنهم بهذا المنقول الضعيف والمعقول السخيف قد يكفرون ويُضَلِّلُون ويُبَدِّعون أقواماً من أعيان الأمة ويُجَهِّلونهم ، ففى بعضهم من التفريط فى الحق والتعدى على الخلق ما قد يكون بعضُه خطأً مغفورا ، وقد يكون مُنكَرا من القول وزورا ، وقد يكون من البدع والضلالات التى توجب غليظ

(١) عدم الصحة أو عدم الفهم

العقوبات . فهذا لا ينكره إلا جاهل أو ظالم ، وقد رأيت من هـذا عجائب ، لـكن هم بالنسبة إلى غيرهم فى ذلك كالمسلمين بالنسبة إلى بقية الملل ، ولا ريب أن فى كثير من المسلمين من الظلم والجهـل والبدع والفجور ما لا يعلمه إلا من أحاط بكل شىء علما ، لـكن كل شر يكون فى بعض المسلمين فهو فى غيرهم أكثر ، وكل خير يكون فى غيرهم فهو فيهم أعلى وأعظم ، وهكذا أهل الحديث بالنسبة إلى غيرهم .

وبيان ذلك : أن ماذكر من فضول الـكلام الذى لا يفيد ـ مع اعتقاد أنه طريق إلى التصور والتصديق ـ هو فى أهل الـكلام والمنطق أضعاف أضعافِ أضعافِ ما هو فى أهل الحديث ، فبإزاء احتجـاج أولئك بالحديث الضعيف احتجاج هؤلاء [1] بالحدود والأقيسـة الـكثيرة العقيمة التى لا تفيد معرفة ، بل تفيد جهلا وضلالا ، وبإزاء تـكلم أولئك بأحاديث لايفهمون معناها تـكَلُّفُ هؤلاء من القول بغير علم ماهو أعظم من ذلك وأكثر ، وما أحسن قول الإمام أحمد : « ضعيف الحديث خير من رأى فلان » .

ثم لأهل الحديث من المزية : أن مايقولونه من الـكلام الذى لايفهمه بعضهم هو كلام فى نفسه حق ، وقد آمنوا بذلك ، وأما المتـكلمة : فيتكلفون من القول مالا يفهمونه ولا يعلمون أنه حق ، وأهل الحديث لايستدلون بحديث ضعيف فى نقض أصل عظيم من أصول الشريعة ، بل إما فى تأييده وإما فى فرع من الفروع وأولئك[2] يحتجون بالحدود والمقاييس الفاسدة فى نقض الأصول الحقة الثابتة

إذا عرف هذا فقد قال الله تعالى عن أتْباع الأئمة من أهل الملل المخالفين للرسل (٤٠ : ٨٣ فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم) وقال تعالى (٣٣ : ٦٦ ـ ٦٨ يوم تُقَلَّب وجوههم فى النار يقولون : يا ليتنا أطعنا الله

(١) اى المتـكلمين والمناطقة . (٢) أى المتكلمين

وأطعنا الرسولا ـ إلى قوله ـ والعنهم لعنا كبيرا) ومثل هذا فى القرآن كثير .

و إذا كانت سعادة الدنيا والآخرة هي باتباع المرسلين . فمن المعلوم أن أحق الناس بذلك : هم أعلمهم بآثار المرسلين وأتبعهم لذلك ، فالعالمون بأقوالهم وأفعالهم المتبعون لها هم أهل السعادة فى كل زمان ومكان ، وهم الطائفة النـاجية من أهل كل ملة ، وهم أهل السنة والحديث من هذه الأمة . فإنهم يشاركون سائر الأمة فيما عندهم من أمور الرسالة ، و يمتازون عنهم بما اختصوا به من العلم الموروث عن الرسول مما يجهله غيرهم أو يكذب به ، والرسل صلوات الله وسلامه عليهم ، عليهم البلاغ المبين ، وقد بلغوا البلاغ المبين ، وخاتم الرسل محمد صلى الله عليه وسلم أنزل الله كتابه مصدقا لما بين يديه من الـكتاب ومهيمناً عليه ، فهو الأمين على جميع الـكتب ، وقد بلَّغ أبين البـلاغ وأتمّه وأكمله ، وكان أنصح الخلق لعباد الله ، وكان بالمؤمنين رؤوفاً رحيما ، بلغ الرسـالة وأدى الأمانة وجاهد فى الله حق جهاده ، وعبد الله حتى أتاه اليقين . فأسعد الخلق وأعظمهم نعيما وأعلاهم درجة : أعظمهم اتباعا وموافقة له علما وعملا .

وأما غير أتباعه من أهل الـكلام فالـكلام فى أقيستهم التى هى حججهم و براهينهم على معارفهم وعلومهم ، وهذا يدخل فيه كل من خالف شيئا من السنة والحديث من المتكلمين والفلاسفة . فالـكلام فى هذا المقام واسع لا ينضبط هنا ، لـكن المعلوم من حيث الجملة : أن الفلاسفة والمتـكلمين من أعظم بنى آدم حشواً وقولا للباطل وتكذيبا للحق فى مسـائلهم ودلائلهم ، لا يكاد ـ والله أعلم ـ تخلو لهم مسألة واحدة عن ذلك .

وأذكر أنى قلت مرّة لبعض من كان ينتصر لهم من المشغوفين بهم ـ وأنا إذ ذاك صغير قريب العهد من الاحتلام ـ كل ما يقوله هؤلاء ففيه باطل ، إما فى الدلائل وإما فى المسائل ، إما أن يقولوا مسألة تكون حقا لـكن يقيمون عليها أدلة ضعيفة وإما أن تكون المسألة باطلا . وأخذ ذلك المشغوف بهم يعظم هذا ،

وذكر مسأله التوحيد ، فقلت : التوحيد حق ، لكن اذكر ما شئت من أدلتهم التي تعرفها حتى أذكر لك ما فيه . فذكر بعضها بحروفه حتى فهم الغلط وذهب إلى ابنه ـ وكان أيضاً من المتعصبين لهم ـ فذكر ذلك له قال فأخذ يعظم ذلك عليَّ ، فقلت : أنا لا أشك في التوحيد، ولكن أشك في هذا الدليل المعين .

ويدلك على ذلك أمور :

أحدها : أنك تجدهم أعظم الناس شكا واضطرابا ، وأضعف الناس علما ويقينا ، وهذا أمر يجدونه في أنفسهم ويشهده الناس منهم ، وشواهد ذلك أعظم من أنْ تذكر هنا ، وإنما فضيلة أحدهم باقتداره على الاعتراض والقدح والجدل . ومن المعلوم : أن الاعتراض والقدح ليس بعلم ولا فيه منفعة ، وأحسن أحوال صاحبه : أن يكون بمنزلة العامى ، وإنما العلم في جواب السؤال . ولهذا تجد غالب حججهم تتكافأ[(١)] إذ كل منهم يقدح في أدلة الآخر . وقد قيل : إن الأشعرى ـ مع أنه من أقربهم إلى السنة والحديث وأعلمهم بذلك ـ صنف في آخر عمره كتابا في تكافؤ الأدلة يعني أدلة [علم] الكلام ، فإن ذلك هو صناعته التي يحسن الكلام فيها ، وما زال أئمتهم يخبرون بعدم الأدلة والهدى في طريقهم ، كما ذكرناه عن أبي حامد وغيره ، حتى قال أبو حامد الغزالي « أكثر الناس شكا عند الموت أهل الكلام » وهذا أبو عبد الله الرازى [(٢)] من أعظم الناس في هذا الباب ـ باب الحيرة والشك والاضطراب ـ لكن هو مسرف في هذا الباب بحيث إنه يتهم في التشكيك دون التحقيق ، بخلاف غيره ، فإنه يحقق شيئا

---

(١) أى أن أدلة المطالب المتعارضة والمتضادة تتساوى ، فلا يرجح بعضها على بعض فيتحير الطالب ولا يتمكن من اختيار بعضها أو ترجيحه .

(٢) الشهير بالفخر الرازى ، ويعرف بابن خطيب الرى ، واسمه محمد بن عمر ابن الحسين بن على ، اشتهر بالكلام والجدل وتفسيره كله كلام وجدل وفلسفة مات سنة ٦٠٦ هـ ص ٥٥ ج ١٣ من البداية .

ويثبت على نوع من الحق ، لكن بعض الناس قد يثبت على باطل محض ، بل لا بد فيه من نوع من الحق . وكان من فضلاء المتأخرين وأبرعهم فى الفلسفة والكلام : ابن واصل الحموى ، كان يقول « أستلقى على قفاى وأضع الملحفة على نصف وجهى ، ثم أذكر المقالات ، وحجج هؤلاء وهؤلاء . واعتراض هؤلاء وهؤلاء حتى يطلع الفجر ، ولم يترجح عندى شىء » ولهذا أنشد الخطابى[1] .

حجج تهافت كالزجاج ، تخالها حقا ، وكلٌ كاسر مكسور

فإذا كانت هذه حال حججهم فأى لغو باطل وحشو يكون أعظم من هذا ؟ وكيف يليق بمثل هؤلاء أن ينسبوا [إلى الحشو] أهل الحديث والسنة ـ الذين هم أعظم الناس علما ويقينا وطمأنينة وسكينة ، وهم الذين يَعْلمون و يَعْلمون أنهم يَعْلمون ، وهم بالحق يوقنون لا يشكون ، ولا يمترون ؟

فأما ما أوتيه علماء أهل الحديث وخواصهم من اليقين والمعرفة والهدي : فأمر يجل عن الوصف . ولكن عند عوامهم من اليقين والعلم النافع ما لم يحصل منه شىء لأئمة المتفلسفة المتكلمين . وهذا ظاهر مشهود لكل أحد .

غاية ما يقول أحدهم : إنهم جزموا بغير دليل ، وصمموا بغير حجة ، وإنما معهم التقليد . وهذا القدر قد يكون فى كثير من العامة . لكن جزم العلم غير جزم الهوى . فالجازم بغير علم يجد من نفسه أنه غير عالم بما جزم به ، والجازم بعلم يجد من نفسه أنه عالم ، إذ كون الإنسان عالما وغير عالم مثل كونه سامعاً ومبصراً وغير سامع ومبصر ، فهو يعلم من نفسه ذلك ، مثل ما يعلم من نفسه كونه محباً ومبغضا ومريدا وكارها ومسرورا ومحزونا ومنعَّماً ومُعذَّبا وغير ذلك . ومن شك فى كونه يعلم ـ مع كونه يعلم ـ فهو بمنزلة من جزم بأنه علم وهو لا يعلم ، وذلك نظير من شك في كونه سمع ورأى أو جزم بأنه سمع ورأى مالم يسمعه ويراه .

(١) أبو سليمان حمد بن محمد بن ابراهيم الخطابى صاحب معالم السنن شرح سنن أبي داود وأعلام السنن شرح البخارى وغيرها . توفي سنة ٣٨٣ هـ

والغلط أو الكذب يعرض للإنسان فى كل واحد من طرف النفى والإثبات لكن هذا الغلط أو الكذب العارض لا يمنع أن يكون الإنسان جازما بما لا يشك فيه من ذلك، كما يجزم بما يجده من المطعوم والأراييح[1] وإن كان قد يعرض له من الانحراف ما يجد به الحلو مرا.

فالأسباب العارضة لغلط الحس الباطن أو الظاهر والعقل بمنزلة المرض العارض لحركة البدن والنفس، والأصل هو الصحة فى الإدراك وفى الحركة. فإن الله خلق عباده على الفطرة. وهذه الأمور يعلم الغلط فيها بأسبابها الخاصة كالمِرَّة الصفراء العارضة للطعم[2] وكالحوَل فى العين[3] ونحو ذلك، وإلا فمن حاسب نفسه على ما يجزم به وجد أكثر الناس الذين يجزمون بما لا يُجْزَم به إنما جزمهم لنوع من الهوى، كما قال تعالى (٦:١١٩ وإن كثيرا ليضلون بأهوائهم بغير علم) وقال (٢٨:٥٠ ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله).

ولهذا تجد اليهود يصممون ويصرون على باطلهم لما فى نفوسهم من الكبر والحسد والقسوة وغير ذلك من الأهواء. وأما النصارى فأعظم ضلالا منهم، وإن كانوا فى العادة والأخلاق أقل منهم شرا، وليسوا جازمين بغالب ضلالهم، بل عند الاعتبار تجد من ترك الهوى من الطائفتين ونظر نوع نظر تبين له الإسلام حقاً.

والمقصود: هنا أن معرفة الإنسان بكونه يعلم أو لا يعلم: مرجعه إلى وجود نفسه عالمة. ولهذا لا نحتج على منكر العلم إلا بوجودنا نفوسنا عالمة، كما احتجوا

---

(١) رائحة تجمع على أرياح، وجمع أرياح: أراييح.

(٢) بسبب التهاب كيس الصفراء الذى فوق الكبد أو انسداد مجراه إلى الأمعاء فتدور الصفراء مع الدم فى سائر البدن.

(٣) خلل فى نظام العينين فلا تنطبق الصورتان اللتان تبصرهما العينان بعضهما على بعض، فيرى صورة الشيء الواحد صورتين اثنتين.

على منكرى الأخبار المتواترة بأنا نجد نفوسنا عالمة بذلك وجازمة به كعلمنا وجزمنا بما أحْسَسْناه . وجعل المحققون وجود العلم بمخبَر الإخبار هو الضابط فى حصول التواتر ، إذ لم يحدوه بعدد ولا صفة بل متى حصل العلم كان هو المعتبر . والإنسان يجد نفسه عالمة ، وهذا حق . فإنه لا يجوز أن يستدل الإنسان على كونه عالما بدليل فإن علمه بمقدمات ذلك الدليل يحتاج إلى أن يجد نفسه عالمة بها ، فلو احتاج علمه بكونه عالما إلى دليل أفضى إلى الدور أو التسلسل [١] ولهذا لا يحس الإنسان بوجود العلم عند وجود سببه إن كان بديهيا [٢] ، أو إن كان نظريا إذا علم المقدمتين . وبهذا استدل على منكري إفادة النظر العلم ، وإن كان فى هذه المسألة تفصيل ليس هذا موضعه .

فالغرض : أن من نظر فى دليل يفيد العلم وجد نفسه عالمة عند علمه بذلك الدليل ، كما يجد نفسه سامعة رائية عند الاستماع للصوت والترائى للشمس أو الهلال أو غير ذلك والعلم يحصل فى النفس كما تحصل سائر الإدراكات والحركات بما يجعله الله من الأسباب ، وعامة ذلك بملائكة الله تعالى . فإن الله سبحانه ينزل بها على قلوب عباده من العلم والقوة وغير ذلك ما يشاء ، ولهذا قال النبى صلى الله عليه وسلم لحسان « اللهم أيده بروح القدس » وقال تعالى (٥٨ : ٢٢ كتب فى قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه) وقال صلى الله عليه وسلم « من طلب القضاء

---

(١) إذا احتاج الشىء فى وجوده أو ثبوته إلى آخر غيره واحتاج الآخر إلى آخر وهلم جرا إلى ما لا نهاية : يسمى ذلك تسلسلا . وإن دار الأمر ورجع إلى الأول بواسطة أو بعدة وسائط : سمى دورا ، مثاله حياة الحيوان والنبات بالماء العذب والماء من السحاب والسحاب يتكون من بخار البحار ، فإذا عاد تكون البخار إلى الحيوان والنبات يسمى ذلك دورا ، وإن ذهبت فى تعليلها إلى ما لا نهاية سمى تسلسلا .

(٢) البديهى : هو الذى يظهر بادى الرأى من غير تأمل ولا نظر واستدلال . وأما النظرى فهو المحتاج إلى ذلك كما هو ظاهر النسبة . والله سبحانه الموفق تعالى وتقدس .

واستعان عليه وُكل إليه ، ومن لم يطلب القضاء ولم يستعن عليه أنزل الله عليه ملكا يسدده » وقال عبد الله بن مسعود : « كنا نتحدث أن السكينة تنطق على لسان عمر » وقال ابن مسعود أيضاً : « إن للملك لَمَّة [(١)] وللشيطان لَمَّة ، فلمة الملك : إيعاد بالخير وتصديق بالحق ، ولمة الشيطان : إيعاد بالشر وتكذيب بالحق» وهذا الكلام الذى قاله ابن مسعود هو محفوظ عنه ، وربما رفعه بعضهم إلى النبي صلى الله عليه وسلم . وهو كلام جامع لأصول ما يكون من العبد من علم وعمل ، من شعور و إرادة .

وذلك : أن العبد له قوة الشعور والإحساس والإدراك و بقوة الإرادة والحركة و إحداهما أصل الثانية مستلزمة لها ، والثانية مستلزمة للأولى ومكملة لها . فهو بالأولى يصدق بالحق ويكذب بالباطل ، و بالثانية يحب النافع الملائم له و يبغض الضار المنافى له . والله سبحانه خلق عباده على الفطرة التى فيها معرفة الحق والتصديق به ، ومعرفة الباطل والتكذيب به ، ومعرفة النافع الملائم والمحبة له ، ومعرفة الضار المنافى والبغض له بالفطرة . فما كان حقا موجودا صدقت به الفطرة وما كان حقا نافعا عرفته الفطرة أحبته واطمأنت إليه . وذلك هو المعروف ، وما كان باطلا معدوما كذبت به الفطرة فأبغضته الفطرة فأنكرته . قال تعالى : (٧ : ١٥٧ يأمرهم بالمعروف و ينهاهم عن المنكر) والإنسان كما سماه النبي صلى الله عليه وسلم حيث قال « أصدق الأسماء حرث وهمام » فهو دائما يَهِمُّ ويعمل ، لكنه لا يعمل إلا ما يرجو نفعه أو دفع مضرته ، ولكن قد يكون ذلك الرجاء مبنيا على اعتقاد باطل ، إما فى نفس المقصود فلا يكون نافعا ولا ضارا [(٢)] ، و إما فى الوسيلة فلا تكون طريقا إليه . وهذا جهل ، وقد يعلم أن هذا الشيء يضره ويفعله ، و يعلم أنه ينفعه و يتركه ، لأن ذلك العلم عارضه ما فى نفسه من طلب

(١) « اللمة » بفتح اللام والميم : الإلمام بالشيء من غير لبث طويل .

(٢) يعنى عند ما يرجو دفع ضرره .

لذة أخرى أو دفع ألم آخر ، جاهلا ظالمـا ، حيث قدم هذا على ذاك . ولهذا قال أبو العالية [١] «سألت أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم عن قوله تعالى (٤ : ١٧ إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب) ؟ فقالوا : كل من عصى الله فهو جاهل ، وكل من تاب قبل الموت فقد تاب من قريب » .

و إذا كان الإنسان لايتحرك إلا راجيا . و إن كان راهباً خائفاً لم يسع [إلا] فى النجاة ولم يهرب [إلا] من الخوف ، فالرجاء لا يكون إلا بما يُأْتِيَ فى نفسه من الإيعاد بالخير ، الذى هو طلب المحبوب ، أو فوات المكروه ، فكل بنى آدم له اعتقاد فيه تصديق بشىء وتكذيب بشىء وله قصد و إرادة لما يرجوه مما هو عنده محبوب ممكن الوصول إليه ، أو لوجود المحبوب عنده أو لدفع المكروه عنه ، والله خلق العبد يقصد الخير فيرجوه بعمله ، فإذا كذب بالحق فلم يصدق به ولم يرج الخير فيقصده و يعمل له : كان خاسراً بترك تصديق الحق وطلب الخير ، فكيف إذا كذب بالحق وكره إرادة الخير ؟ فكيف إذا صدق بالباطل وأراد الشر ؟ فذكر عبد الله بن مسعود أن لقاب ابن آدم لَمَّة من الملك ولَمّة من الشيطان فلَمَّة الملك تصديق بالحق وهو ما كان [من] غير جنس الاعتقاد الفاسد ، و [لمة الشيطان] هو تكذيب بالحق و إيعاد بالشر ، وهو ما كان من جنس إرادة الشر وظن وجوده إما مع رجائه إن كان مع هوى نفس ، و إما مع خوفه إن كان غير محبوب لها . وكل من الرجاء والخوف مستلزم للآخر . فمبدأ العلم : الحق والإرادة الصالحة : من لَمَّة الملك ، ومبدأ الاعتقاد الباطل والإرادة الفاسدة : من لَمَّة الشيطان . قال الله تعالى (٢ : ٢٦٨ الشيطان يعدكم الفقر و يأمركم بالفحشاء ، والله يعدكم مغفرة منه وفضلا) وقال تعالى (٣ : ١٧٥ إنما ذلكم الشيطان يخوف

---

(١) هو أبو العالية الرياحى ، رفيع بن مهران ، من كبار التابعين ثقة مات سنة ٩٠ أو بعدها ا هـ تقريب .

أولياءه) أى يخوفكم أولياءه ، وقال تعالى (٨:٤٨ وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم وقال لا غالب لكم اليوم من الناس ، وإنى جار لكم) .

والشيطان وسواس خناس إذا ذكر العبد ربه خنس ، فإذا غفل عن ذكره وسوس ، فلهذا كان ترك ذكر الله سبباً ومبدأ لنزول الاعتقاد الباطل والإرادة الفاسدة فى القلب ، وَمِنْ ذكر الله تعالى : تلاوة كتابه وفهمه ومذاكرة العلم ، كما قال معاذ بن جبل «ومذاكرته تسبيح»[١]

وقد تنازع أهل الكلام فى حصول العلم فى القلب عقب النظر فى الدليل فقال بعضهم[٢] : ذلك على سبيل التولد ، وقال المنكرون للتولد[٣] بل ذلك بفعل الله تعالى . والنظر إما متضمن للعلم وإما موجب له . وهذا ينصره المنتسبون للسنة من المتكلمين ومن وافقهم من الفقهاء من أصحاب مالك والشافعى وأحمد وغيرهم ، وقالت المتفلسفة : بل ذلك يحصل بطريق الفيض من العقل الفعال [٤] عند استعداد النفس لقبول الفيض . وقد يزعمون أن العقل الفعال هو جبريل .

فأما قول القائلين «إن ذلك بفعل الله» فهو صحيح بناء على أن الله هو مُعَلِّم كل علم وخالق كل شىء ، لكن هذا كلام مجمل ليس فيه بيان لنفس السبب الخاص ، وأما قول القائلين بالتولد : فبعضه حق وبعضه باطل [فإن] كان دعواهم أن العلم المتولد هو حاصل بمجرد قدرة العبد [فذلك] باطل قطعاً ، ولكن هو حاصل بأمرين : قدرة العبد ، والسبب الآخر ، كالقوة التى فى السهم والقبول الذى فى المحل . ولا ريب أن النظر هو بسبب ، ولكن الشأن فيما به يتم حصول العلم .

(١) انظر هذا المعنى مشروحا بعبارات أوضح فى كتاب إغاثة اللهفان ، الباب الخامس والسادس للعلامة ابن القيم .

(٢) كالمعتزلة . (٣) كالأشاعرة .

(٤) هو العقل العاشر مدبر فلك القمر بزعمهم

وأما زعم المتفلسفة أنه بالعقل الفعال : فمن الخرافات التى لا دليل عليها . وأبطل من ذلك زعمهم : أن ذلك هو جبريل، وزعمهم : أن كل مايحصل فى عالم العناصر من الصور الجسمانية وكمالاتها : فهو من فيضه و بسببه [١] فهو من أبطل الباطل ، ولكن إضافتهم ذلك إلى أمور روحانية : صحيح فى الجملة . فإن الله سبحانه وتعالى يدبر أمر السموات والأرض بملائكته التى هى السفراء فى أمره ، ولفظ « الملك » يدل على ذلك . و بذلك أخبرت الأنبياء وقد شهد الكتاب والسنة من ذلك بما لايتسع هذا الموضع لذكره ، كما ذكره النبى صلى الله عليه وسلم فى ملائكة تخليق الجنين وغيره . وأما تخصيص روح واحد متصل بفلك القمر [٢] يكون هو رب هذا العالم : فهذا باطل . وليس هذا موضع استقصاء ذلك ، ولكن لابد أن يعلم أن المبدأ فى شعور النفس وحركتها هم الملائكة أو الشياطين ، فالملك يلقى التصديق بالحق والأمر بالخير ، والشيطان يلقى التكذيب بالحق والأمر بالشر ، والتصديق والتكذيب مقرونان بنظر الإنسان ، كما أن الأمر والنهى مقرونان بإرادته .

فإذا كان النظر فى دليل هادٍ ــ كالقرآن ــ وسلم من معارضات الشيطان : تضمن ذلك النظر العلم والهدى . ولهذا أمر العبد بالاستعاذة من الشيطان الرجيم عند القراءة . و إذا كان النظر فى دليل مضل والناظر يعتقد صحته ، بأن تكون مقدمتاه أو إحداهما متضمنة للباطل ، أو تكون المقدمات صحيحة لكن التأليف ليس بمستقيم : فإنه يصير فى القلب بذلك اعتقاد فاسد ، وهو غالب شبهات أهل الباطل المخالفين للكتاب والسنة من المتفلسفة والمتكلمين ونحوهم .

فإذا كان الناظر لا بد له من منظور فيه ، والنظر فى نفس المتصور المطلوب

---

(١) أى العقل الفعال .

(٢) كما تزعمه الفلاسفة الذين هم أئمة شيوخ الصوفية ومن قلدهم من المتقدمين والمتأخرين .

حكمُهُ لا يفيد علماً ، بل ربما خطر له بسبب ذلك النظر أنواع من الشبهات يحسبها أدلة ، لفرط تعطش القلب إلى معرفة حكم تلك المسألة وتصديق ذلك التصور

وأما النظر المفيد للعلم : فهو ما كان فى دليل هادٍ . والدليل الهادى — على العموم والإطلاق — هو كتاب الله وسنة نبيه . فإن الذى جاءت به الشريعة من نوعى النظر : هو ما يفيد وينفع ويُحَصِّل الهدى ، وهو بذكر الله ومانزل من الحق ، فإذا أراد النظر والاعتبار فى الأدلة المطلقة من غير تعيين مطلوب فذلك النظر فى كتاب الله وتدبره ، كما قال تعالى (٥ : ١٥ ، ١٦ قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ، يهدى به الله من اتبع رضوانه سُبل السلام ، ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ، ويهديهم إلى صراط مستقيم) وقال تعالى (٤٢ : ٥٢ ، ٥٣ وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ، ما كنت تدرى : ماالكتاب ولا الإيمان ؟ ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا ، وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم . صراط الله الذى له مافى السموات وما فى الأرض ، ألا إلى الله تصير الأمور) .

وأما النظر فى مسألة معينة وقضية معينة لطلب حكمها والتصديق بالحق فيها والعبد لايعرف مايدله على هذا أو هذا : فمجرد هذا النظر لا يفيد ، بل قد يقع له تصديقات يحسبها حقاً وهى باطل . وذلك من إلقاء الشيطان . وقد يقع له تصديقات تكون حقاً ، وذلك من إلقاء الملك ، وكذلك إذا كان النظر فى الدليل الهادى وهو القرآن ، فقد يضع الكلم مواضعه ويفهم مقصود الدليل فيهتدي بالقرآن ، وقد لايفهمه ، أو يحرف الكلم عن مواضعه فيضل به ، ويكون ذلك من الشيطان ، كماقال تعالى (١٧ : ٨٢ وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ، ولا يزيد الظالمين إلا خسارا) وقال (٢ : ٢٦ يضل به كثيراً ويهدى به كثيراً وما يضل به إلا الفاسقين) وقال (٩ : ١٢٤ ، ١٢٥ فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون ، وأما الذين فى قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم) وقال (٤١ : ٤٤ قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لايؤمنون فى آذانهم وَقْر وهو

عليهم عمى) وقال(٣ : ١٣٨ هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين) .

فالناظر فى الدليل بمنزلة المترائى للهلال قد يراه ، وقد لا يراه لعشًى فى بصره ، وكذلك أعمى القلب . وأما الناظر فى المسألة : فهذا يحتاج إلى شيئين : إلى أن يظفر بالدليل الهادى ، و إلى أن يهتدى به و ينتفع ، فأمره الشرع بما يوجب أن ينزل على قلبه الأسباب الهادية ، و يصرف عنه الأسباب المعوقة ، وهو ذكر الله تعالى ، والغفلة عنه ، فإن الشيطان وسواس خناس ، فإذا ذكر العبد ربه خنس ، و إذا غفل عن ذكر الله وسوس .

وذكر الله يعطى الإيمان ، وهو أصل الإيمان[1] . والله سبحانه هو رب كل شيء ومليكه ، وهو معلم كل علم وواهبه ، فكما أن نفسه أصل لكل شيء موجود ، فذكره والعلم به أصل لكل علم ، وذكره فى القلب . والقرآن يعطي العلم المفصل فيزيد الإيمان ، كما قال جندب بن عبد الله البجلى ، وغيره من الصحابة « تعلمنا الإيمان ، ثم تعلمنا القرآن ، فازددنا إيمانا » ولهذا كان أول ما أنزل الله على نبيه (اقرأ باسم ربك الذى خلق) فأمره أن يقرأ باسم الله ، فتضمن هذا الأمر بذكر الله وما نزل من الحق ، وقال (باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم) .

فذكر سبحانه أنه خالق أكرم الأعيان الموجودة عموماً وخصوصاً وهو الإنسان ، وأنه المعلم للعلم عموماً وخصوصا للإنسان ، وذكر التعليم بالقلم الذى هو آخر المراتب ، ليستلزم تعليم القول وتعليم العلم الذى فى القلب .

وحقيقة الأمر : أن العبد مفتقر إلى ما يسأله من العلم والهدى ، طالب سائل ، فبذكر الله والافتقار إليه يهديه الله و يدله ، كما قال : « ياعبادى ، كلكم ضال إلا من هديته ، فاستهدونى أهدكم » وكما كان النبى صلى الله عليه وسلم

---

(١) لعل الأول « وهو أصل الهدى » أي ذات الله تعالى المقدسة . بأسمائه وصفاته ، وهو الذى خلق الأشياء وأعطاها كل ماينا سب خلقها .

يقول : « اللهم رب جبريل وميكائيل و إسرافيل ، فاطر السموات والأرض ، عالم الغيب والشهادة ، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك ، إنك تهدى من تشاء إلى صراط مستقيم » .

ومما يوضح ذلك : أن الطالب للعلم بالنظر والاستدلال ، والتفكر والتدبر ، لايحصل له ذلك إن لم ينظر فى دليل يفيده العلم بالمدلول عليه ، ومتى كان العلم مستفاداً بالنظر ، فلا بد أن يكون عند الناظر من العلم المذكور الثابت فى قلبه ما لا يحتاج حصوله إلى نظر ، فيكون ذلك المعلوم أصلا وسبباً للتفكر الذى يطلب به معلوما آخر ، ولهذا كان الذكر متعلقا بالله ، لأنه سبحانه هو الحق المعلوم ، وكان التفكر فى مخلوقاته ، كما قال الله تعالى : (٣ : ١٩١ الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ، و يتفكرون فى خلق السموات والأرض) وقد جاء الأثر « تفكروا فى المخلوق ولا تتفكروا فى الخالق » لأن التفكير والتقدير يكون فى الأمثــال المضروبة ، والمقاييس ، وذلك يكون فى الأمور المتشابهة ، وهي المخلوقات ، وأما الخالق ــ جل جلاله ، سبحانه وتعالى ــ فليس له شبيه ولا نظير ، فالتفــكر الذى مبناه على القياس ممتنع فى حقه ، و إنما هو معلوم بالفطرة ، فيذكره العبد ، و بالذكر و بما أخبر به عن نفسه يحصل للعبد من العلم به أمور عظيمة لا تنال بمجرد التفكير والتقدير ، أعنى من العلم به نفسه ، فإنه الذى لاتفكير فيه ، فأما العلم بمعانى ما أخبر به ونحو ذلك : فيدخل فيها التفــكير والتقدير ، كما جاء به الكتاب والسنة ، ولهذا كان كثير من أرباب العبادة والتصوف يأمرون بملازمة الذكر ، و يجعلون ذلك هو باب الوصول إلى الحق ، وهذا حسن إذا ضموا إليه تدبر القرآن والسنة واتباع ذلك ، وكثير من أرباب النظر والــكلام يأمرون بالتفــكر والنظر ، و يجعلون ذلك هو الطريق إلى معرفة الحق . والنظر صحيح إذا كان فى حق ودليل كما تقدم ، فكل من الطريقين فيها حق ، لــكن يحتاج إلى الحق الذى فى الأخرى ، و يجب تنزيه كل منهما عما دخل فيها من الباطل ، وذلك كله باتباع

ما جاء به المرسلون ، وقد بسطنا الكلام فى هذا فى غير هذا الموضع و بينا طرق أهل العبادة والرياضة والذكر ، وطريق أهل الكلام والنظر والاستدلال ، ومافى كل منهما من مقبول ومردود ، و بينا ما جاءت به الرسالة من الطريق الكاملة الجامعة لكل حق . وليس هذا موضع بسط ذلك .

و إنما المقصود هنا : أن الإنسان محس بأنه عالم ، يجد ذلك و يعرفه بغير واسطة أحد ، كما يحس بغير ذلك ، وحصول العلم فى القلب كحصول الطعام فى الجسم ، فالجسم يحس بالطعام والشراب وكذلك القلوب تحس بما يتنزل إليها من العلوم التى هى طعامها وشرابها ، كما قال النبى صلى الله عليه وسلم « إن كل آدب يحب أن تؤتى مأدبته ، و إن مأدبة الله هى القرآن » وكما قال تعالى (١٣ : ١٧ أنزل من السماء ماء ، فسالت أودية بقَدَرها ، فاحتمل السيل زَبداً رابيا ، ومما يوقدون عليه فى النار ابتغاء حِلْيةٍ ، أو متاع زبد مثله) وفى الصحيحين عن أبى موسى عن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال « مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم : كمثل غيث أصاب أرضا ، وكانت منها طائفة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير ، وكانت منها طائفة أمسكت الماء فسقى الناس وزرعوا ، وكانت منها طائفة إنما هى قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ ، فذلك مثل من فقه فى دين الله ، ونفعه ما بعثنى الله به من الهدى والعلم . ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ، ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به » .

فضرب مثل الهدى والعلم الذى ينزل على القلوب بالماء الذى ينزل على الأرض ، وكما أن لله ملائكة موكلة بالسحاب والمطر ، فله ملائكة موكلة بالهدى والعلم . هذا رزق القلوب وقوتها ، وهذا رزق الأجساد وقوتها ، قال الحسن البصرى فى قوله تعالى (٢ : ٣ ومما رزقناهم ينفقون) قال « إن من أعظم النفقة : نفقة العلم » أو نحو هذا الكلام ، وفى أثر آخر « نعمت العطية ، ونعمت الهدية : الكلمة من الخير يسمعها الرجل فيهديها إلى أخ له مسلم » وفى أثر آخر عن أبى الدرداء :

« ما تصدق عبد بصدقة أفضل من موعظة يعظ بها إخواناً له مؤمنين ، فيتفرقون وقد نفعهم الله بها » أو مايشبه هذا الـكلام ، وعن كعب بن عجرة قال : « ألا أهدى لك هدية ؟ فذكر الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم » وروى ابن ماجة فى سننه عن أبى هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « أفضل الصدقة أن يتعلم الرجل علما ، ثم يعلمه أخاه المسلم » وقال معاذ بن جبل « عليكم بالعلم ، فإن طلبه عبادة ، وتعلمه لله حسنة ، و بذله لأهله قربة ، وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة ، والبحث عنه جهاد ، ومذاكرته تسبيح » .

ولهذا كان معلم الخير يستغفر له كل شيء حتى الحيتان فى البحر ، والله وملائكته يصلون على معلم الناس الخير ، لما فى ذلك من عموم النفع لـكل شيء . وعكسه : كاتمو العلم ، فإنهم يلعنهم الله و يلعنهم اللاعنون ، قال طائفة من السلف « إذا كتم الناس العلم فعمل بالمعاصى : احتبس القطر ، فتقول البهائم : اللهم[1] عصاة بنى آدم فإنا منعنا القطر بسبب ذنوبهم »

و إذا كان علم الإنسان بكونه عالمـا مرجعه إلى وجوده ذلك ، و إحساسه فى نفسه بذلك ـ وهذا أمر موجود بالضرورة ـ لم يكن لهم أن يخبروا عما فى نفوس الناس : بأنه ليس بعلم بغير حجة ، فإن عدم وجودهم من نفوسهم ذلك لا يقتضى أن الناس لم يجدوا ذلك ، لاسيما إذا كان المخبرون يخبرون عن اليقين الذى فى أنفسهم عمن لا يشكون فى علمه وصدقه ومعرفته بما يقول . وهذا حال أئمة المسلمين وسلف الأمة ، وحملة الحجة ، فإنهم يخبرون بما عندهم من اليقين والطمأنينة والعلم الضرورى ، كما فى الحـكاية المحفوظة عن نجم الدين الـكبرى : لما دخل عليه متكلمان ، أحدهما : أبو عبد الله الرازى ، والآخر : من متكلمى المعتزلة ، وقالا : ياشيخ ، بلغنا : أنك تعلم علم اليقين ؟ فقال : نعم ، أنا أعلم علم اليقين ، فقالا : كيف يمـكن ذلك ، ونحن من أول النهار إلى الساعة نتناظر ، فلم يقدر

(١) كذا بالأصل ، ولعله سقط « اللهم العن عصاة »

أحدنا أن يقيم على الآخر دليلا ؟ ـ وأظن الحكاية فى تثبيت الإسلام ـ فقال : ما أدرى ما تقولان . ولكن أنا أعلم علم اليقين ، فقالا : صف لنا علم اليقين ، فقال : علم اليقين عندنا واردات ترد على النفوس ، تعجز النفوس عن ردها ، فجعلا يقولان : واردات ترد على النفوس تعجز النفوس عن ردها ؟ ! و يستحسنان هذا الجواب .

وذلك لأن طريق أهل الكلام تقسيم العلوم إلى ضرورى وكسبى ، أو بديهى ونظرى .

فالنظرى الكسبى : لا بد أن يرد إلى مقدمات ضرورية أو بديهية فتلك ، لا تحتاج إلى دليل ، وإلا لزم الدور أو التسلسل ، والعلم الضرورى : هو الذى يلزم نفس المخلوق لزوما لا يمكنه الانفكاك عنه ، فالمرجع فى كونه ضروريا : إلى أنه يعجز عن دفعه عن نفسه ، فأخبر الشيخ : أن علومهم ضرورية ، وأنها ترد على النفوس على وجه تعجز عن دفعه ، فقالا له : ما الطريق إلى ذلك ؟ فقال : تتركان ما أنتما فيه ، وتسلكان ما أمركما الله به ، من الذكر والعبادة ، فقال الرازى : أنا مشغول عن هذا ، وقال المعتزلى : أنا قد احترق قلبى بالشبهات ، وأحب هذه الواردات ، فلزم الشيخ مدة ، ثم خرج من محل عبادته ، وهو يقول : والله يا سيدى ، ما الحق إلا فيما يقوله هؤلاء المشبهة ـ يعنى : المثبتين للصفات ـ فإن المعتزلة يسمون الصفاتية مشبهة ، وذلك أنه علم علماً ضروريا لا يمكنه دفعه عن قلبه أن رب العالم لا بد أن يتميز عن العالم ، وأن يكون بائنا منه له صفات تختص به ، وأن هذا الرب الذى تصفه الجهمية إنما هو عدم محض ، وهذا موضع الحكاية المشهورة عن الشيخ العارف أبى جعفر الهمدانى لأبى المعالى الجوينى ، لما أخذ يقول على المنبر : كان الله ولا عرش ، فقال : يا ستاذ ، دعنا من ذكر العرش ـ يعنى : لأن ذلك إنما جاء فى السمع ـ أخبرنا عن هذه الضرورة التى نجدها فى قلوبنا ، فإنه ما قال عارف قط « يا ألله » إلا وجد من قلبه ضرورة تطلب

العلو ، لا تلتفت يمنة ولا يسرة ، فكيف ندفع هذه الضرورة من قلو بنا ؟ قال : فلطم أبو المعالى على رأسه ، وقال : حيرنى الهمدانى ، حيرنى الهمدانى ، ونزل ، وذلك لأن نفس استوائه على العرش ، بعد أن خلق السموات والأرض فى ستة أيام عُلم بالسمع ، الذى جاءت به الرسل ، كما أخبر الله به فى القرآن والتوراة ، وأما كونه عالياً على مخلوقاته بائناً منهم : فهذا أمر معلوم بالفطرة الضرورية التى يشترك فيها جميع بنى آدم ، وكل من كان بالله أعرف ، وله أعبد ، ودعاؤه له أكثر ، وقلبه له أذكر ، كان علمه الضرورى بذلك أقوى وأكمل ، فالفطرة مكملة بالفطرة المنزلة[1] ، فإن الفطرة تعلم الأمر مجملا ، والشريعة تفصله وتبينه ، وتشهد بما لا تستقل الفطرة به . فهذا هذا . والله أعلم .

[فصل]

والخامس : أن كل من استحكم فى بدعته يرى أن قياسه يطرد ، لما فيه من التسوية بين المتماثلين عنده ، وإن استلزم ذلك كثرة مخالفة النصوص ، وهذا موجود فى المسائل العلمية الخبرية والمسائل العملية الإرادية ، تجد المتكلم قد يطرد قياسه طرداً مستمراً ، فيكون ظاهر الأمر أجود ممن نقضها ، وتجد المستن الذى شاركه فى ذلك القياس قد يقول ما يناقض ذلك القياس فى مواضع ، مع استشعار التناقض تارة ، وبدون استشعاره تارة ، وهو الأغلب ، وربما يخيل بفروق ضعيفة ، فهو فى نقض علته والتفريق بين المتماثلين فيها يظهر أنه دون الأول فى العلم والخبرة وطرد القول ، وليس كذلك ، بل هو خير من الأول . فإن ذلك القياس الذى اشتركا فيه كان فاسداً فى أصله لمخالفة النص والقياس الصحيح ، فالذى طرده أكثر فساداً وتناقضاً من هذا الذى نقضه ، وهذا شأن كل من وافق غيره على قياس ليس هو فى نفس الأمر بحق ، وكان أحدهما من النصوص فى مواضع

(١) يعنى الشريعة النازلة من عند الله تعالى ، التى هى الدين القيم بلا زيادة ولا نقص ولا تحريف ولا تأويل .

ما يخالف ذلك القياس ، وهذا يسميه الفقهاء فى مواضع كثيرة : الاستحسان ، فتجد القائلين بالاستحسان ، الذى تركوا فيه القياس لنص خيرا من الذين طردوا القياس وتركوا النص ، ولهذا يروى عن أبى حنيفة ، أنه قال « لا تأخذوا بمقاييس زفر ، فإنكم إن أخذتم بمقاييسه حرمتم الحلال وحللتم الحرام » فإن زفر كان كثير الطرد ، لما يظنه من القياس مع قلة علمه بالنصوص . وكان أبو يوسف نظره بالعكس ، كان أعلم بالحديث منه ، ولهذا توجد المسائل التى يخالف فيها زفر أصحابه عامتها قياسية ، ولا يكون إلا قياسا ضعيفاً عند التأمل ، وتوجد مسائل التى يخالف فيها أبو يوسف أبا حنيفة واتبعه محمد عليها عامتها اتبع فيها النصوص والأقيسة الصحيحة ، لأن أبا يوسف رَحَل بعد موت أبى حنيفة إلى الحجاز ، واستفاد من علم السنن التى كانت عندهم ما لم تكن مشهورة بالكوفة ، وكان يقول « لو رأى صاحبي[1] ما رأيت لرجع كما رجعت » لعلمه بأن صاحبه ما كان يقصد إلا اتباع الشريعة ، لكن قد يكون عند غيره من علم السنن ما لم يبلغه .

وهذا أيضاً حال كثير من الفقهاء بعضهم مع بعض ، فيما وافقوا عليه من قياس لم تثبت صحته بالأدلة المعتمدة ، فإن الموافقة فيه توجب طرده، ثم أهل النصوص قد ينقضونه ، والذين لا يعلمون النصوص يطردونه ، وكذلك هذه حال أكثر متكلمة أهل الإثبات مع متكلمة النفات فى مسائل الصفات والقدر وغير ذلك ، قد يوافقونهم على قياس فيه نفى ، ثم يطرده أولئك فينفون به ما أثبتته النصوص ، والمثبتة لا تفعل ذلك ، بل لا بد من القول بموجب النص ، فربما قالوا ببعض معناها وربما فرقوا بفرق ضعيف .

وأصل ذلك : موافقة أولئك على القياس الضعيف ، وذلك فى مثل مسائل الجسم والجوهر وغير ذلك .

وهكذا تجد هذا حال من أعان ظالما في الأفعال ، فإن الأفعال ، لا تقع إلا

---

(١) يعنى : أبا حنيفة .

عن إرادة ، فالظالم يطرد إرادته فيصيب من أعانه ، أو يصيب ظلماً لا يختاره هذا ، فيريد المعين أن ينقض الطرد ، ويخص علته ، ولهذا يقال : من أعان ظالماً بُلى به ، وهـذا عام في جميع الظلمة من أهل الأقوال والأعمال وأهل البدع والفجور . وكل من خالف الكتاب والسنة ، من خبر أو أمر أو عمل فهو ظالم .

فإن الله أرسل رسله ليقوم الناس بالقسط ، ومحمد صلى الله عليه وسلم أفضلهم ، وقد بين الله سبحانه له من القسط ما لم يبينه لغيره ، وأقدره على ما لم يقدر عليه غيره ، فصار يفعل ويأمر بما لا يأمر به غيره ويفعله .

وذلك أن بنى آدم فى كثير من المواضع قد لا يعلمون حقيقة القسط ولا يقدرون على فعله ، بل ما كان إليه أقرب وبه أشبه كان أمثل ، وهى الطريقة المثلى ، وقد بسطنا هذا فى مواضع ، قال تعالى (٥٥ : ٩ وأقيموا الوزن بالقسط) وقال (٢٨٦:٢ لا يكلف الله نفساً إلا وسعها) وقال (١٦:٦٤ فاتقوا الله ما استطعتم) وقال صلى الله عليه وسلم « إذا أمرتكم بأمر فائتوا منه ما استطعتم » .

والمقصود : أن ما عند عوام المؤمنين وعلمائهم أهل السنة والجماعة من المعرفة واليقين والطمأنينة ، والجزم الحق والقول الثابت ، والقطع بما هم عليه : أمر لا ينازع فيه إلا من سلبه الله العقل والدين .

وهَبْ أن المخالف لا يسلم ذلك ، فلا ريب أنهم يخبرون عن أنفسهم بذلك ، ويقولون : إنهم يجدون ذلك ، وهو[1] وطائفته يخبرون بضد ذلك ، ولا يجدون عندهم إلا الريب . فأىّ الطائفتين أحق بأن يكون كلامها [موصوفا] بالحشو ، أو يكون أولى بالجهل والضلال والإفك والمحال ؟ وكلام المشايخ والأئمة من أهل السنة والفقه والمعرفة فى هذا الباب أعظم من أن نطيل به الخطاب .

---

(١) أى المخالف .

الوجه الثانى

أنك تجد أهل الكلام أكثر الناس انتقالا من قول إلى قول ، وجزما بالقول فى موضع وجزماً بنقيضه وتكفير قائله فى موضع آخر ، وهذا دليل عدم اليقين ، فإن الإيمان كما قال فيه قيصر[١] لما سأل أبا سفيان عمن أسلم مع النبى صلى الله عليه وسلم : « هل يرجع أحد منهم عن دينه سخطة له ، بعد أن يدخل فيه ؟ قال : لا . قال : وكذلك الإيمان إذا خالط بشاشته القلوب ، لا يسخطه أحد » ولهذا قال بعض السلف ـ عمر بن عبد العزيز أو غيره ـ « من جعل دينه غرضا للخصومات أكثر التنقل ».

وأما أهل السنة والحديث فما يعلم أحد من علمائهم ، ولا صالح عامتهم رجع قط عن قوله واعتقاده ، بل هم أعظم الناس صبرا على ذلك ، وإن امتحنوا بأنواع المِحَن ، وفتنوا بأنواع الفتن ، وهذه حال الأنبياء وأتباعهم من المتقدمين ، كأهل الأخدود[٢] ونحوهم ، وكسلف هذه الأمة والصحابة والتابعين ، وغيرهم من الأئمة ، حتى كان مالك رحمه الله يقول : « لا تغبطوا أحدا لم يصبه فى هذا الأمر بلاء » يقول : إن الله لا بد أن يبتلى المؤمن ، فإن صبر رفع درجته ، كما قال تعالى : (٢٩ : ١ ـ ٣ الم أحسب الناس أن يتركوا ، أن يقولوا : آمنا وهم لا يفتنون ؟ ولقد فتنا الذين من قبلهم ، فليعلمن الله الذين صدقوا ، وليعلمن الكاذبين) وقال تعالى : (٣٢ : ٢٤ وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون) وقال تعالى : (والعصر ، إن الإنسان لفى خسر ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وتواصَوْا بالحق ، وتواصوا بالصبر) .

---

(١) ملك الروم هرقليوس وقصته مبسوطة فى أول صحيح البخارى وتاريخ حياته وأعماله مفصل فى كتاب فتوح العرب لمصر تأليف أدمز بترجمة محمد فريد أبى حديد .

(٢) المذكورين فى سورة البروج أنهم حرقوا فى أخاديد من النار ، ليرجعوا عن دينهم فثبتوا على دينهم مع هذه الفتنة الشديدة .

ومن صبر من أهل الأهواء على قوله ، فذاك لما فيه من الحق ، إذ لا بد فى كل بدعة عليها طائفة كبيرة من الناس أن يكون فيها من الحق الذى جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ، ويوافق عليه أهل السنة والحديث : ما يوجب قبولها ، إذ الباطل المحض لا يقبل بحال .

وبالجملة : فالثبات والاستقرار فى أهل الحديث والسنة أضعافُ أضعاف ضعاف ما هو عند أهل الكلام والفلسفة ، بل المتفلسف أعظم اضطرابا وحيرة فى أمره من المتكلم . لأن عند المتكلم من الحق الذى تلقاه عن الأنبياء ماليس عند المتفلسف ولهذا تجد مثل أبى الحسين البصرى[1] وأمثاله أثبت من مثل ابن سينا[2] وأمثاله .

وأيضا تجد أهل الفلسفة والكلام أعظم الناس افتراقاً واختلافاً ، مع دعوى كل منهم أن الذى يقوله حق مقطوع به ، قام عليه البرهان وأهل السنة والحديث أعظم النـاس اتفاقا وائتلافا ، وكل من كان من الطوائف إليهم أقرب كان إلى الاتفـاق والائتلاف أقرب ، فالمعتزلة أكثر اتفاقا وائتلافا من المتفلسفة ، إذ للفلاسفة فى الإلٰهيـات[3] والمعاد والنبوات ، بل وفى الطبيعيات والرياضات ، وصفات الأفلاك : من الأقوال مالا يحصيه إلا ذو الجلال .

وقد ذكر من جمع مقالات الأوائل ، مثل أبى الحسن الأشعرى فى كتاب المقالات[4] .

---

(١) أبو الحسين محمد بن على الخطيب البصرى شيخ المعتزلة فى زمانه ، والمنتصر لهم والذاب عنهم . توفى سنه ٤٣٦ هـ ٥٣ ج ١٢ بداية .

(٢) أبو على الحسين بن عبد الله بن سينا الطبيب الفيلسوف الشهير صاحب الشفا والنجاة والإشارات الخ توفى سنة ٤٢٨ هـ ترجمته ص ٤٢ ج ١٢ بداية ابن كثير .

(٣) علوم ما وراء المادة من صفات الواجب الوجود وصفات العقول والنفوس الخ

(٤) المقالات التى عناها المؤلف هنا : هى مقالات غير الإسلاميين وهى المعروفة بمقالات الفلاسفة ، يدل على ذلك قوله « إذ للفلاسفة فى الإلهيات الخ » وهذه المقالات أكبر من « مقالات الإسلاميين » المطبوعة حديثا كما ذكر ذلك المصنف فى كتابه منهاج السنة ج ٣ ص ٧٢ .

ومثل القاضي أبي بكر[١] في كتاب الدقائق من مقالاتهم ، بقدر ما يذكره الفارابي [٢] وابن سينا وأمثالها أضعافا مضاعفة .

وأهل الإثبات من المتكلمين ـ مثل الكلابية والكرامية والأشعرية ـ أكثر اتفاقا وائتلافا من المعتزلة ، فإن في المعتزلة من الاختلاف وتكفير بعضهم بعضا ، حتى ليكفر التلميذ أستاذه ، من جنس ما بين الخوارج ، وقد ذكر من صنف في فضائح المعتزلة من ذلك مايطول وصفه ، ولست تجد اتفاقا وائتلافا إلا بسبب اتباع آثار الأنبياء من القرآن والحديث ، وما يتبع ذلك ، ولا تجد افتراقا واختلافا إلا عند من ترك ذلك وقدم غيره عليه ، قال تعالى (١١ : ١١٨ ، ١١٩ ولا يزالون مختلفين إلامن رحم ربك ، ولذلك خلقهم) فأخبر أن أهل الرحمة لايختلفون ، وأهل الرحمة هم أتباع الأنبياء قولا وفعلا ، وهم أهل القرآن والحديث من هذه الأمة ، فمن خالفهم في شيء فاته من الرحمة بقدر ذلك ، ولهذا لما كانت الفلاسفة أبعد عن اتباع الأنبياء كانوا أعظم اختلافا ، والخوارج والمعتزلة والروافض لما كانوا أيضاً أبعد عن السنة والحديث كانوا أعظم افتراقا في هذه ، لا سيما الرافضة ، فإنه يقال : إنهم أعظم الطوائف اختلافا ، وذلك لأنهم أبعد الطوائف عن السنة والجماعة ، بخلاف المعتزلة فإنهم أقرب إلى ذلك منهم ، وكذلك الخوارج أقرب إلى ذلك منهم .

وأبو محمد بن قتيبة ـ في أول كتاب مختلف الحديث ـ لما ذكر أهل الحديث

---

(١) هو أبو الطيب الباقلاني . وكتابه اسمه دقائق الكلام ذكر ذلك المصنف في كتابه منهاج السنة ج ٣ ص ٧٢ .

وقد نقل عنه المؤلف في هذا الكتاب ص ١٣٤ و ص ١٧٦ من الأصل المخطوط وكتبه سليمان الصنيع .

(٢) أبو نصر الفارابي التركي الفيلسوف الموسيقار مات سنة ٣٣٩ هـ ، وعلى كتبه تخرج ابن سينا

وأئمتهم ، وأهل الكلام وأئمتهم : ففي بذكر أئمة هؤلاء ووصف أقوالهم وأعمالهم ووصف أئمة هؤلاء وأقوالهم وأفعالهم بما يبين لكل أحد : أن أهل الحديث هم أهل الحق والهدى ، وأن غيرهم أولى بالضلال والجهل والحشو والباطل .

وأيضا المخالفون لأهل الحديث : هم مظنة فساد الأعمال ، إما عن سوء عقيدة ونفاق ، و إما عن مرض فى القلب وضعف إيمان . ففيهم من ترك الواجبات واعتداء الحدود والاستخفاف بالحقوق وقسوة القلب ما هو ظاهر لكل أحد ، وعامة شيوخهم يرمون بالعظائم ، و إن كان فيهم من هو معروف بزهد وعبادة ، ففي زهد بعض العامة من أهل السنة وعبادته ما هو أرجح مما هو فيه .

ومن المعلوم أن العلم أصل العمل ، وصحة الأصول توجب صحة الفروع ، والرجل لا يصدر عنه فساد العمل إلا لشيئين : إما الحاجة و إما الجهل ، فأما العالم بقبح الشيء الغنى عنه فلا يفعله ، اللهم إلا من غلب هواه عقلَه واستولت عليه المعاصي ، فذاك لون آخر وضرب ثانٍ .

وأيضاً فإنه لا يعرف من أهل الكلام أحد إلا وله فى الإسلام مقالة يكفر قائلها عموم المسلمين حتى أصحابه ، وفى التعميم ما يغني عن التعيين ، فأى فريق أحق بالحشو والضلال من هؤلاء ؟ وذلك يقتضى وجود الردة فيهم ، كما يوجد النفاق فيهم كثيرا .

وهذا إذا كان فى المقالات الخفية ، فقد يقال : إنه فيها مخطىء ضال ، لم تقم عليه الحجة التى يكفر صاحبها ، لكن ذلك يقع فى طوائف منهم فى الأمور الظاهرة التى تعلم العامة والخاصة من المسلمين أنها من دين المسلمين ، بل اليهود والنصارى يعلمون : أن محمدا صلى الله عليه وسلم بعث بها ، وكَفَّر مخالفَها ، مثل أمره بعبادة الله وحده لا شريك له ، ونهيه عن عبادة أحد سوى الله من الملائكة والنبيين والشمس والقمر والكواكب والأصنام وغير ذلك ، فإن هذا أظهر شعائر الإسلام ، ومثل أمره بالصلوات الخمس ، و إيجابه لها وتعظيم شأنها، ومثل معاداته لليهود والنصارى

والمشركين والصابئين[١] والمجوس[٢] ، ومثل تحريم الفواحش والربا والخمر والميسر ونحو ذلك . ثم تجد كثيرا من رؤسائهم[٣] وقعوا فى هذه الأمور ، فكانوا مرتدين ، وإن كانوا قد يتوبون من ذلك ويعودون إلى الإسلام ، فقد حكى عن الجهم بن صفوان : أنه ترك الصلاة أربعين يوماً لا يرى وجوبها ، كرؤساء العشائر مثل الأقرع بن حابس وعيينة بن حصن ، ونحوهم ممن ارتد عن الإسلام ودخل فيه ، ففيهم من كان يتهم بالنفاق ومرض القلب ، وفيهم من لم يكن كذلك .

أو يقال : هم لما فيهم من العلم يشبهون بعبد الله بن أبى سرح الذى كان كاتب الوحى ، فارتد ولحق بالمشركين ، فأهدر النبى صلى الله عليه وسلم دمه عام الفتح ، ثم أتى به عثمان[٤] إليه فبايعه على الإسلام .

فمن صنف فى مذهب المشركين ونحوهم أحسن أحواله : أن يكون مسلما . فكثيرمن رؤس هؤلاء هكذا تجده تارة يرتد عن الإسلام ردة صريحة ، وتارة يعود إليه مع مرض فى قلبه ونفاق ، وقد يكون له حال ثالثة يغلب الإيمان فيها النفاق ، لكن قلَّ أن يسلموا من نوع نفاق ، والحكايات عنهم بذلك مشهورة .

وقد ذكر ابن قتيبة[٥] من ذلك طرفا فى أول مختلف الحديث ، وقد حكي أهل المقالات لبعضهم عن بعض من ذلك طرفا ، كما يذكره أبو عيسى الوراق

---

(١) عباد الكواكب والقوى الطبيعية : كالهندوكيين والبدا فى الصين .

(٢) عباد النار : كقدماء الفرس وشرذمة البارسى بالهند .

(٣) رءوس الفلاسفة والمتكلمين .

(٤) أى : ابن عفان ، لأنه كان له به قرابة أو رضاع أتى به إلى النبى صلى الله عليه وسلم .

(٥) أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينورى صاحب غريب القرآن ومشكله ومختلف الحديث وصون الأخبار وغيرها من الكتب النافعة توفى سنة ٢٧٦ هـ .

والنوبختى[١] وأبو الحسن الأشعرى ، والقاضى أبو بكر بن الباقلانى ، وأبو عبد الله الشهرستانى ، وغيرهم ، ممن يذكر مقالات أهل الكلام .

وأبلغ من ذلك : أن منهم من يصنف فى دين المشركين والردة عن الإسلام ، كما صنف الرازى كتابه فى عبادة الكواكب والأصنام[٢] ، وأقام الأدلة على حسن ذلك ومنفعته ورغب فيه ، وهذه ردة عن الإسلام باتفاق المسلمين ، وإن كان قد يكون تاب منه وعاد إلى الإسلام .

ومن العجب : أن أهل الكلام يزعمون أن أهل الحديث والسنة أهل تقليد ليسوا أهل نظر واستدلال ، وأنهم ينكرون حجة العقل . وربما حكى إنكار الضرر[٣] عن بعض أئمة السنة ، وهذا مما ينكرونه عليهم

فيقال لهم : ليس هذا بحق ، فإن أهل السنة والحديث لاينكرون ماجاء به القرآن ، هذا أصل متفق عليه بينهم . والله قد أمر بالنظر والاعتبار والتفكر والتدبر في غير آية ، ولا يعرف عن أحد من سلف الأمة ولا أئمة السنة وعلمائها : أنه أنكر ذلك ، بل كلهم متفقون على الأمر بما جاءت به الشريعة ، من النظر والتفكر والاعتبار والتدبر وغير ذلك ، ولكن وقع اشتراك فى لفظ « النظر والاستدلال » ولفظ « الكلام » فإنهم أنكروا ما ابتدعه المتكلمون من باطل نظرهم وكلامهم واستدلالهم ، فاعتقدوا أن إنكار هذا مستلزم لإنكار جنس النظر والاستدلال .

وهذا كما أن طائفة من أهل الكلام يسمى ما وضعه : أصول الدين ، وهذا اسم عظيم ، والمسمى به فيه من فساد الدين ما الله به عليم ، فإذا أنكر أهل الحق

---

(١) أبو محمد الحسن بن الحسن بن على بن العباسى بن نوبخت النوبختى المعتزلى الشيعى المتوفى سنة ٤٠٢ هـ مترجم فى البداية ص ٣٤٧ ج ١١ .

(٢) السر المكتوم فى السحر ومخاطبة النجوم .

(٣) كذا وصوابه النظر .

والسنة ذلك ،قال المبطل : قد أنكروا أصول الدين ، وهم لم ينكروا مايستحق أن يسمى أصول الدين ، و إنما أنكروا ما سماه هذا أصول الدين ، وهى أسماء سموها هم وآباؤهم بأسماء ما أنزل الله بها من سلطان ، فالدين ما شرعه الله ورسوله، وقد بين أصوله وفروعه ، ومن المحال أن يكون الرسول قد بين فروع الدين دون أصوله ، كما قد بينا هذا فى غير هذا الموضع[1] فهكذا لفظ «النظر ، والاعتبار، والاستدلال »

وعامة هذه الضلالات إنما تطرق من لم يعتصم بالكتاب والسنة ، كما كان الزهرى [2] يقول « كان علماؤنا يقولون : الاعتصام بالسنة هو النجاة » وقال مالك [3] : « السنة سفينة نوح ، من ركبها نجا ، ومن تخلف عنها غرق »

وذلك أن السنة والشريعة والمنهاج : هو الصراط المستقيم الذى يوصل العباد إلى الله . والرسول : هو الدليل الهادى الخريت فى هذا الصراط، كما قال تعالى : (٣٣ : ٤٥ ، ٤٦ إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيرا ، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً) وقال تعالى : (٤٢ : ٥٢ ، ٥٣ و إنك لتهدي إلى صراط مستقيم : صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ، ألا إلى الله تصير الأمور) وقال تعالى : (٦ : ١٥٣ وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله) وقال عبد الله بن مسعود « خط رسول الله صلى الله عليه وسلم خطاً ، وخط خطوطاً عن يمينه وشماله ، ثم قال : هذا سبيل الله ، وهذه سبل ، على كل

---

(١) لعله يشير إلى مؤلفه فى ذلك ، وهى رسالة سماها « معارج الوصول إلا أن معرفة أصول الدين وفروعه قد بينها الرسول » طبعت عدة مرات ، وهى مفيدة جداً . وكتبه سليمان الصنيع .

(٢) ابن شهاب : محمد بن مسلم بن عبيد الله بن عبد الله الزهرى الإمام فى العلم شيخ مالك وابن عيينه والأوزاعى والأكابر من الحجاز والشام ومصر واليمن وغيرها.

(٣) مالك بن أنس : إمام دار الهجرة من أئمة تابع التابعين .

سبيل ، منها شيطان يدعو إليه ، ثم قرأ : (وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله [١]) »

وإذا تأمل العاقل الذى يرجو لقاء الله هذا المثال ، وتأمل سائر الطوائف من الخوارج ، ثم المعتزلة ، ثم الجهمية والرافضة ، ومن أقرب منهم إلى السنة من أهل الكلام ، مثل الكرامية والكُلَّابية والأشعرية وغيرهم ، وأن كلا منهم له سبيل يخرج به عما عليه الصحابة وأهل الحديث ، ويدعى أن سبيله هو الصواب — وجدت أنهم المراد بهذا المثال الذى ضربه المعصوم ، الذى لا يتكلم عن الهوى . إن هو إلا وحى يوحى .

والعجب أن من هؤلاء من يصرح بأن عقله إذا عارضه الحديث — لا سيما فى أخبار الصفات — حمل الحديث على عقله وصرح بتقديمه على الحديث ، وجعل عقله ميزاناً للحديث ، فليت شعرى هل عقله هذا كان مصرَّحا بتقديمه فى الشريعة المحمدية ، فيكون من السبيل المأمور باتباعه ، أم هو عقل مبتدع جاهل ضال حائر خارج عن السبيل ؟ فلا حول ولا قوة إلا بالله .

وهؤلاء الاتحادية [٢] وأمثالهم إنما أتُوا من قلة العلم والإيمان بصفات الله التى يتميز بها عن المخلوقات ، وقلة اتباع السنة وطريقة السلف فى ذلك ، بل قد يعتقدون من التجهم ما ينافى السنة ، تلقيا لذلك عن متفلسف أو متكلم ، فيكون ذلك الاعتقاد صادًّا لهم عن سبيل الله ، كلما أرادت قلوبهم أن تتقرب إلى ربها ، وتسلك الصراط المستقيم إليه ، وتعبده كما فطروا عليه ، وكما بلَّغتهم الرسل من

---

(١) رواه الإمام أحمد فى مسنده والنسائى وابن حبان والحاكم من عدة طرق عن ابن مسعود وكذا فى تفسير الشيخ ابن كثير .

(٢) هم الذين يزعمون أن وجود الخالق ووجود المخلوق شيء واحد ولا تعدد ولا كثرة ولا تمايز . ومن أئمتهم ابن عربى الطائى وابن سبعين وابن الفارض وغيرهم .

علوّه وعظمته صرفتهم تلك العوائق المضلة عن ذلك ، حتى تجد خلقا من مقلدة الجهْمية يوافقهم بلسانه ، وأما قلبه فعلى الفطرة والسنة ، وأكثرهم لا يفهمون ما النفى الذى يقولونه بألسنتهم ، بل يجعلونه تنزيها مطلقا مجملا ، ومنهم من لا يفهم قول الجهمية . بل يفهم من النفى معنى صحيحاً ، ويعتقد أن المثبت يثبت نقيض ذلك ، ويسمع من بعض الناس ذكر ذلك .

مثل أن يفهم من قولهم : ليس فى جهة ، ولا له مكان ، ولا هو في السماء : أنه ليس فى جوف السموات ، وهذا معنى صحيح ، وإيمانه بذلك حق ، ولكن يظن أن الذين قالوا هذا النفى اقتصرا على ذلك ، وليس كذلك ، بل مرادهم : أنه ما فوق العرش شىء أصلا ، ولا فوق السموات إلا عدم محض ، ليس هناك إله يعبد ، ولا رب يُدعى ويُسأل ، ولا خالق خلق الخلائق ولا عُرِج بالنبى إلى ربه أصلا ، هذا مقصودهم .

وهذا هو الذى أوقع الاتحادية فى قولهم : هو نفس الموجودات ، إذ لم تجد قلوبهم موجوداً إلا هذه الموجودات ، إذا لم يكن فوقها شىء آخر ، وهذا من المعارف الفطرية الشهودية الوجودية (١) أنه ليس إلا هذا الوجود المخلوق ، أو وجود آخر مباين له متميز عنه ، لا سيما إذا علموا أن الأفلاك مستديرة وأن الأعلى هو المحيط . فإنهم يعلمون أنه ليس إلا هذا الوجود المخلوق أو موجود فوقه . فإذا اعتقدوا مع ذلك : أنه ليس هناك وجود آخر ولا فوق العالم شىء ، لزم أن يقولوا : هو (٢) هذا الوجود المخلوق ، كما قال الاتحادية . وهذه بعينها هي حجة الاتحادية . وهذا بعينه هو مشربُ قدماء الجهمية وحدثائهم كما يقولون : هو فى كل مكان ، وليس هو فى مكان . ولا يختص بشىء . يجمعون دائماً بين القولين المتناقضين ، لأنهم يريدون إثبات موجود ، وليس عندهم شىء فوق العالم . فتعين أن يكون هو العالم

---

(١) يعنى الوجدانية التى تحس بالاحساس الباطنى .

(٢) أى الرب الخالق .

أو يكون فيه ، ثم يُريدون إثبات شيء غير المخلوق ، فيقولون : ليس هو فى العالم كما ليس خارجاً عنه ، أو يقولون : هو وجود المخلوقات دون أعيانها ، أو يقولون : هو الوجود المطلق ، فيثبتونه فيما يثبتون ، إذ كانت قلوبهم متشابهة فى النفى والتعطيل ، وهو إنكار موجود حقيقى مباين للمخلوقات عال عليها . وإنما يفترقون فيما يثبتونه ، وَيُكْرِهون فطرهم وعقولهم على قبول المحال المتناقض ، فيقولون : هو فى العالم ، وليس هو فيه ، أو هو العالم وليس إياه ، أو يغلبون الاثبات فيقولون : بل هو نفس الوجود أو النفى ، فيقولون : ليس فى العالم ولا خارجاً عنه أو يدينون بالإثبات فى حال و بالنفى فى حال ، إذا غلب على أحدهم عقله غَلَّب النفى ، وهو أنه ليس فى العالم ، وإذا غلب عليه الوجد[1] والعبادة رجح الإثبات ، وهو أنه فى هذا الوجود أو هو هو ، لا تجد جهمياً إلا على أحد هذه الوجوه الأربعة ، وإن تنوعوا فيما يثبتونه كما ذكرته لك ، فهم مشتركون فى التعطيل .

وقد رأيت منهم ومن كتبهم وسمعت منهم وممن يخبر عنهم من ذلك ما شاء الله . وكلهم على هذه الأحوال ضالون عن معبودهم وإلٰههم وخالقهم . ثم رأيت كلام السلف والأئمة كلهم يصفونهم بمثل ذلك ، فمنَّ الله علينا باتباع سبيل المؤمنين وآمنا بالله وبرسوله . وكل هؤلاء يجد نفسه مضطربة فى هذا الاعتقاد لتناقضه فى نفسه . وإنما يُسَكِّن بعض اضطرابه نوعُ تقليد لمعظَّم عنده ، أو خوفه من مخالفة أصحابه ، أو زعمه أن هذا من حكم الوهم والخيال دون العقل .

وهذا التناقض فى إثبات هذا الموجود الذى ليس بخارج عن العالم ولا هو العالم ، الذى تَرُدُّه فِطَرهم وشُهودهم وعقولهم غيرُ ما فى الفطرة من الإقرار بصانع فوق العالم ، فإن هذا إقرار الفطرة بالحق المعروف ، وذاك إنكار الفطرة بالباطل المنكر .

---

(١) أى الذوق الوجداني .

ومن هذا الباب : ما ذكره محمد بن طاهر المقدسي [1] في حكايته المعروفة أن الشيخ أبا جعفر الهمداني حضر مرة والأستاذ أبو المعالي يذكر على المنبر « كان الله ولا عرش » ونفي الاستواء ، على ما عرف من قوله — وإن كان في آخر عمره رجع عن هذه العقيدة ، ومات على دين أمه وعجائز نيسابور — قال فقال الشيخ أبو جعفر « يا أستاذ ، دعنا من ذكر العرش — يعني لأن ذلك إنما جاء في السمع — أخبرنا عن هذه الضرورة التي نجدها في قلوبنا : ما قال عارف قط « يا آلله » إلا وجد من قلبه معنى يطلب العلو ، لا يلتفت يمنة ولا يسرة ، فكيف نرفع هذه الضرورة عن قلوبنا ؟ » فصرخ أبو المعالي ، ووضع يده على رأسه ، وقال « حيرني الهمداني » أو كما قال ونزل .

فهذا الشيخ [2] تكلم بلسان جميع بني آدم ، فأخبر أن العرش والعلم باستواء الله عليه إنما أخذ من جهة الشرع وخبر الكتاب والسنة ، بخلاف الإقرار بعلوّ الله على الخلق من غير تعيين عرش ولا استواء ، فإن هذا أمر فطري ضروري نجده في قلوبنا نحن وجميع من يدعو الله تعالى فكيف ندفع هذه الضرورة عن قلوبنا ؟

والجارية التي قال لها النبي صلى الله عليه وسلم « أين الله ؟ قالت : في السماء قال : أعتقها فإنها مؤمنة » جارية أعجمية ، أرأيتَ [3] مَنْ فقَّهها وأخبَرَها بما ذكرته ؟ وإنما أخبرت عن الفطرة التي فطرها الله تعالى عليها ، وأقرها النبي صلى الله عليه وسلم على ذلك وشهد لها بالإيمان .

فليتأمل العاقل ذلك يجده هادياً له على معرفة ربه ، والإقرار به كما ينبغي ، لا ما أحدثه المتعمقون والمتشدقون ممن سوّل لهم الشيطان وأملى لهم .

ومن أمثلة ذلك : أن الذين لَبَّسوا الكلام بالفلسفة من أكابر المتكلمين

---

(١) المتوفى سنة ٥٠٦ ترجمته في البداية ص ١٧٦ ج ١٢ .

(٢) أبو جعفر الهمداني . (٣) أي أخبرني من الذي علمها أوفقهها الخ .

تجدهم يعدون من الأسرار المصونة والعلوم المخزونة : ما إذا تدبّره من له أدنى عقل ودين وجد فيه من الجهل والضلال ما لم يكن يظن أنه يقع فيه هؤلاء ، حتى قد يكذِّب بصدور ذلك عنهم ، مثل تفسير حديث المعراج ، الذى ألفه أبو عبد الله الرازى (١) الذى احتذى فيه حذو ابن سينا ، وعين القضاة الهمدانى ، فإنه روى حديث المعراج ، بسياق طويل وأسماء عجيبة وترتيب لا يوجد فى شىء من كتب المسلمين ، لا فى الأحاديث الصحيحة ولا الحسنة ولا الضعيفة المروية عند أهل العلم ، وإنما وضعه بعض السؤّال والطرقية ، أو بعض شياطين الوعاظ أو بعض الزنادقة ، ثم إنه مع الجهل بحديث المعراج الموجود فى كتب الحديث والتفسير والسيرة وعدوله عما يوجد فى هذه الكتب إلى ما لم يسمع من عالم ، ولا يوجد فى أثارة من علم فسره بتفسير الصّابئة الضالة المنجمين ، وجعل معراج الرسول ترقِّيه بفكره إلى الأفلاك ، وأن الأنبياء الذين رآهم هم الكواكب ، فآدم هو القمر ، وإدريس هو الشمس والأنهار الأربعة هى العناصر الأربعة ، وأنه عرف الوجود الواجب المطلق ، ثم إنه يعظم ذلك ويجعله من الأسرار والمعارف التى يجب صونها عن أفهام المؤمنين ، وعلمائهم حتى إن طائفة ممن كانوا يعظمونه لمّا رأوا ذلك تعجبوا منه غاية التعجب ، وجعل بعض المتعصبين له يدفع ذلك حتى أروه النسخة بخط بعض المشايخ المعروفين الخبيرين بحاله وقد كتبها فى ضمن كتابه الذى سماه « المطالب العالية » وجمع فيه عامة آراء الفلاسفة والمتكلمين .

وتجد أبا حامد الغزالى — مع أن له من العلم بالفقه والتصوف والكلام والأصول وغير ذلك ، مع الزهد والعبادة وحسن القصد ، وتبحره فى العلوم الإسلاميّة أكثر من أولئك — يذكر فى كتاب « الأربعين » ونحوه كتابه : « المضنون به على غير أهله » فإذا طلبت ذلك الكتاب واعتقدت فيه أسرار الحقائق وغاية المطالب وجدته قول الصابئة المتفلسفة بعينه ، قد غيرت عباراتهم

(١) الشهير بالفخر الرازى .

وترتيباتهم ومن لم يعلم حقائق مقالات العباد ومقالات أهل الملل يعتقد أن ذاك هو السر الذى كان بين النبي صلى الله عليه وسلم وأبى بكر ، وأنه هو الذى يطلع عليه المكاشفون الذين أدركوا الحقائق بنور الهىّ . فإن أبا حامد كثيراً ما يحيل فى كتبه على ذلك النور الإلهى وعلى ما يعتقد أنه يوجد للصوفية والعُبّاد برياضتهم ودياناتهم من إدراك الحقائق وكشفها لهم ، حتى يزنوا بذلك ما ورد به الشرع .

وسبب ذلك أنه كان قد علم بذكائه وصدق طلبه ، بما فى طريق المتكلمين والمتفلسفة من الاضطراب ، وآتاه الله إيماناً مجملا ، كما أخبر به عن نفسه ، وصار يتشوف إلى تفصيل الجملة ، فيجد فى كلام المشايخ والصوفية ما هو أقرب إلى الحق وأولى بالتحقيق من كلام الفلاسفة والمتكلمين والأمر كما وجده ، لكن لم يبلغه من الميراث النبوى الذى عند خاصة الأمة من العلوم والأحوال ، وما وصل إليه السابقون الأولون من العلم والعبادة حتى نالوا من المكاشفات العلمية والمعاملات العبادية ما لم ينله أولئك ، فصار يعتقد أن تفصيل تلك الجملة يحصل بمجرد تلك الطريق ، حيث لم يكن عنده طريق غيرها ، لانسداد الطريقة الخاصّة السُّنية النبوية عنه بما كان عنده من قلة العلم بها ومن الشبهات التى تَقَلَّدها عن المتفلسفة والمتكلمين ، حتى حالوا بها بينه و بين تلك الطريقة . ولهذا كان كثير الذم لهذه الحوائل ولطريقة العلم . و إنما ذاك [1] لعلمه الذى سلكه ، والذى حجب به عن حقيقة المتابعة للرسالة . وليس هو بعلم ، و إنما هو عقائد فلسفية وكلامية ، كما قال السّلف « العلم بالكلام هو الجهل » وكما قال أبو يوسف [2] « من طلب العلم بالكلام تزندق » ولهذا صار طائفة ممن يرى فضيلته وديانته يدفعون وجود هذه الكتب عنه ، حتى كان الفقيه أبو محمد بن عبد السلام [3] ـ فيما علقه عنه ـ

---

(١) أى إن ذمه إنما يقع على علم خاص ، هو ما عرفه من العلوم الكلامية والفلسفية . (٢) هو القاضى يعقوب بن ابراهيم صاحب أبى حنيفة .

(٣) الشهير بالعز أو عز الدين ولقب بسلطان العلماء .

ينكر أن يكون « بداية الهداية » من تصنيفه ويقول : إنما هو تقوّل عليه ، مع أن هذه الكتب مقبولها أضعاف مردودها ، والمردود منها أمور مجملة ، وليس فيها عقائد ولا أصول الدين .

وأما « المضنون به على غير أهله » فقد كان طائفة أخرى من العلماء يكذّبون ثبوته عنه ، وأما أهل الخبرة به وبحاله فيعلمون أن هذا كله كلامه ، لعلمهم بمواد كلامه ومشابهة بعضه بعضا ، ولكن كان هو وأمثاله — كما قدمت — مضطربين لا يثبتون على قول ثابت ، لأن عندهم من الذكاء والطلب ما يتشوفون به إلى طريقة خاصة الخلق ، ولم يقدر لهم سلوك طريقِ خاصةِ هذه الأمة الذين ورثوا عن الرسول صلى الله عليه وسلم العلم والإيمان ، وهم أهل حقائق الإيمان والقرآن ، كما قدمناه ، وأهل الفهم لكتاب الله والعلم والفهم لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأتباع هذا العلم بالأحوال والأعمال المناسبة لذلك ، كما جاءت به الرسالة . ولهذا كان الشيخ أبو عمرو بن الصلاح [1] يقول — فيما رأيته بخطه — : أبو حامد كثر القول فيه ومنه . فأما هذه الكتب — يعني المخالفة للحق — فلا يلتفت إليها . وأما الرجل فيسكت عنه ، ويفوض أمره إلى الله .

ومقصوده : أنه لا يذكر بسوء ، لأن عفو الله عن الناس والمخطيء وتوبة المذنب تأتي على كل ذنب ، وذلك من أقرب الأشياء إلى هذا وأمثاله ، ولأن مغفرة الله بالحسنات منه ومن غيره ، وتكفيره الذنوب بالمصائب تأتي على محقق الذنوب ، فلا يقدم الإنسان على انتفاء [3] ذلك في حق معين إلا ببصيرة ، لا سيما مع كثرة الإحسان والعلم الصحيح والعمل الصالح والقصد الحسن ، وهو [4] يميل إلى الفلسفة ، لكنه أظهرها في قالب التصوف والعبارات الاسلامية . ولهذا

---

(١) أبو عمر عثمان بن عبد الرحمن بن عثمان بهي الدين بن الصلاح الشهرزوري مفتي الشام ومحدثها توفي سنة ٦٤٣ هـ ذكره في البداية ص ١٦٨ ج ١٣ .

(٣) كذا في الأصل ، ولعله « على إثبات » . (٤) أي الغزالي .

فقد رد عليه علماء المسلمين ، حتى أخص أصحابه أبو بكر بن العربي ، فإنه قال : « شيخنا أبو حامد دخل فى بطن الفلاسفة ، ثم أراد أن يخرج منهم فما قدر » وقد حكى عنه من القول بمذاهب الباطنية ما يوجد تصديق ذلك فى كتبه . ورد عليه أبو عبد الله المازرى [1] فى كتاب أفرده ، ورد عليه أبو بكر الطرطوشى ، ورد عليه أبو الحسن المرغينانى رفيقه ، رد عليه كلامه فى مشكاة الأنوار ونحوه ، ورد عليه الشيخ أبو البيان والشيخ أبو عمرو بن الصلاح ، وحذر من كلامه فى ذلك هو وأبو زكريا النواوى وغيرهما ، ورد عليه ابن عقيل وابن الجوزى وأبو محمد المقدسي وغيرهم .

وهذا باب واسع ، فإن الخارجين [2] عن طريقة السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان لهم فى كلام الرسول ثلاث طرق : طريقة التخييل ، وطريقة التأويل ، وطريقة التجهيل .

فأهل التخييل : هم الفلاسفة والباطنية الذين يقولون : إنه خيل أشياء ، لا حقيقة لها فى الباطن ، وخاصية النبوة عندهم التخييل .

وطريقة التأويل : طريقة المتكلمين من الجهمية والمعتزلة وأتباعهم ، يقولون : إن ماقاله له تأويلات تخالف ما دل عليه اللفظ ، وما يفهم منه ، وهو — وإن كان لم يبين مراده ولا بين الحق الذى يجب اعتقاده — فكان مقصوده : أن هذا يكون سبباً للبحث بالعقل ، حتى يعلم الناس الحق بعقولهم ويجتهدوا فى تأويل ألفاظه الى مايوافق قولهم ليثابوا على ذلك ، فلم يكن قصده لهم البيان والهداية والإرشاد والتعليم ، بل قصده التعمية والتلبيس ، ولم يعرفهم الحق حتى ينالوا الحق بعقلهم ، ويعرفوا حينئذ أن كلامه لم يقصد به البيان ، فيجعلون حالهم فى العلم مع عدمه خيراً من حالهم مع وجوده ، وأولئك المتقدمون : كابن سينا وأمثاله ، ينكرون

---

(١) المالكى شارح صحيح مسلم .   (٢) من المتفلسفة والمتكلمين

على هؤلاء ، و يقولون : ألفاظه كثيرة صريحة لا تقبل التأويل ، لكن كان قصده التخييل ، وأن يعتقد الناس الأمر على خلاف ما هو عليه .

وأما الصنف الثالث ، الذين يقولون : إنهم أتباع السلف ، فيقولون : إنه لم يكن الرسول يعرف معنى ما أنزل عليه من هذه الآيات ، ولا أصحابه يعلمون معنى ذلك ، بل لازم قولهم : أنه هو نفسه لم يكن يعرف معنى ما تكلم به من أحاديث الصفات ، بل يتكلم بكلام لا يعرف معناه ، والذين ينتحلون مذهب السلف ، يقولون : إنهم لم يكونوا يعرفون معانى النصوص ، بل يقولون ذلك فى الرسول . وهذا القول من أبطل الأقوال ، ومما يعتمدون عليه من ذلك ما فهموه من قوله تعالى (٣ : ٦ وما يعلم تأويله إلا الله) و يظنون أن التأويل هو المعنى الذى يسمونه هم تأويلا ، وهو مخالف للظاهر .

ثم هؤلاء قد يقولون : تجرى النصوص على ظاهرها ، وتأويلها لا يعلمه إلا الله ، ويريدون بالتأويل : ما يخالف الظاهر ، وهذا تناقض منهم ، وطائفة يريدون بالظاهر ألفاظ النصوص فقط ، والطائفتان غالطتان فى فهم الآية .

وذلك أن لفظ « التأويل » قد صار بسبب تعدد الاصطلاحات ، له ثلاث معان :

أحدها : أن يراد بالتأويل حقيقة ما يؤول إليه الكلام ، وإن وافق ظاهره . وهذا هو المعني الذى يراد بلفظ التأويل فى الكتاب والسنة ، كقوله تعالى(٧ : ٥٣ هل ينظرون إلا تأويله ، يوم يأتى تأويله يقول الذين نسوه من قبل : قد جاءت رسل ربنا بالحق) ومنه قول عائشة « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر أن يقول فى ركوعه وسجوده : سبحانك الله ربنا ولك الحمد [1] اللهم اغفر لى ، يتأول القرآن »

(١) الذى رواه الجماعة إلا الترمذى ، ورواه أيضا أحمد فى مسنده والبيهقى فى سننه « وبحمدك » .

والثانى : يراد بلفظ التأويل « التفسير » وهو اصطلاح كثير من المفسرين ، ولهذا قال مجاهد ـ إمام أهل التفسير ـ إن « الراسخين فى العلم » يعلمون تأويل المتشابه ، فإنه أراد بذلك تفسيره وبيان معانيه ، وهذا مما يعلم الراسخون .

والثالث : أن يراد بلفظ « التأويل » صرف اللفظ عن ظاهره ، الذى يدل عليه ظاهره إلى ما يخالف ذلك ، لدليل منفصل يوجب ذلك ، وهذا التأويل لا يكون إلا مخالفاً لما يدل عليه اللفظ ويبينه . وتسمية هذا تأويلا لم يكن فى عرف السلف ، وإنما سمى هذا وحده تأويلا طائفة من المتأخرين الخائضين فى الفقه وأصوله والكلام ، وظن هؤلاء أن قوله تعالى (وما يعلم تأويله إلا الله) يراد به هذا المعنى ، ثم صاروا فى هذا التأويل على طريقين : قوم يقولون : إنه لا يعلمه إلا الله ، وقوم يقولون : إن الراسخين فى العلم يعلمونه ، وكلا الطائفتين مخطئة ، فإن هذا التأويل فى كثير من المواضع ـ أو أكثرها وعامتها ـ من باب تحريف الكلم عن مواضعه ، من جنس تأويلات القرامطة والباطنية . وهذا هو التأويل الذى اتفق سلف الأمة وأئمتها على ذمه ، وصاحوا بأهله من أقطار الأرض ، ورموا فى آثارهم بالشهب (١) .

وقد صنف الإمام أحمد كتابا فى الرد على هؤلاء ، وسماه « الرد على الزنادقة والجهمية ، فيما شكت فيه من متشابه القرآن (٢) » وتأولته على غير تأويله ، فعاب أحمد عليهم أنهم يفسرون القرآن بغير ما هو معناه . ولم يقل أحمد ولا أحد من الأئمة : إن الرسول لم يكن يعرف معانى آيات الصفات وأحاديثها ، ولا قالوا : إن الصحابة والتابعين لهم بإحسان لم يعرفوا تفسير القرآن ومعانيه ، كيف ؟ وقد أمر الله بتدبر كتابه ، فقال تعالى (٣٨ : ٢٩ كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا

---

(١) جمع شهاب ، والمراد الحجج المحرقة لأباطيلهم .

(٢) رسالة صغيرة مطبوعة عن نسخة المكتبة المحمودية بالمدينة المنورة على نفقة محمد سعيد ندا وشركاه بمكة المكرمة . وكتبه سليمان الصنيع .

آياته) ولم يقل : بعض آياته ، وقال (٤: ٨٢ و ٤٧: ٢٤ أفلا يتدبرون القرآن ؟) وقال (٢٣: ٦٨ أفلم يدبروا القول ؟) وأمثال ذلك فى النصوص التى تبين أن الله يحب أن يتدبر النـاسُ القرآن كله ، وأنه جعله نوراً وهدى لعباده . ومحال أن يكون ذلك مما لايفهم معناه ، وقد قال أبو عبد الرحمن السلمى : حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن ـ عثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود ـ أنهم قالوا : « كنا إذا تعلمنا من النبى صلى الله عليه وسلم عشر آيات لم نجاوزها حتّى نتعلم ما فيها من العلم والعمل » قالوا : « فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعاً » وهذه الأمور مبسوطة فى غير هذا الموضع .

والمقصود هنا : أن من يقول فى الرسول و بيانه للناس [إنه لم يفهم القرآن ولم يعرف معناه] مما هو من قول الملاحدة ، فكيف يكون قوله فى السلف ؟ حتى يَدَّعى اتبـاعَه ، وهو مخالف للرسول والسلف عند نفسه وعند طائفته ، فإنه قد أظهر من قول النفاة ما كان الرسول يرى عدم إظهاره ، لما فيه من فساد الناس ، وأما عند أهل العلم والإيمان فلا ، وقول النفـاة باطل باطناً وظاهراً ، والرسول صلى الله عليه وسلم ومتبعوه منزهون عن ذلك ، بل مات صلى الله عليه وسلم وتركنا على المحجة البيضاء ، ليلها كنهارها ، لا يزيغ عنها إلا هالك ، وأخبرنا أن « كل ما حـدث بعده من محدثات الأمور فهو بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة فى النار »

ور بما أنشد بعض [1] أهل الكلام بيت مجنون بنى عامر :

وكُلٌّ يدعى وصلا لليلى وليلى لا تقر لهم بذا كا

فمن قال من الشعر ماهو حكمة ، أو تمثل ببيت من الشعر فيما تبين له أنه حق كان قريباً .أما إثبات الدعوى بمجرد كلام منظوم من شعر أو غيره فيقال لصاحبه:

---

(١)هو العز بن عبد السلام ، كما سيأتى فى ص ٩٨ من الأصل الخطى ومابعدها.

ينبغي أن تبين أن السلف لا يقرون بمن انتحلتهم . وهذا ظاهر فيما ذكره هو وغيره ممن يقولون عن السلف ما لم يقولوه ، ولم ينقله عنهم أحد له معرفة بحالهم وعدل فيما نقل ، فان الناقل لا بد أن يكون عالماً عدلا . فإن فرض أن أحداً نقل مذهب السلف كما يذكره ، فإما أن يكون قليل المعرفة بآثار السلف ، كأبي المعالي (١) وأبي حامد الغزالي وابن الخطيب [أبي عبد الله محمد بن عمر الرازي] وأمثالهم ممن لم يكن لهم من المعرفة بالحديث ما يعدون به من عوام أهل الصناعة ، فضلا عن خواصها ، ولم يكن الواحد من هؤلاء يعرف البخاري ومسلماً وأحاديثهما ، إلا بالسماع ، كما يذكر ذلك العامة ، ولا يميزون بين الحديث الصحيح المتواتر عند أهل العلم بالحديث، و بين الحديث المفترى المكذوب،وكتبهم أصدق شاهد بذلك ففيها عجائب . وتجد عامة هؤلاء الخارجين عن منهاج السلف من المتكلمة والمتصوفة يعترف بذلك ، إما عند الموت و إما قبل الموت . والحكايات في هذا كثيرة معروفة .

هذا أبو الحسن الأشعري : نشأ في الاعتزال أربعين عاما يناظر عليه ، ثم رجع عن ذلك وصرح بتضليل المعتزلة و بالغ في الرد عليهم .

وهذا أبو حامد الغزالي [مع فرط ذكائه وتألهه ومعرفته بالكلام والفلسفة وسلوكه طريق الزهد والرياضة والتصوف ينتهي في هذه المسائل إلى الوقف والحيرة ويحيل في آخر أمره على طريقة أهل الكشف ، و إن كان بعد ذلك رجع إلى طريقة أهل الحديث] وصنف « إلجام العوام عن علم الكلام » [وكذلك أبو عبد الله محمد بن عمر الرازي قال في كتابه الذي صنفه في أقسام اللذات] « لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية ، فما رأيتها تشفي عليلا ، ولا تروي غليلا ،

---

(١) أبو المعالي الجويني عبد الملك بن عبد الله بن يوسف الشهير بإمام الحرمين تقدم ، وانظر كلام شيخ الاسلام في أبي المعالي وذويه في التسعينية ص ٢٥١ . وكتبه سليمان الصنيع .

ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن [أقرأ في الإثبات (الرحمن على العرش استوى) (٣٥ : ١٠ إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه) وأقرأ فى النفى (ليس كمثله شىء) (٢٠ : ١١٠ ولا يحيطون به علما) (هل تعلم له سميا ؟) ثم قال : ومن جرب مثل تجربتى عرف مثل معرفتى] وكان يتمثل كثيراً :

نهاية إقدام العقول عقال — وأكثر سعى العالمين ضلال
وأرواحنا فى وحشة من جسومنا — وحاصل دنيانا أذى ووبال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا — سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا

وهذا إمام الحرمين ترك ما كان ينتحله ويقرره ، واختار مذهب السلف . وكان [يقول « يا أصحابنا لا تشتغلوا بالكلام ، فلو أنى عرفت أن الكلام يبلغ بى إلى ما بلغ ما اشتغلت به » وقال عند موته «لقد خضت البحر الخضم ،وخليت أهل الإسلام وعلومهم ، ودخلت فيما نهونى عنه . والآن : إن لم يتداركنى ربى برحمته فالويل لابن الجوينى ، وها أنذا أموت على عقيدة أمى ـ أو قال ـ : عقيدة عجائز نيسابور » وكذلك قال أبو عبد الله محمد بن عبد الكريم الشهرستانى : « إنه لم يجد عند الفلاسفة والمتكلمين إلا الحيرة والندم [1] »] وكان ينشد :

لعمرى لقد طفت المعاهد كلها — وسيرت طرفى بين تلك المعالم

---

(١) بسم الله الرحمن الرحيم ، يقول سليمان بن عبد الرحمن الصنيع : إنى لما رأيت هذه الصفحة فيها من السقط والتحريف ونسبة أقوال إلى غير قائليها عرفت أن ذلك بلا شك ولا ريب من عمل النساخ ، ولما كانت تلك الأقوال وقائلوها معروفة مظانها فى كتب شيخ الاسلام تقى الدين أحمد بن تيمية رحمه الله ، كمنهاج السنة النبوية ، وبيان موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول . وكتاب النبوات ، والفتوى الحموية وغير ذلك ، ومثل كتاب الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ، واجتماع الجيوش الاسلامية لغزو المعطلة والجهمية ، كلاهما لشمس الدين ابن قيم الجوزية ـ لما كان كذلك نقلت ذلك منها على الصواب ، وجعلت ما زدته مما سقط من الناسخ فى هذه الرسالة بين قوسين واقفين هكذا [ ]

فلم أر إلا واضعاً كف حائر على ذقن ، أو قارعاً سن نادم

وابن الفارض — من متأخرى الاتحادية — صاحب القصيدة التائية المعروفة بنظم السلوك ، وقد نظم فيها الاتحاد نظماً رائق اللفظ ، فهو أخبث من لحم خنزير فى صينية من ذهب . وما أحسن تسميتها بنظم الشكوك . الله أعلم بها و بما اشتملت عليه ، وقد نفقت كثيراً ، و بالغ أهل العصر فى تحسينها والاعتداد بما فيها من الاتحاد — لما حضرته الوفاة أنشد :

إن كان منزلتى فى الحب عندكم ما قد لقيت فقد ضيّعت أيامى

أمنيــة ظفرت نفسى بها زمناً واليوم أحسبها أضغاث أحلام

ولقد كان من أصول الإيمان : أن يُثبِّت الله العبد بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفى الآخرة ، كما قال تعالى (١٤ : ٢٤ — ٢٧ ألم تر كيف ضرب الله مثلا : كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء ، تؤتى أُكلها كل حين بإذن ربها ، و يضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون ، ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجْتُثَّتْ من فوق الأرض ، مالها من قرار ، يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ، و يضل الله الظالمين و يفعل الله مايشاء)

والكلمة : أصل العقيدة ، فإن الاعتقاد : هو الكلمة التى يعتقدها المرء ، وأطيب الكلام والعقائد : كلمة التوحيد واعتقاد أن لا إله إلا الله . وأخبث الكلام والعقائد : كلمة الشرك ، وهو اتخاذ إله مع الله . فإن ذلك باطل لاحقيقة له . ولهذا قال سبحانه (مالها من قرار) ولهذا كان كلما بحث الباحث وعمل العامل على هذه الكلمات والعقائد الخبيثة لا يزداد إلا ضلالاً و بعدًا عن الحق وعلماً ببطلانها ، كما قال تعالى (٢٤ : ٣٩ ، ٤٠ والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء ، حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفّاه حسابه ، والله سريع الحساب ، أو كظلمات فى بحر لُجِّيٍّ يغشاه موج من فوقه موج من

فوقه سحاب ، ظلمات بعضا فوق بعض ، إذا أخرج يده لم يكد يراها . ومن لم يجعل الله له نوراً فماله من نور) .

فذكر سبحانه مثلين ، أحدهما : مثل الكفر والجهل المركب الذى يحسبه صاحبه موجوداً ، وفى الواقع يكون خيالاً معدوماً كالسراب وأن القلب عطشان إلى الحق كعطش الجسد إلى الماء . فإذا طلب ما ظنه ماء وجده سرابا ، ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب . وهكذا تجد عامة هؤلاء الخارجين عن السنة والجماعة .

والمثل الثانى : مثل الكفر والجهل البسيط الذى لا يتبين فيه صاحبه حق ولا يرى فيه هدى ، والكفر المركب مستلزم للبسيط ، وكل كفر فلا بد فيه من جهل مركب .

فضرب الله سبحانه المثلين بذلك ليبين حال الاعتقاد الفاسد ، ويبين حال عدم معرفة الحق ، وهو يشبه حال المغضوب عليهم والضالين [وهما] حال المصمم على الباطل حتى يحل به العذاب ، وحال الضالّ الذى لا يرى طريق الهدى.

فنسأل الله العظيم أن يثبتنا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ، وأن يرزقنا الاعتصام بالكتاب والسنة .

ومن أمثلة ما ينسبه كثير من أتباع المشايخ والصوفية إلى المشايخ الصادقين من الكذب والمحال، أو يكون من كلامهم المتشابه الذى تأولوه على غير تأويله ، أو يكون من غلطات بعض الشيوخ وزلاتهم ، أو من ذنوب بعضهم وخطئهم مثل كثير من البدع والفجور الذى يفعله بعضهم بتأويل سائغ أو بوجه غير سائغ فيعفى عنه [1] أو يتوب منه أو يكون له حسنات يغفر له بها ، أو مصائب يكفر عنه بها ، أو يكون من كلام المتشبهين بأولياء الله من ذوى الزهادات والعبادات

(١) كيف يعفى عن الفجور والبدع إلا بالتوبة النصوح والعمل الصالح الذي يغير ويزيل آثارها من القلوب ، ومن الأتباع ؟.

والمقامات ، وليس هو من أولياء الله المتقين ، بل من الجاهلين الظالمين المعتدين أو المنافقين أو الكافرين . وهذا كثير ملأ العالم ، تجد كل قوم يدعون من الاختصاص بالأسرار والحقائق مالا يدعى المرسلون ، وأن ذلك عند خواصهم ، وأن ذلك لا ينبغي أن يقابل إلا بالتسليم ، ويحتجون لذلك بأحاديث موضوعة ، وتفسيرات باطلة . مثل قولهم عن عمر « إن النبى صلى الله عليه وسلم كان يتحدث هو وأبو بكر بحديث وكنت كالزنجى بينهما » فيجعلون عمر مع النبى صلى الله عليه وسلم وصِدِّيقه كالزنجى ، وهو حاضر يسمع الكلام . ثم يدعى أحدهم (١) أنه علم ذلك (٢) بما قذف فى قلبه ، ويدعى كل منهم : أن ذلك هو ما يقوله من الزور والباطل ، ولو ذكرت ما فى هذا الباب من أصناف الدعاوى الباطلة لطال .

فمنهم من يجعل للشيخ قصائد يسميها « جنيب القرآن » ويكون وجده بها وفرحه بمضمونها أعظم من القرآن ، ويكون فيها من الكذب والضلال أمور .

ومنهم من يجعل له قصائد فى الاتحاد ، وأنه خالق جميع الخلق ، وأنه خلق السموات والأرض ، وأنه يُسجد له ويُعبد .

ومنهم من يصف ربه فى قصائده ، بما نقل فى الموضوعات من أصناف التمثيل والتكييف والتجسيم التى هى كذب مفتري وكفر صريح ، مثل مواكلته ومشاربته ومماشاته ومعانقته ونزوله إلى الأرض وقعوده (٣) فى بعض رياض الأرض ونحو ذلك ، ويجعل كل منهم ذلك من الأسرار المخزونة والعلوم المصونة التي تكون لخواص أولياء الله المتقين .

ومن أمثلة ذلك : أنك تجد عند الرافضة والمتشيعة ومن أخذ عنهم من دعوى علوم الأسرار والحقائق التى يدعون أخذها عن أهل البيت، إما من العلوم الدينية وإما مِنْ علم الحوادث الكائنة، ماهو عندهم من أَجَل الأمور التى يجب التواصى

---

(١) أحد المتصوفة . (٢) ما يدعيه سراً وحقيقة .

(٣) هذه الضمائر تركها عائدة على الرب .

بكتمانها والإيمان بما لا يعلم حقيقته من ذلك . وجميعها كذب مختلق وإفك مفترى ، فإن هذه الطائفة الرافضة من أكثر الطوائف كذبا وادعاء للعلم المكتوم ولهذا انتسبت إليهم الباطنية والقرامطة. وهؤلاء خرج أولهم في زمن أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه[١] ، وصاروا يدعون أنه خُصَّ بأسرار من العلوم والوصية ، حتى كان يسأله عن ذلك خواص أصحابه ،فيخبرهم بانتفاء ذلك . ولما بلغه أن ذلك قد قيل كان يخطب الناس ، وينفى ذلك عن نفسه . وقد خرَّج أصحاب الصحيح كلام علىٍّ هذا من غير وجه ، مثل مافى الصحيح عن أبى جحيفة قال : « سألت علياً : هل عندكم شيء ليس فى القرآن ؟ فقال : لا ، والذى فلق الحبة وبرأ النَّسَمة ، ما عندنا إلا مافى القرآن ، إلا فهما يعطيه الله الرجل فى كتابه وما فى هذه الصحيفة . قلت : وما في الصحيفة ؟ قال : العقل[٢] وفكاك الأسير وأن لا يقتل مسلم بكافر » ولفظ البخاري « هل عندكم شيء من الوحي غير ما فى كتاب الله ؟ قال : لا ، والذى فلق الحبة وبرأ النسمة ، ما أعلمه إلا فهما يعطيه الله رجلا فى القرآن » وفى الصحيحين عن إبراهيم التيمى عن أبيه — وهذا من أصح إسناد على وجه الأرض — عن على قال « ما عندنا شيء إلا كتاب الله ، وهذه الصحيفة عن النبى صلى الله عليه وسلم : المدينة حرم مابين عَيْر إلى ثور»[٣] وفى رواية لمسلم « خطبنا على بن أبى طالب فقال : من زعم أن عندنا كتاباً نقرؤه إلا كتاب الله وما فى هذه الصحيفة — قال : وصحيفته معلقة فى قُراب سيفه — فقد كذب ، فيها أسنان الإبل وأشياء من الجراحات[٤] ، وفيها قال النبى صلى الله عليه وسلم : المدينة حرم » الحديث .

---

(١) كان أول داع إلى عبادة على : هو عبد الله بن سبأ المشهور بابن السوداء . وكان هو قائد الفتنة التى انتهت بقتل عثمان ثم بقتال على ومعاوية . (٢) أى الدية التى فى القتل . (٣) عير — بفتح العين المهملة وسكون الياء — جبل فى جنوب المدينة ، وثور جبل فى شمالها . (٤) أى إبل الديات وأعمارها من حقة وجذعة الخ . ودية الجراحات .

وأما الكذب والأسرار التى يدّعونها عن جعفر الصادق : فمن أكبر الأشياء [كذبا] حتى يقال : ما كُذب على أحد ما كذب على جعفر رضى الله عنه .

ومن هذه الأمور المضافة : كتاب « الجعر » الذى يدعون أنه كتب فيه الحوادث ، والجفر : ولد الماعز ، يزعمون أنه كتب ذلك فى جلده ، وكذلك كتاب « البطاقة » الذى يدعيه ابن الحلى ونحوه من المغاربة ، ومثل كتاب : « الجدول » فى الهلال ، و «الهفت» عن جعفر وكثير من تفسير القرآن وغيره ، ومثل كتاب «رسائل إخوان الصفا» الذى صنفه جماعة فى دولة بنى بويه ببغداد وكانوا من الصابئة المتفلسفة المتحنفة ، جمعوا بزعمهم بين دين الصابئة المبدلين ، وبين الحنيفية ، وأتوا بكلام(١) المتفلسفة وبأشياء من الشريعة ،وفيه من الكفر والجهل شىء كثير ، ومع هذا فان طائفة من الناس — من بعض أكابر قضاة النواحى — يزعم أنه من كلام جعفر الصادق . وهذا قول زنديق وتشنيع جاهل .

ومثل ما يذكره بعض العامة من ملاحم ابن غنضب ، ويزعمون أنه كان معلما للحسن والحسين . وهذا شىء لم يكن فى الوجود باتفاق أهل العلم ، وملاحم ابن غنضب إنما صنفها بعض الجهال فى دولة نور الدين ونحوها ، وهو شعر فاسد يدل على أن ناظمه جاهل .

وكذلك عامة هذه الملاحم المروية بالنظم ونحوه ، عامتها من الأكاذيب وقد أحدث فى زماننا من القضاة والمشايخ غير واحدة منها ، وقد قررتُ بعض هؤلاء على ذلك ، بعد أن ادّعى قدمها ، وقلت له : بل أنت صنفتها ، ولبستها على بعض ملوك المسلمين لما كان المسلمون محاصرى عكة ، وكذلك غيره من القضاة وغيرهم لبسوا على غير هذا الملك .

وباب الكذب فى الحوادث الكونية أكثر منه فى الأمور الدينية ، لأن تشوف الذين يُغَلِّبون الدنيا على الدين إلى ذلك أكثر ، وإن كان لأهل الدين

(١) فسره بقوله جمعوا الخ .

إلى ذلك تشوف ، لكن تشوفهم إلى الدين أقوى ، وأولئك [١] ليس لهم من الفرقان بين الحق والباطل من النور ما لأهل الدين . فلهذا كثر الكذابون فى ذلك ونفق [٢] منه شىء كثير ، وأُكِلَتْ به أموال عظيمة بالباطل ، وقُتِلت به نفوس كثيرة من المتشوفة إلى المُلْك ونحوها . ولهذا ينوعون طرق الكذب فى ذلك ويتعمدون الكذب فيه : تارة بالإحالة على الحركات والاشكال الجسمانية الإلٰهية [٣] من حركات الأفلاك والكواكب والشهب والرعود والبروق والرياح وغير ذلك ، وتارة بما يحدثونه هم من الحركات والأشكال ، كالضرب بالرمل والحصا والشعير والقرعة باليد ونحو ذلك مما هو من جنس الاستقسام بالأزلام [٤] ، فإنهم يطلبون علم الحوادث بما يفعلونه من هذا الاستقسام بها ، سواء كانت قداحا أو حصا أو غير ذلك مما ذكره أهل العلم بالتفسير .

فكل ما يحدثه الإنسان بحركة من تغيير شىء من الأجسام ليستخرج به علم ما يستقبله فهو من هذا الجنس ، بخلاف الفأل الشرعى ، وهو الذى كان يعجب النبى صلى الله عليه وسلم ، وهو أن يخرج متوكلا على الله ، فيسمع الكلمة الطيبة « وكان يعجبه الفأل ، ويكره الطيرة » لأن الفأل تقوية لما فعله بإذن الله والتوكل عليه ، والطيرة معارضة لذلك ، فيكره للإنسان أن يتطير ، وإنما تضر الطيرة من تطير ، لأنه أضر نفسه . فأما المتوكل على الله فلا .

وليس المقصود ذكر هذه الأمور وسبب إصابتها تارة وخطئها تارات . وإنما الغرض : أنهم يتعمدون فيها كذبا كثيرا من غير أن تكون قد دلت على ذلك

---

(١) مؤثرو الحياة الدنيا . (٢) راج وانتشر .

(٣) التى لا دخل للإنس والجن فى تحريكها وإحداثها . ولعل الأولى نسبتها إلى « الربانية » لأن الإلهية هى العبادة

(٤) طلب معرفة ما قسم الله وقدر بواسطة ضرب الأزلام ، وهى السهام والنبل وأشباهها مما يتخذه الدجاجلة اليوم من المسبحة وفتح المصحف وكتب خاصة بهذا الباطل .

دلالة ، كما يتعمد خلق كثير الكذب فى الرؤيا ، التى منها الرؤيا الصالحة وهى جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة ، وكما كانت الجن تخلط بالكلمة تسمعها من السماء[١] مائة كذبة ، ثم تلقيها إلى الكهان . ولهذا ثبت فى صحيح مسلم عن معاوية بن الحكم السُّلَمى قال : قلت « يا رسول الله ، إنى حديث عهد بجاهلية وقد جاء الله بالاسلام ، وإن منا رجالا يأتون الكهان ؟ قال : فلا تأتهم . قال : قلت : ومنا رجال يتطيرون ؟ قال : ذاك شيء يجدونه فى صدورهم ، فلا يصدهم . قال قلت : ومنا رجال يخطون ؟ قال : كان نبي من الأنبياء يخط ، فمن وافق خَطَّه فذاك » .

فإذا كان ما هو من أجزاء النبوة[٢] ومن أخبار الملائكة ما قد يتعمد فيه الكذب الكثير ، فكيف بما هو فى نفسه مضطرب لا يستقر على أصل ؟ فلهذا تجد عامة من فى دينه فساد يدخل فى الأكاذيب الكونية ، مثل أهل الاتحاد . فإن ابن عربى[٣] — فى كتاب « عنقاء مغرب » وغيره — أخبر بمستقبلات كثيرة ، عامتها كذب ، وكذلك ابن سبعين[٤] وكذلك الذين استخرجوا مدة بقاء هذه الأمة من حساب الجمل من حروف المعجم الذى ورثوه من اليهود ، ومن حركات الكواكب الذى ورثوه من الصابئة ، كما فعل أبو نصر الكندى[٥] وغيره من

---

(١) بسبب استراقها السمع . (٢) كالرؤيا الصالحة وأخبار الكهان التى يتلقونها من مسترقى السمع الشياطين خطفا عن الملائكة . (٣) محمد بن على الحاتمى الطائى صاحب الفتوحات المكية وفصوص الحكم وغيرها ، وهو أفصح داع إلى وحدة الوجود . مترجم فى الميزان للذهبى ولسانه لأبن حجر الحافظ وغيرها من الكتب . ولشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله وغيره من كبار علماء أهل السنة ردود على باطله . (٤) عبد الحق بن سبعين مترجم فى تاريخ مكة للفاسى . وهو من أركان الدعاة إلى وحدة الوجود وله أعمال نيرنجية وسحرية شعبذ بها على العامة .

(٥) الشهير بالفارابى .

الفلاسفة ، وكما فعل بعض من تكلم فى تفسير القرآن من أصحاب الرازى ، ومن تكلم فى تأويل وقائع النساك من المائلين إلى التشيع .

وقد رأيت من أتباع هؤلاء طوائف يدعون أن هذه الأمور من الأسرار المخزونة والعلوم المصونة ، وخاطبت فى ذلك طوائف منهم ، وكنت أحلف لهم أن هذا كذب مفترى ، وأنه لا يجرى من هذه الأمور شيء ، وطلبت مباهلة بعضهم لأن ذلك كان متعلقا بأصول الدين ، وكانوا من الاتحادية الذين يطول وصف دعاويهم .

وإن شيخهم [1] الذى هو عارف وقته وزاهده عندهم : كانوا يزعمون أنه هو المسيح الذى ينزل ، وإن معنى ذلك نزول روحانية عيسى عليه السلام عليه ، وإن أمه اسمها مريم ، وأنه يقوم بجمع الملل الثلاث ، وأنه يظهر مظهرا أكمل من مظهر محمد وغيره من المرسلين . ولهم مقالات من أعظم المنكرات يطول ذكرها ووصفها .

ثم إن من عجيب الأمر : أن هؤلاء المتكلمين المدعين لحقائق الأمور العلمية والدينية المخالفين للسنة والجماعة يحتج كل منهم بما يقع له من حديث موضوع أو مجمل لا يفهم معناه ، وكلما وجد أثرا فيه إجمال نزّله على رأيه ، فيحتج بعضهم بالمكذوب ، مثل المكذوب المنسوب إلى عمر « كنت كالزنجى [2] » ومثل مايروونه من سر المعراج [3] وما يروونه من أن أهل الصفة [4] سمعوا المناجاة من حيث لا يشعر الرسول . فلما نزل الرسول [5] أخبروه ، فقال : من أين سمعتم ؟ فقالوا : كنا نسمع الخطاب .

---

(١) كأنه يعنى نصر المنبجى معاصر شيخ الإسلام .

(٢) أى عندما يتكلم الرسول مع أبى بكر كما مر فى الحديث المكذوب ونبه الشيخ عليه هناك . (٣) تقدم أن ذلك من تأليف الفخر الرازى .

(٤) فقراء المهاجرين الذين كانوا ينزلون صفة فى مؤخر المسجد النبوى حتى يوسع الله عليهم بالرزق والمأوى ، فينتقلون عنها (٥) يعنون من السماء بعد المعراج .

حتى إنى لما بينت لطائفة تمشيخوا وصاروا قدوة للناس : أن هذا كذب ما خلقه الله قط . قلت : و يبين لك ذلك أن المعراج كان بمكة بنص القرآن و بإجماع المسلمين ، والصفة إنما كانت بالمدينة ،فمن أين كان بمكة أهل صُفة ؟

وكذلك احتجاجهم بأن أهل الصفة قاتلوا النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه مع المشركين لما انتصروا (١) وزعموا أنهم مع الله ، ليحتجوا بذلك على متابعة الواقع (٢) سواء كان طاعة لله أو معصية ، وليجعلوا حكم دينه هو ما كان (٣) ، كما قال الذين أشركوا (٦ : ١٤٨ لو شاء الله ما أشركنا ولا أباؤنا) وأمثال هذه الموضوعات كثيرة .

وأما المجملات : فمثل احتجاجهم بنهى بعض الصحابة عن ذكر بعض خفى العلم كقول على رضى الله عنه « حدثوا الناس بما يعرفون ، ودعوا ما ينكرون أتحبون أن يُكَذَّبَ الله ورسوله ؟ » وقول عبد الله بن مسعود « ما من رجل يحدث قوما بحديث لا تبلغه عقولهم إلا كان فتنة لبعضهم » وقول عبد الله بن عباس فى تفسير الآيات « ما يؤمنك أنى لو أخبرتك بتفسيرها كفرت ، وكفرك بها تكذيبك بها » .

وهذه الآثار حق ، لكن ينزل كل منهم (٤) ذاك الذى لم يُحَدَّث به (٥) على ما يدعيه هو من الأسرار والحقائق ، التى إذا كشفت وُجِدت من الباطل والكفر والنفاق ، حتى إن أبا حامد الغزالى « فى منهاج القاصدين » وغيره ، هو وأمثاله تمثل بما يروى عن على [زين العابدين] بن الحسين أنه قال :

يا رُبَّ جَوْهرِ علم لو أبوح به ... لقيل لى : أنت ممن يعبد الوثنا

(١) زعموا ذلك فى غزوة أحد . (٢) أى موافقة القدر الواقع ولو خالف الشرع . (٣) أى وقع وحصل ولو أنكره الدين والرسل . (٤) كل طائفة من الباطنية والقرامطة والمتفلسفة والمتكلمين . (٥) أى ما نهى الصحابة عن الحديث به .

ولا ستحل رجال مسلمون دمى يرون أقبح ما يأتونه حسنا

فإذا كانت هذه طرق هؤلاء الذين يدعون من التحقيق وعلوم الأسرار ماخرجوا به عن السنة والجماعة ، وزعموا أن تلك العلوم الدينية أو الكونية مختصة بهم فآمنوا بمجملها ومتشابهها وأنهم منحوا من حقائق العبادات وخالص الديانات مالم يُمْنح الصدرُ الأول حُفَّاظُ الإسلام و بدور الملة ، ولم يتجرؤوا عليها (١) برد وتكذيب ، مع ظهور الباطل فيها تارة (٢) وخفائه أخرى ـ فمن المعلوم أن العقل والدين يقتضيان أن جانب النبوة والرسالة أحق بكل تحقيق وعلم ومعرفة و إحاطة بأسرار الأمور و بواطنها . هذا لا ينازع فيه مؤمن . ونحن الآن فى مخاطبة من فى قلبه إيمان .

و إذا كان الأمر كذلك فأعلمُ النـاس بذلك : أخصهم بالرسول وأعلمهم بأقواله وأفعاله وحركاته وسكناته ، ومَدْخله ومخرجه و باطنه وظاهره ، وأعلمهم بأصحابه وسيرته وأيامه ، وأعظمهم بحثا عن ذلك وعن نقلته ، وأعظمهم تدينا به واتباعا له واقتداء به . وهؤلاء هم أهل السنة والحديث ، حفظا له ومعرفة بصحيحه وسقيمه ، وفقها فيه وفهما يؤتيه الله إياه فى معانيه ، و إيمـانا وتصديقا ، وطاعة وانقيادا واقتداء واتباعا ، مع ما يقترن بذلك من قوة عقلهم وقياسهم وتمييزهم ، وعظيم مكاشفاتهم ومخاطباتهم . فإنهم أشد الناس نظرا وقياسـا ورأيا ، وأصدق الناس رؤيا وكشفا . أفلا يعلم من له أدنى عقل ودين : أن هؤلاء أحق بالصدق والعلم والإيمان والتحقيق ممن يخالفهم ، وأن عندهم من العلوم ما ينكرها الجـاهل والمبتدع ، وأن الذى عندهم هو الحق المبين ، وأن الجاهل بأمرهم والمخـالف لهم هو الذى معه من الحشو ما معه ومن الضلال كذلك . وهذا باب يطول شرحه .

---

(١) أى لم يتجرأ الخارجون على السنة على رد ما جاء فيها أو تـكذيبه .

(٢) على زعم الخارجين عليها .

فإن النفوس لها من الأقوال والأفعال مالا يحصره إلا ذو الجلال . والأقوال إخبارات و إنشاءات كالأمر والنهى[1]

فأحسن الحديث وأصدقه كتاب الله : خبره أصدق الخبر و بيانه أوضح البيان وأمره أحكم الأمر (٤٥ : ٦ فبأى حديث بعد الله وآياته يؤمنون) وكل من اتبع كلاما أو حديثا ـ مما يقال : إنه يُلْهَمُه صاحبه ، ويُوحَى إليه ، أو أنه ينشئه ويحدثه مما يعارض به القرآن ـ فهو من أعظم الظالمين ظلما . ولهذا لما ذكر الله سبحانه قول الذين ماقدروا الله حق قدره ، حيث أنكروا الإنزال على البشر[2] ذكر المتشبهين[3] به المدعين لمماثلته من الأقسام الثلاثة ، فإن المماثل له : إما أن يقول : إن الله أوحَى إلى ، أو يقول : أُوحىَ إلى ، وأُلقِى إلى ، وقيل لى ، ولا يسمى القائل ، أو يضيف ذلك إلى نفسه ، ويذكر أنه هو المنشىء له .

ووجه الحصر : أنه إما أن يحذف الفاعل أو يذكره ، و إذا ذكره . فإما أن يجعله من قول الله ، أو من قول نفسه . فإنه إذا جعله من كلام الشياطين لم يقبل منه ، وما جعله من كلام الملائكة فهو داخل فيما يضيفه إلى الله ، وفيما حذف فاعله ، فقال تعالى (٦:٩٣ ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا ، أو قال أوحي إلى ولم يوحَ إليه شىء ، ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله) .

وتدبر كيف جعل الأولين فى حيز الذى جعله وحيا من الله ولم يسم الموحي ، فإنهما من جنس واحد فى ادعاء جنس الإنباء ، وجعل الآخر فى حيز الذى ادعى أن يأتى بمثله ، ولهذا قال (ممن افترى على الله كذبا) ثم قال : (ومن قال

---

(١) مثالان للإنشاء . (٢) فى قوله تعالى (٦:٩١ وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ماأنزل الله على بشر من شىء . قل من أنزل التوراة التى جاء بها موسى نورا وهدى للناس ، تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيراً وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم ؟ قل الله ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون)

(٣) أى المتشبهين بالرسول أو بالوحى المنزل عليه .

سأنزل مثل ما أنزل الله) فالمفترى للكذب والقائل : أوحى إلى ولم يوحَ إليه شيء : من جملة الاسم الأول ، وقد قرن به الاسم الآخر ، فهؤلاء الثلاثة المدعون لشبه النبوة . وقد تقدم قبلهم المكذب للنبوة . فهذا يعم جميع أصول الكفر التى هي تكذيب الرسل أو مضاهاتهم ، كمسيلمة الكذاب وأمثاله .

وهذه هى أصول البدع التى نردها نحن فى هذا المقام ، لأن المخالف للسنة يرد بعض ماجاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ، أو يعارض قول الرسول بما يجعله نظيراً له من رأى أو كشف أو نحو ذلك .

فقد تبين أن الذين يسمون هؤلاء (١) وأئمتهم حشوية هم أحق بكل وصف مذموم يذكرونه ، وأئمة هؤلاء أحق بكل علم نافع وتحقيق ، وكشف حقائق واختصاص بعلوم لم يقف عليها هؤلاء الجهال ، المنكرون عليهم ، المكذبون لله ورسوله .

فإن [نبزهم با] لحشوية : إن كان لأنهم يروون الأحاديث بلا تمييز ـ فالمخالفون لهم أعظم الناس قولا لحشو الآراء والكلام الذى لا تعرف صحته ، بل يعلم بطلانه ، و إن كان : لأن فيهم عامة لا يميزون ـ فما من فرقة من تلك الفرق إلا ومن أتباعها من أجهل الخلق وأكفرهم ، وعوام هؤلاء هم عمار المساجد بالصلوات وأهل الذكر والدعوات ، وحجاج البيت العتيق ، والمجاهدون فى سبيل الله ، وأهل الصدق والأمانة وكل خير فى العالم ، فقد تبين لك أنهم (٢) أحق بوجوه الذم ، وأن هؤلاء أبعد عنها ، وأن الواجب على الخلق أن يرجعوا إليهم فيما اختصهم الله به من الوراثة النبوية التى لا توجد إلا عندهم .

وأيضا فينبغى النظر فى الموسومين بهذا الاسم (٣) وفى الواسمين لهم به : أيهما

---

(١) المتبعين للرسول ودينه وسنته . (٢) أى مخالفى السنة .

(٣) أى الحشوية .

أحق ؟ وقد علم أن هذا الاسم مما اشتهر عن النفاة ممن هم مظنة الزندقة ، كما ذكر العلماء ، كأبي حاتم[١] وغيره : أن علامة الزنادقة تسميتهم لأهل الحديث حَشْوية .

ونحن نتكلم بالأسماء التي لانزاع فيها ، مثل لفظ «الاثبات ، والنفي» فنقول :

من المعلوم : أن هذا من تلقيب بعض الناس لأهل الحديث الذين يقرونه على ظاهره . فكل من كان عنه أبعد كان أعظم ذما بذلك ، كالقرامطة ، ثم الفلاسفة ، ثم المعتزلة ، وهم يذمون بذلك المتكلمة الصفاتية[٢] من الكلابية[٣] والكرامية[٤] والأشعرية والفقهاء والصوفية وغيرهم . فكل من اتبع النصوص وأقرها سموه بذلك ، ومن قال بالصفات العقلية[٥] مثل العلم والقدرة دون الخبرية[٦] ونحو ذلك سمى مثبتة الصفات الخبرية حَشْوية ، كما يفعل أبو المعالى الجوينى وأبو حامد الغزالى ونحوهما .

ولطريقة أبي المعالى كان أبو محمد[٧] يتبعه فى فقهه وكلامه لكن أبو محمد كان أعلم بالحديث وأتبع له من أبى المعالى و بمذاهب الفقهاء ، وأبو المعالى أكثر

---

(١) أبو حاتم الرازى محمد بن إدريس من أصحاب أحمد بن حنبل ومن أقران البخارى ، وابنه عبد الرحمن صاحب التفسير المشهور باسمه وصاحب الجرح والتعديل وعلل الحديث .

(٢) المؤمنين بما جاء فى صفات الله فى القرآن والحديث على مايليق بالله .

(٣) أتباع عبد الله بن سعيد بن كلاب تقدم ذكره له ترجمة فى لسان الميزان .

(٤) أتباع محمد بن كرام مترجم فى ميزان الاعتدال للذهبي ولسانه لابن حجر الحافظ .

(٥) أى التى يعرف ثبوتها الله بالعقل .

(٦) التى لا تعرف إلا من طريق الخبر والوحى كالاستواء والنزول إلى سماء الدنيا .

(٧) أبو محمد كنت أظنه ابن عقيل ، ولكن ترجح عندى أنه يريد عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام الملقب بسلطان العلماء صاحب كتاب القواعد وغيره تقدم ذكر وفاته .

اتباعا للـكلام ، وهما فى العربية متقاربان .

وهؤلاء [1] يعيبون منازعهم إما لجمعه حشو الحـديث من غير تمييز بين صحيحه وضعيفه ، أو لـكون اتباع الحديث فى مسائل الأصول من مذهب الحشو لأنها مسائل علمية ، والحديث لا يفيد ذلك [2] لأن اتبـاع النصوص مطلقا فى المباحث الأصولية الـكلامية حشو ، لأن النصوص لاتفى بذلك . فالأمر راجع إلى أحد أمرين : إما ريب فى الاسناد [3] أو فى المتن : إما لأنهم يضيفون إلى الرسول مالم يُعلم أنه قاله كأخبار الآحاد [4] ويجعلون مقتضاها العلم [5] وإما لأنهم يجعلون ما فهموه من اللفظ معلوما وليس هو بمعلوم ، لما فى الأدلة اللفظية من الاحتمال .

ولا ريب أن هذا عمدة كل زنديق ومنافق يبطل العلم بما بعث الله به رسوله ، تارة يقول : لا نعلم أنهم قالوا ذلك ، وتارة يقول : لا نعلم ما أرادوا بهذا القول ، ومتى انتفى العلم بقولهم أو بمعنـاه : لم يستفد من جهتهم علم ، فيتمكن بعد ذلك أن يقول ما يقول من المقالات ، وقد أمن على نفسه أن يعارَض بآثار الأنبياء . لأنه قد وكل ثغرها بذينك الداحيين [6] الدافعين لجنود الرسول عنه ، الطاعنين لمن احتج بها .

وهذا القـدر بعينه هو عين الطعن فى نفس النبوة وإن كان يقر بتعظيمهم وكمالهم [7] إقرار من لا يتلقى من جهتهم علما ، فيكون الرسول عنده بمنزلة خليفة

---

(١) أبو المعالى وأبو محمد بن عبد السلام وأبو حامد الغزالى وأحزابهم .

(٢) يعنى عندهم وبزعمهم . (٣) سند الحديث واسناده: رجاله الذين رووه، ومتنه كلام النبي صلى الله عليه وسلم أو كلام الصحابي الذى فيه الحجة وبه الاستدلال

(٤) أخبار الآحاد ما ليست متواترة وتنقسم اصطلاحا إلى غريب وعزيز ومشهور .

(٥) يعنى أن أهل السنة يقولون : إن أخبار الآحاد وتفيد العلم واليقين .

(٦) كذا ولعله محرف عن الرحيين أو كلمة نحوها .

(٧) أى الأنبياء .

يعطى السكة والخطبة رسما ولفظا كتابة وقولا ، من غير أن يكون له أمر أو نهى مطاع . فله صورة الإمامة بما جعل له من السكة والخطبة [١] وليس له حقيقتها ، وهذا القدر — وإن استجازه كثير من الملوك لعجز بعض الخلفاء عن القيام بواجبات الإمارة من الجهاد والسياسة ، كما يفعل ذلك كثير من نواب الولاة لضعف مستنيبيه وعجزه [٢] فيتركب من تقدم ذى المنصب والبيت وقوة نائبه صلاح الأمر ، أو فعل ذلك هوى ورغبة فى الرئاسة ولطائفته ، دون من هو أحق بذلك منه وسلك مسلك المتغلبين بالعدوان — فمن المعلوم أن المؤمن بالله ورسوله ، لا يستجيز أن يقول فى الرسالة : إنها عاجزة عن تحقيق العلم و بيانه ، حتى يكون الإقرار بها مع تحقيق العلم الإلهى من غيرها موجبا لصلاح الدين ، ولا يستجيز أن يتعدى عليها بالتقدم بين يدى الله ورسوله ، و يقدم علمه وقوله على علم الرسول وقوله ، ولا يستجيز أن يسلط عليها التأويلات العقلية ، و يدعى أن ذلك من كمال الدين ، وأن الدين لا يكون كاملا إلا بذلك .

وأحسن أحواله : أن يدعى أن الرسول [كان] عالما بأن ما أخبر به له تأويلات وتبيانا غير ما يدل عليه ظاهر قوله ومفهومه ، وأنه ما ترك ذلك إلا لأنه ما كان يمكنه البيان بين أولئك الأعراب ونحوهم ، وأنه [٣] وكل ذلك إلى عقول المتأخرين وهذا هو الواقع منهم .

فإن المتفلسفة تقول : إن الرسل لم يتمكنوا من بيان الحقائق لأن إظهارها يفسد الناس ، ولا تحتمل عقولهم ذلك ، ثم قد يقولون : إنهم عرفوها ، وقد يقول بعضهم : لم يعرفوها ، أو أنا أعرف بها منهم ، ثم يبينونها هم بالطرق

---

(١) أى تضرب النقود باسمه ويخطب له على المنابر دعاء ومدحا .

(٢) كان ذلك فى آخر عهد بنى العباس عند ما ضعف خلفاؤهم وانتزع السلطة منهم وزراؤهم ونوابهم من بنى بويه والسلاجقة . وفى خلفاء بنى العباس فى مصر بعد زوال الخلافة من بغداد .

(٣) وإنما يفعل ذلك من فى قلبه مرض ونفاق كذا بهامش الأصل .

القياسية الموجودة عندهم . ولم يعقلوا أنه إن كان العلم بها ممكنا فهو ممكن لهم (١) كما يدعون أنه ممكن لهم (٢) وإلا فلا سبيل لهم إلى معرفتها بإقرارهم . وكذلك التعبير وبيان العلم بالخطاب والكتاب إن لم يكن ممكنا (٣) فلا يمكنكم ذلك ، وأنتم تتكلمون وتكتبون علمكم فى الكتب . وإن كان ذلك ممكنا فلا يصح قولكم « لم يمكن الرسل ذلك » .

وإن قلتم : يمكن الخطاب بها مع خاصة الناس دون عامتهم ـ وهذا قولهم ـ فمن المعلوم : أن علم الرسل يكون عند خاصتهم كما يكون علمكم عند خاصتكم . ومن المعلوم : أن كل من كان بكلام المتبوع وأحواله وبواطن أموره وظواهرها أعلم وهو بذلك أقوم : كان أحق بالاختصاص به . ولا ريب أن أهل الحديث : أعلم الأمة وأخصها بعلم الرسول وعلم خاصته ، مثل الخلفاء الراشدين وسائر العشرة (٤) ومثل : أبى بن كعب ، وعبد الله بن مسعود ، ومعاذ بن جبل ، وعبد الله بن سلام وسلمان الفارسى ، وأبى الدرداء ، وعبادة بن الصامت ، وأبى ذر الغفارى ، وعمار ابن ياسر ، وحذيفة بن اليمان . ومثل سعد بن معاذ ، وأسيد بن حضير ، وسعد بن عبادة ، وعباد بن بشر ، وسالم مولى أبي حذيفة ، وغير هؤلاء ممن كان أخص الناس بالرسول وأعلمهم بباطن أموره وأتبعهم لذلك ، فعلماء الحديث أعلم الناس بهؤلاء وببواطن أمورهم وأتبعهم لذلك . فيكون عندهم العلم ، علم خاصة الرسول وبطانته ، كما أن خواص الفلاسفة يعلمون علم أئمتهم ، وخواص المتكلمين يعلمون

(١) للأنبياء

(٢) للمتفلسفة .

(٣) يعنى للأنبياء .

(٤) المبشرين بالجنة أنصارهم بعد الخلفاء الراشدين الأربعة : عبد الرحمن ابن عوف ، وسعد بن أبي وقاص ، وطلحة بن عبيد الله ، والزبير بن العوام وسعيد ابن زيد بن عمرو بن نفيل .

علم أئمتهم ، وخواص القرامطة [١] والبـاطنية [٢] يعلمون علم أئمتهم ، وكذلك أئمة الإسلام مثل أئمة العلماء ، فإن خاصة كل إمام أعلم بباطن أموره مثل مالك ابن أنس ، فإن ابن القاسم لمـا كان أخص الناس به وأعلمهم بباطن أمره اعتمد أتباعه على روايته ، حتى إنه تؤخذ عنه مسائل السر [٣] التي رواها ابن أبي الغمر ، وإن طعن بعض الناس فيها ، وكذلك أبو حنيفة ، فأبو يوسف ومحمد وزفر أعلم الناس به ، وكذلك غيرهما .

وقد يكتب العالم كتابا أو يقول قولا فيكون بعض من لم يشافهه به أعلم بمقصوده من بعض من شافهه به ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم « فرب مبلغ أوعى من سامع » لـكن بكل حال لابد أن يكون المبلغ من الخاصة العالمين بحال المبلغ عنه ، كما يكون في أتباع الأئمة من هو أفهم لنصوصهم من بعض أصحابهم .

ومن المستقر في أذهان المسلمين : أن ورثة الرسل وخلفاء الأنبياء هم الذين قاموا بالدين علما وعملا ودعوة إلى الله والرسول ، فهؤلاء أتباع الرسول حقا ، وهم بمنزلة

---

(١) جماعة من الفوضويين خرجوا على الإسلام وخلفائه تحت زعامة أبي سعيد الجنابي القرمطي وذلك في عهد الخليفة المعتضد في سنة ٢٨٦ هـ وما بعدها ومات الجنابي سنة ٣٠١ هـ ثم بزعامة الحسن بن الصباح . وقد عظم شرهم سنة ٤٩٤ هـ ص ١٥٩ ج ١٢ بداية .

(٢) الباطنية جماعة تزعم أن جميع أمور الدين من عبادات وغيرها له باطن غير ظاهره يعلمه إمامهم ، وتتشعب شعبا نصيرية ودروز واسماعلية ، وعلى أساسها قامت الصوفية الباطنية .

(٣) التي لا يحسن نشرها بين الناس علنا . وقد عقد ابن كثير في البداية والنهاية فصلا في مخازيهم ومجمل دعوتهم وتنوع أسمائهم نقلا عن ابن الجوزي وعن الباقي ص ٦١ ، ٦٢ ج ١١ فراجعه .

الطائفة الطيبة من الأرض[١] التى زكت ، فقبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير ، فزكت فى نفسها وزكى الناس بها . وهؤلاء هم الذين جمعوا بين البصيرة فى الدين والقوة على الدعوة ، ولذلك كانوا ورثة الأنبياء الذين قال الله تعالى فيهم (٣٨ : ٤٥ واذكر عبادنا إبراهيم و إسحق و يعقوب أولى الأيدى والأبصار) فالأيدى القوة فى أمر الله ، والأبصار البصائر فى دين الله ، فبالبصائر يدرك الحق ويعرف ، و بالقوة يتمكن من تبليغه وتنفيذه والدعوة إليه .

فهذه الطبقة كان لها قوة الحفظ والفهم والفقه فى الدين والبصر والتأويل ، ففجرت من النصوص أنهار العلوم ، واستنبطت منها كنوزها ، ورزقت فيها فهما خاصا ، كما قال أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه ، وقد سئل « هل خصكم رسول الله صلى الله عليه وسلم بشىء دون الناس ؟ فقال : لا ، والذى فلق الحبة و برأ النسمة ، إلا فهما يؤتيه الله عبدا فى كتابه » فهذا الفهم هو بمنزلة الكلأ والعشب الذى أنبتته الأرض الطيبة . وهو الذى تميزت به هذه الطبقة عن الطبقة الثانية ، وهى التى حفظت النصوص ، فكان همها حفظها وضبطها ، فوردها الناس وتلقوها بالقبول ، واستنبطوا منها واستخرجوا كنوزها واتجروا فيها ، و بذروها فى أرض قابلة للزرع والنبات ، ورووها كُلٌّ بحسبه . (٢ : ٦٠ و ٧ : ١٦٠ قد علم كل أناس مشربهم)

---

(١) يشير إلى الحديث الصحيح . عن أبي موسى رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضا ، فكان منها طائفة طيبة قبلت الماء وأنبتت الكلاء والعشب الكثير وكان منها أجادب أمسكت الماء ، فنفع الله بها الناس فشربوا منها وسقوا وزرعوا وأصاب طائفة أخرى منها إنما هى قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ فذلك مثل من فقه فى دين الله تعالى ونفعه ما بعثنى الله به فعلم وعمل ومثل من لم يرفع بذلك رأسا، ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به » رواه البخارى ومسلم.

وهؤلاء الذين قال فيهم النبى صلى الله عليه وسلم « نضر الله امرأ سمع مقالتى فوعاها ، ثم أداها كما سمعها ، فرب حامل فقه وليس بفقيه ، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه » .

وهذا عبد الله بن عباس رضى الله عنهما حبر الأمة وترجمان القرآن : مقدار ما سمعه من النبى صلى الله عليه وسلم لا يبلغ نحو العشرين حديثاً الذى يقول فيه «سمعت ورأيت » وسمع الكثيرَ من الصحابة ، و بورك له فى فهمه والاستنباط منه حتى ملأ الدنيا علما وفقها ، قال أبو محمد بن حزم : وجمعت فتواه فى سبعة أسفار كبار [١] وهى بحسب ما بلغ جامعها، و إلا فعلم ابن عباس كالبحر وفقهه واستنباطه وفهمه فى القرآن بالموضع الذى فاق به الناس ، وقد سمعوا ما سمع وحفظوا القرآن كما حفظه ،ولكن أرضه [٢] كانت من أطيب الأراضى وأقبلها للزرع ، فبذر فيها النصوص ، فأنبتت من كل زوج كريم ، و (٦٢ : ٤ ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم) .

وأين تقع فتاوى ابن عباس وتفسيره واستنباطه ، من فتاوى أبى هريرة وتفسيره ؟ [٣] وأبو هريرة أحفظ منه ، بل هو حافظ الأمة على الإطلاق يؤدى الحديث كما سمعه و يدرسه بالليل درساً ، فكانت همته مصروفة إلى الحفظ وتبليغ ماحفظه كما سمعه ، وهمة ابن عباس : مصروفة إلى التفقه والاستنباط وتفجير النصوص ، وشق الأنهار منها واستخراج كنوزها .

---

(١) كذا هنا . والذى في إحكام الأحكام لأبى محمد بن حزم ج ٥ ص ٩٢ ونقله عنه الحافظ ابن القيم فى أعلام الموقعين ج ١ ص ١٣ لما ذكر المكثرين من الصحابة قال : « فهم سبعة يمكن أن يجمع من فتيا كل واحد منهم سفر ضخم . وقد جمع أبو بكر محمد بن موسى بن يعقوب — بن أمير المؤمنين المأمون — فتيا عبد الله بن عباس فى عشرين كتابا ، وأبو بكر المذكور أحد أئمة الإسلام فى العلم الحديث » اهـ وكتبه سليمان الصنيع

(٢) يعنى فطرته ومواهبه .

(٣) فى العبارة قلب فإن المفضل هو فتاوى ابن عباس على فتاوي أبى هريرة .

وهكذا ورثتهم من بعدهم : اعتمدوا فى دينهم على استنباط النصوص ، لا على خيال فلسفى ، ولارأى قياسى ، ولا غير ذلك من الآراء المبتدعات . لاجرم كانت الدائرة والثناء الصدق ، والجزاء العاجل والآجل : لورثة الأنبياء التابعين لهم فى الدنيا والآخرة . فإن المرء على دين خليله (٣ : ٣١ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله) وبكل حال : فهم أعلم الأمة بحـديث الرسول ، وسيرته ومقاصده وأحواله .

ونحن لا نعنى بأهل الحديث المقتصرين على سماعه ، أو كتابته أو روايته ، بل نعني بهم : كل من كان أحق بحفظه ومعرفته وفهمه ظاهراً وباطناً ، واتباعه باطناً وظاهراً ، وكذلك أهل القرآن .

وأدنى خصلة فى هؤلاء : محبة القرآن والحديث ، والبحث عنهما وعن معانيهما والعمل بما علموه من موجبهما . ففقهاء الحديث أخبر بالرسول من فقهـاء غيرهم ، وصوفيتهم أتبع للرسول من صوفية غيرهم [1]، وأمراؤهم أحق بالسياسية النبوية من غيرهم ، وعامتهم أحق بموالاة الرسول من غيرهم .

ومن المعلوم : أن المعظمين للفلسفة والـكلام المعتقدين لمضمونهما هم أبعد عن معرفة الحديث ، وأبعد عن اتبـاعه من هؤلاء . هذا أمر محسوس ، بل إذا كشفتَ أحوالهم وجدتهم من أجهل الناس بأقواله صلى الله عليه وسـلم وأحواله وبواطن أموره وظواهرها ، حتى لتجد كثيراً من العامة أعلم بذلك منهم ، ولتجدهم لا يميزون بين ما قاله الرسول وما لم يقله ، بل قد لا يفرقون بين حديث متواتر عنه ، وحديث مكذوب موضوع عليه ، وإنما يعتمدون فى موافقته على ما يوافق قولهم

(٢) الصوفية : هندية فارسية يونانية ، ورسالة الرسول صلى الله عليه وسلم دين الحق والهدى من عند الله ، قد أكملها الله وأتمها ، وجعلها هدى وشفاء ورحمة . فإدخال الصوفية عليها بدعة محدثة لم يكن عليها أمر رسول الله ولا أصحابه ، فهى رد . و « خير الهدى هدى محمد صلى الله عليه وسلم ، وشر الأمور محدثاتها »

سواء كان موضوعاً أو غير موضوع ، فيعدلون إلى أحاديث يعلم خاصة الرسول بالضرورة اليقينية أنها مكذوبة عليه عن أحاديث ، يعلم خاصته بالضرورة اليقينية أنها قوله ، وهم لا يعلمون مراده ، بل غالب هؤلاء لا يعلمون معانى القرآن ، فضلا عن الحديث ، بل كثير منهم لا يحفظون القرآن أصلا . فمن لا يحفظ القرآن ، ولا يعرف معانيه ، ولا يعرف الحديث ولا معانيه من أين يكون عارفا بالحقائق المأخوذة عن الرسول ؟!

وإذا تدبر العاقل وجد الطوائف كلها كلما كانت الطائفة إلى الله ورسوله أقرب كانت بالقرآن والحديث أعرف وأعظم عناية ، وإذا كانت عن الله وعن رسوله أبعد كانت عنهما أنأى ، حتى تجد فى أئمة علماء هؤلاء من لا يميز بين القرآن وغيره ، بل ربما ذكرت عنده آية ، فقال : لا نسلم صحة الحديث ، وربما قال : لقوله عليه السلام كذا ، وتكون آية من كتاب الله . وقد بلغنا من ذلك عجائب ، وما لم يبلغنا أكثر .

وحدثنى : ثقة أنه تولى مدرسة مشهد الحسين بمصر بعض أئمة المتكلمين رجل يسمى شمس الدين الأصبهانى شيخ الايكي ، فأعطوه جزءاً من الربعة فقرأ : بسم الله الرحمن الرحيم ألمصْ ، حتى قيل له : ألف لام ميم صاد .

فتأمل هذه الحكومة العادلة (١) ليتبين لك أن الذين يعيبون أهل الحديث ويعدلون عن مذهبهم جهلة زنادقة منافقون بلا ريب . ولهذا لما بلغ الإمام أحمد عن ابن أبي قتيلة أنه ذكر عنده أهل الحديث بمكة ، فقال : قوم سوء ، فقام (٢) الإمام أحمد ـ وهو ينفض ثوبه ، ويقول : زنديق زنديق زنديق . ودخل بيته . فإنه عرف مغزاه .

---

(١) لعل الصواب « الحكاية الغريبة »

(٢) كانت بالأصل « فقال » وصححت من مختصر طبقات الحنابلة لابن أبي يعلى ص ١٧ و ص ٢٠٤ ومناقب الإمام أحمد لابن الجوزى . وكتبه سليمان الصنيع .

وعيب المنافقين للعلماء بما جاء به الرسول قديم من زمن المنافقين الذين كانوا على عهد النبي صلى الله عليه وسلم .

وأما أهل العلم ، فكانوا يقولون : هم الأبدال ، لأنهم أبدال الأنبياء وقائمون مقامهم حقيقة ، ليسوا من المعدمين الذين لايعرف لهم حقيقة (١) كل منهم يقوم مقام الأنبياء فى القدر الذى ناب عنهم فيه : هذا فى العلم والمقال ، وهذا فى العبادة والحال (٢) ، وهذا فى الأمرين جميعا ، وكانوا يقولون : هم الطائفة المنصورة إلى قيام الساعة ، الظاهرون على الحق . لأن الهدى ودين الحق الذى بعث الله به رسله معهم . وهو الذى وعد الله بظهوره على الدين كله ، وكفى بالله شهيداً .

فصل

وتلخيص النكتة : أن الرسل إما أنهم علموا الحقائق الخبرية والطلبية ، أو لم يعلموها ، و إذا علموها : فإما أنه كان يمكنهم بيانها بالكلام والكتاب ، أولا يمكنهم ذلك ، و إذا أمكنهم ذلك البيان : فإما أن يمكن للعامة وللخاصة أو للخاصة فقط .

فإن قال : إنهم لم يعلموها ، وأن الفلاسفة والمتكلين أعلم بها منهم ، وأحسن بياناً لها منهم ، فلا ريب أن هذا قول الزنادقة المنافقين . وسنتكلم معهم بعد هذا ، إذ الخطاب هنا لبيان أن هذا قول الزنادقة، وأنه لايقوله إلا منافق أو جاهل

و إن قال : إن الرسل مقصدهم صلاح عموم الخلق ، وعموم الخلق لا يمكنهم فهم هذه الحقائق الباطنة، فخاطَبوهم بضرب الأمثال لينتفعوا بذلك ، وأظهروا الحقائق العقلية فى القوالب الحسية ، فتضمن خطابهم عن الله وعن اليوم الآخر ، من التخييل والتمثيل المعقول بصورة المحسوس ما ينتفع به عموم الناس فى أمر

---

(١) كما يزعم الصوفية : أنهم مغيبون عن الأبصار ، ويسمونهم رجال الغيب وأهل الديوان وغير ذلك من الترهات المفسدة للعقول والأديان . (٢) العبادة والحال لايكون على هدى المرسلين إلا بالنية الخالصة وابتغاء وجه الله وبمعرفة رسالتهم واتباعها

الإيمان بالله و بالمعاد . وذلك يقرر فى النفوس من عظمة الله وعظمة اليوم الآخر ما يَحُض النفوس على عبادة الله وعلى الرجاء والخوف ، فينتفعون بذلك، و ينالون السعادة بحسب إمكانهم واستعدادهم ، إذ هذا الذى فعلته الرسل : هو غاية الإمكان فى كشف الحقائق لعموم النوع البشرى ، ومقصود الرسل : حفظ النوع البشرى و إقامة مصلحة معاشه ومعاده .

فمعلوم : أن هذا قول حذاق الفلاسفة ، مثل الفارابى وابن سينا وغيرهما ، وهو قول كل حاذق وفاضل من المتكلمين فى القدر الذى يخالف فيه أهل الحديث .

فالفارابى يقول « إن خاصة النبوة جودة تخييل الأمور المعقولة فى الصور المحسوسة » أو نحو هذه العبارة .

وابن سينا يذكر هذا المعنى فى مواضع ، و يقول « ما كان يمكن موسى بن عمران مع أولئك العبرانيين ، ولا يمكن محمدا مع أولئك العرب الجفاة ، أن يبينا لهم الحقائق على ما هي عليه ، فإنهم كانوا يعجزون عن فهم ذلك ، و إن فهموه على ماهو عليه انحلت عزماتهم عن اتباعه ، لأنهم لا يرون فيه من العلم ما يقتضى العمل » .

وهذا المعنى يوجد فى كلام أبى حامد الغزالى وأمثاله ومن بعده ، طائفة منه فى الإحياء وغير الإحياء ، وكذلك فى كلام الرازى .

وأما الاتحادية ونحوهم من المتكلمين : فعليه مدارهم ، وهومبنى كلام الباطنية والقرامطة عليه ، لكن هؤلاء [1] ينكرون ظواهر الأمور العملية والعلمية جميعا وأما غيرهؤلاء فلا ينكرون العمليات الظاهرة المتواترة ، لكن قد يجعلونها لعموم الناس لا لخصوصهم ، كما يقولون مثل ذلك فى الأمور الخبرية .

(١) الباطنية والقرامطة : جماعة من الزنادقة المفسدين قاموا فى أزمنة مختلفة بثورات فوضوية وأمور فاسدة . وقد أشار ابن كثير إلى شىء من مخازيهم فى تاريخه البداية والنهاية فى مواضع متعددة منها ص ٦١ ، ٦٢ ج ١١.

ومدار كلامهم : على أن الرسالة متضمنة لمصلحة العموم علما وعملا . وأما الخاصة فلا . وعلى هذا يدور كلام أصحاب رسائل إخوان الصفا وسائر فضلاء المتفلسفة .

ثم منهم من يوجب اتباع الأمور العملية من الأمور الشرعية ، وهؤلاء كثيرون فى متفقهتهم ومتصوفتهم وعقلاء فلاسفتهم . وإلى هنا كان ينتهى علم ابن سينا ، إذ تاب والتزم القيام بالواجبات الناموسية . فإن قدماء الفلاسفة كانوا يوجبون اتباع النواميس التى وضعها أكابر حكماء البلاد ، فَلأَنْ يوجبوا اتباع نواميس الرسل أولى . فإنهم — كما قال ابن سينا : — « اتفق فلاسفة العالم على أنه لم يقرع العالم ناموس أفضل من هذا الناموس المحمدى » وكل عقلاء الفلاسفة متفقون على أنه أكمل وأفضل النوع البشرى ، وأن جنس الرسل أفضل من جنس الفلاسفة المشاهير ، ثم قد يزعمون أن الرسل والأنبياء حكماء كبار ، وأن الفلاسفة الحكماء أنبياء صغار ، وقد يجعلونهم صنفين . وليس هذا موضع شرح ذلك . فقد تكلمنا عليه فى غير هذا الموضع .

وإنما الغرض : أن هؤلاء الأساطين من الفلاسفة والمتكلمين غاية ما يقولون : هذا القول ، ونحن ذكرنا الأمر على وجه التقسيم العقلى الحاصر ، لئلا يخرج عنه قسم ، ليتبين أن المخالف لعلماء الحديث علما وعملا : إما جاهل وإما منافق ، والمنافق جاهل وزيادة ، كما سنبينه إن شاء الله . والجاهل هنا فيه شعبة نفاق ، وإن كان لا يعلم بها فالمنكر لذلك جاهل منافق .

فقلنا : إن من زعم أنه وكبار طائفته أعلم من الرسل بالحقائق ، وأحسن بيانا لها : فهذا زنديق منافق إذا أظهر الإيمان بهم باتفاق المؤمنين . وسيجىء الكلام معه .

وإن قال : إن الرسل كانوا أعظم علما وبيانا ، لكن هذه الحقائق لا يمكن علمها ، أو لا يمكن بيانها مطلقا ، أو يمكن الأمرين للخاصة .

قلنا : فحينئذ لا يمكنكم أنتم ما عجزت عنه الرسل من العلم والبيان .

إن قلتم : لا يمكن علمها .

قلنا : فأنتم وأكابركم لا يمكنكم علمها بطريق الأولى .

وإن قلتم : لا يمكنهم بيانها .

قلنا : فأنتم وأكابركم لا يمكنكم بيانها .

وإن قلتم : يمكن ذلك للخاصة دون العامة .

قلنا : فيمكن ذلك للخاصة من الرسل (١) دون عامتهم .

فإن ادعوا أنه لم يكن فى خاصة أصحاب الرسل من يمكنهم فهم ذلك جعلوا السابقين الأولين دون المتأخرين فى العلم والإيمان . وهذا من مقالات الزنادقة . لأنه قد جعل بعض الأمم الأوائل من اليونان والهند ونحوهم أكمل عقلا وتحقيقا للأمور الإلهية والعادية (٢) من هذه الأمة . فهذا من مقالات المنافقين الزنادقة . إذ المسلمون متفقون على أن هذه الأمة خير الأمم وأكملهم ، وأن أكمل هذه الأمة وأفضلها هم سابقوها .

وإذا سلم ذلك فأعلم الناس بالسابقين وأتبعهم لهم : هم أهل الحديث وأهل السنة . ولهذا قال الإمام أحمد فى رسالة عبدوس بن مالك « أصول السنة عندنا : التمسك بما كان عليه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم والاقتداء بهم ، وترك البدع ، وكل بدعة ضلالة . والسنة عندنا : آثار رسول الله صلى الله عليه وسلم » والسنة تفسر القرآن ، وهى دلائل القرآن ، أى دلالات على معناه .

ولهذا ذكر العلماء : أن الرفض أساس الزندقة ، وأن أول من ابتدع الرفض إنما كان منافقا زنديقا ، وهو عبد الله بن سبأ ، فإنه إذا قدح فى السابقين الأولين (٣)

---

(١) أى بيانها من الرسل لخاصة الناس دون عامتهم .

(٢) المتعلقة بالمعاد والبعث واليوم الآخر .

(٣) من المهاجرين والأنصار كأبى بكر وعمر وعثمان .

فقد قدح فى نقل الرسالة ، أو فى فهمها ، أو فى اتباعها . فالرافضة تقدح تارة فى علمهم بها [١] وتارة فى اتباعهم لها ، وتحيل ذلك على أهل البيت ، وعلى المعصوم الذى ليس له وجود فى الوجود .

والزنادقة من الفلاسفة والنصيرية وغيرهم : يقدحون تارة في النقل ، وهو قول جهالهم ، وتارة يقدحون فى فهم الرسالة ، وهو قول حذاقهم ، كما يذهب إليه أكابر الفلاسفة والاتحادية ونحوهم . حتى كان التلمسانى مرة مريضا فدخل عليه شخص ومعه بعض طلبة الحديث ، فأخذ يتكلم على قاعدته فى الفكر : أنه حجاب ، وأن الأمر مداره على الكشف ، وغرضه كشف الوجود المطلق [٢] ، فقال ذلك الطالب : فما معنى قول أم الدرداء « أفضل عمل أبي الدرداء : التفكر » فتبرم بدخول مثل هذا عليه ، وقال للذى جاء به : كيف يدخل على مثل هذا ؟ ثم قال : أتدرى يا بنى ما مثل أبي الدرداء وأمثاله ؟ مثلهم : مثل أقوام سمعوا كلاما وحفظوه لنا ، حتى نكون نحن الذين نفهمه ونعرف مراد صاحبه ، ومثل بريد [٣] حمل كتابا من السلطان إلى نائبه أو نحو ذلك ـ فقد طال عهدى بالحكاية ، حدثنى بها الذى دخل عليه وهو ثقة يعرف ما يقول فى هذا ، وكان له فى هذه الفنون جولان كثير .

وكذلك ابن سينا وغيره يذكر من التنقص بالصحابة ما ورثه عن أبيه وشيعته القرامطة ، حتى تجدهم إذا ذكروا فى آخر الفلسفة حاجة النوع الإنسانى إلى الإمامة عرضوا بقول الرافضة الضلال ، لكن أولئك [الرافضة] يصرحون من السب بأكثر مما يصرح به هؤلاء [الفلاسفة] .

ولهذا تجد بين الرافضة والقرامطة والاتحادية اقتران واشتباه ، يجمعهم أمور

---

(١) أى فى علم السابقين بالرسالة .

(٢) الذى هو وجود الحق والخلق عندهم بلا تعدد فيه ولا تميز .

(٣) البريد حامل الكتب والرسائل وناقلها من مكان إلى مكان .

منها : الطعن فى خيار هذه الأمة ، وفيما عليه أهل السنة والجماعة ، وفيما استقر من أصول الملة وقواعد الدين ، ويدعون باطنا امتازوا به واختصوا به عمن سواهم ، ثم هم مع ذلك متلاعنون متباغضون مختلفون ، كما رأيت وسمعت من ذلك مالا يحصى ، كما قال الله عن النصارى (٥ : ١٤ ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم ، فنسوا حظا مما ذكروا به ، فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة) وقال عن اليهود (٥ : ٦٤ وألقينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله) .

وكذلك المتكلمون المخلطون الذين يكونون تارة مع المسلمين ، وإن كانوا مبتدعين ، وتارة مع الفلاسفة الصابئين ، وتارة مع الكفار المشركين ، وتارة يقابلون بين الطوائف وينتظرون لمن تكون الدائرة ، وتارة يتحيرون بين الطوائف . وهذه الطائفة الأخيرة قد كثرت فى كثير ممن انتسب إلى الإسلام من العلماء والأمراء وغيرهم ، لا سيما لما ظهر المشركون من الترك[1] على أرض الإسلام بالمشرق فى أثناء المائة السابعة وكان كثير ممن ينتسب إلى الإسلام فيه من النفاق والردة ما أوجب تسليط المشركين وأهل الكتاب على بلاد المسلمين[2] .

فتجد أبا عبد الله الرازى يطعن فى دلالة الأدلة اللفظية على اليقين ، وفى إفادة الأخبار للعلم[3] . وهذان هما مقدمتا الزندقة ، كما قدمناه . ثم يعتمد فيما أقر به من أمور الإسلام على ما علم بالاضطرار من دين الإسلام ، مثل العبادات والمحرمات الظاهرة ، وكذلك الإقرار بمعاد الأجساد بعد الاطلاع على التفاسير والأحاديث — يجعل العلم بذلك مستفادا من أمور كثيرة ، فلايعطل تعطيل الفلاسفة

---

(١) يريد التتار تحت رياسة هولاكو وجنكيزخان ومنهم تيمور لنك .

(٢) من نصارى الإفرنج الذين استولوا على الشام وشواطىء مصر .

(٣) يعنى أن ألفاظ الكتاب العزيز والأخبار النبوية لا تفيدان اليقين والعلم القطعى بصفات الله تعالى عند الرازى .

الصـابئين ولا يقر إقرار الحنفاء العلماء المؤمنين ، وكذلك الصحابة ، و إن كان [الرازى] يقول بعدالتهم فيما نقلوه و بعلمهم فى الجملة ، لـكن يزعم فى مواضع : أنهم لم يعلموا شبهات الفلاسفة وما خاضوا فيه ، إذ لم يجد مأثورا عنهم التـكلم بلغة الفلاسفة ، و يجعل هذا حجة له فى الرد على من زعم (١)

وكذلك هذه المقالات لا تجدها إلا عند أجهل المتـكلمين فى العلم وأظلمهم من هؤلاء المتـكلمة والمتفلسفة والمتشيعة والاتحادية فى الصحابة ، مثل قول كثير من العلماء والمتأمرة (٢) : أنا أشجع منهم ، و إنهم لم يقاتلوا مثل العـدوّ الذى قاتلناه ، ولا باشروا الحروب مباشرتنا ، ولا ساسوا سياستنا ، وهذا لا تجده إلا فى أجهل الملوك وأظلمهم .

فإنه إن أراد أن نفس ألفاظهم ، وما يتوصلون به إلى بيان مرادهم من المعانى لم يعلموه : فهذا لا يضرهم ، إذ العلم بلغات الأمم ليس مما يجب على الرسل وأصحابهم ، بل يجب منه ما لا يتم التبليغ إلا به ، فالمتوسطون بينهم من التراجمة يعلمون لفظ كل منهما ومعناه ، فإن كان المعنيان واحداً كالشمس والقمر ، و إلا علموا ما بين المعنيين من الاجتماع والافتراق ، فينقل لـكل منهما مراد صاحبه ، كما يصور المعانى و يبين ما بين المعنيين من التماثل والتشابه والتقارب .

فالصحابة كانوا يعلمون ما جاء به الرسول . وفيما جاء به بيان الحجة على بطلان كفر كل كافر ، و بيان ذلك بقياس صحيح أحق وأحسن بيانا من مقاييس أولئك الـكفار ، كما قال تعـالى (٢٥ : ٣٣ ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً) أخبر سبحانه أن الـكفار لا يأتونه بقياس عقلى لباطلهم إلا جاءه الله بالحق ، وجاءه من البيان والدليل وضرب المثل بما هو أحسن تفسيراً وكشفاً و إيضاحاً للحق من قياسهم .

---

(١) بياض بالأصل قدر ثلاث كلمات .

(٢) كذا بالأصل ولعله « الملوك والأمراء » .

وجميع ما تقوله الصابئة والمتفلسفة وغيرهم من الكفار ـ من حكم أو دليل ـ يندرج فيما علمه الصحابة . وهذه الآية ذكرها الله تعالى بعد قوله (٢٥: ٣٠، ٣١ وقال الرسول : يا رب إن قومى اتخذوا هذا القرآن مهجوراً ، وكذلك جعلنا لكل نبى عدوّا من المجرمين ، وكفى بربك هاديا ونصيراً) فبين أن من هجر القرآن فهو من أعداء الرسول ، وأن هذه العداوة أمر لا بد منه ، ولا مفرّ عنه ، ألا ترى إلى قوله تعالى (٢٥ : ٢٧ ـ ٢٩ ويوم يعض الظالم على يديه يقول : يا ليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا ، يا ويلتا ، ليتني لم أتخذ فلانا خليلا . لقد أضلنى عن الذكر بعد إذ جاءنى ، وكان الشيطان للإنسان خذولا) .

والله تعالى قد أرسل نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم إلى جميع العالمين ، وضرب الأمثال فيما أرسله به لجميعهم ، كما قال تعالى (٣٩ : ٢٧ ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون) فأخبر أنه ضرب لجميع الناس فى هذا القرآن من كل مثل .

ولا ريب أن الألفاظ فى المخاطبات تكون بحسب الحاجات كالسلاح فى المحاربات . فإذا كان عدو المسلمين ـ فى تحصنهم وتسلحهم ـ على صفة غير الصفة التى كانت عليها فارس والروم : كان جهادهم بحسب ما توجبه الشريعة [1] التى مبناها على تحرّى ما هو لله أطوع وللعبد أنفع ، وهو الأصلح فى الدنيا والآخرة . وقد يكون الخبير بحروبهم أقدر على حربهم ممن ليس كذلك ، لا لفضل قوته وشجاعته ، ولكن لمجانسته لهم ، كما يكون الأعجمى المتشبه بالعرب ـ وهم خيار العجم ـ أعلم بمخاطبة قومه الأعاجم من العربى ، وكما يكون العربى المتشبه بالعجم ـ وهم أدنى العرب ـ أعلم بمخاطبة العرب من العجمى . فقد جاء فى الحديث : « خيار عجمكم : المتشبهون بعربكم . وشرار عربكم : المتشبهون بعجمكم » .

(١) من استعمال الآلات والعدد المناسبة لكل عصر . ففى هذا العصر طائرات وغواصات وخانقات من الأدخنة والأبخرة ونحوها ، فيجب تعلمها وصنعها واستعمالها .

ولهذا لما حاصر النبي صلى الله عليه وسلم الطائف رماهم بالمنجنيق ، وقاتلهم قتالا لم يقاتل غيرهم مثله فى المزاحفة ، كيوم بدر وغيره ، وكذلك لما حوصر المسلمون عام الخندق اتخذوا من الخندق مالم يحتاجوا إليه فى غير الحصار. وقيل : إن سلمان أشار عليهم بذلك ، فسلموا ذلك له ، لأنه طريق إلى فعل ما أمر الله به ورسوله .

وقد قررنا فى قاعدة السنة والبدعة : أن البدعة فى الدين هى ما لم يشرعه الله ورسوله ، وهو ما لم يأمر به أمر إيجاب ولا استحباب . فأما ما أمر به أمر إيجاب أو استحباب ، وعلم الأمر به بالأدلة الشرعية : فهو من الدين الذى شرعه الله ، وإن تنازع أولو الأمر فى بعض ذلك . وسواء كان هذا مفعولا على عهد النبي صلى الله عليه وسلم أو لم يكن . فما فعل بعده بأمره ـ من قتال المرتدين والخوارج المارقين وفارس والروم والترك ، وإخراج اليهود والنصارى من جزيرة العرب وغير ذلك ـ هو من سنته . ولهذا كان عمر بن عبد العزيز يقول : « سن رسول الله صلى الله عليه وسلم سننا ، الأخذ بها تصديق لكتاب الله ، واستكمال لطاعة الله ، وقوة على دين الله . ليس لأحد تغييرها ولا النظر فى رأى من خالفها ، من اهتدى بها فهو مهتد . ومن استنصر بها فهو منصور . ومن خالفها واتبع غير سبيل المؤمنين وَلَّاه الله ما تولى وأصلاه جهنم وساءت مصيراً » .

فسنة خلفائه الراشدين: هى مما أمر الله به ورسوله ، وعليه أدلة شرعية مفصلة ليس هذا موضعها .

وكما أن الله بين فى كتابه مخاطبة أهل الكتاب ، وإقامة الحجة عليهم بما بينه من أعلام رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، وبما فى كتبهم من ذلك ، وما حرفوه وبدلوه من دينهم ، وصدق بما جاءت به الرسل قبله حتى إذا سمع ذلك الكتابى العالم المنصف وجد ذلك كله من أبين الحجة وأقوم البرهان .

والمناظرة والمحاجة لا تنفع إلا مع العدل والإنصاف ، وإلا فالظالم يجحد الحق الذى يعلمه ، وهو المسفسط والمقرمط ، أو يمتنع عن الاستماع والنظر فى طريق العلم

وهو المعرض عن النظر والاستدلال ، فكما أن الإحساس الظاهر لا يحصل للمعرض ولا يقوم للجاحد ، فكذلك الشهود الباطن لا يحصل للمعرض عن النظر والبحث ، بل طالب العلم يجتهد فى طلبه من طرقه . ولهذا سمى مجتهداً ، كما يسمى المجتهد فى العبادة وغيرها مجتهداً ، كما قال بعض السلف « ما المجتهد فيكم إلا كاللاعب فيهم » وقال أبى بن كعب وابن مسعود « اقتصاد فى سنة ، خير من اجتهاد فى بدعة » وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم « إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران ، و إذا اجتهد فأخطأ فله أجر »[1] وقال معاذ بن جبل ، و يروى مرفوعا وهو محفوظ عن معاذ « عليكم بالعلم . فإن تعليمه حسنة ، وطلبه عبادة ، ومذاكرته تسبيح ، والبحث عنه جهاد ، وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة ، و بذله لأهله قربة » فجعل الباحث عن العلم مجاهداً فى سبيل الله .

ولما كانت المحاجة لا تنفع إلا مع العدل ، قال تعالى (٢٩ : ٤٦ ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هى أحسن إلا الذين ظلموا منهم) فالظالم ليس علينا أن نجادله بالتى هى أحسن . و إذا حصل من مسلمة أهل الكتاب الذين علموا ما عندهم بلغتهم وترجموا لنا بالعربية انتفع بذلك فى مناظرتهم ومخاطبتهم ، كما كان عبد الله ابن سلام وسلمان الفارسى وكعب الأحبار[2] وغيرهم يحدثون بما عندهم من العلم ، وحينئذ يستشهد بما عندهم على موافقة ما جاء به الرسول ، ويكون حجة عليهم من وجه وعلى غيرهم من وجه آخر ، كما بيناه فى موضعه .

والألفاظ العبرية تقارب العربية بعض المقاربة ، كما تتقارب الأسماء في الاشتقاق الأكبر . وقد سمعت ألفاظ التوراة بالعبرية من مسلمة أهل الكتاب

(١) رواه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجة من حديث أبى هريرة وعمرو بن العاص رضى الله عنه. أفاده المنذرى فى مختصر سنن أبى داود .

(٢) لقد كان من إشاعة كعب الأحبار لأخبار وقصص وتواريخ بنى إسرائيل أثر كبير فى إفساد عقول ودين كثير من الناس لأنهم أخذوها بلا تمحيص .

فوجدت اللغتين متقاربتين غاية التقارب ، حتى صرت أفهم كثيراً من كلامهم العبرى بمجرد المعرفة بالعربية .

والمعانى الصحيحة [فى التوراة] إما مقاربة لمعانى القرآن أو مثلها أو بعينها و إن كان فى القرآن من الألفاظ والمعانى خصائص عظيمة .

فإذا أراد المجادل منهم أن يذكر مايطعن في القرآن بنقل أو عقل ، مثل أن ينقل عما فى كتبهم عن الأنبياء ما يخالف ما جاء به محمد صلي الله عليه وسلم ، أو خلاف ما ذكره الله فى كتبهم ، كزعمهم للنبي صلى الله عليه وسلم أن الله أمرهم بتحميم[1] الزانى دون رجمه : أمكن للنبى صلى الله عليه وسلم والمؤمنين أن يطلبوا التوراة ومن يقرؤها بالعربية ويترجمها من ثقات التراجمة ، كعبد الله بن سـلام ونحوه ، لما قال لحبرهم : « ارفع يديك عن آية الرجم » فإذا هى تلوح . ورجم النبي صلى الله عليه وسلم الزانيين منهما ، بعد أن أقام عليهم الحجة من كتابهم . وذلك أنه موافق لما أنزل الله عليه من الرجم ، وقال « اللهم إنى أول من أحيا أمرك إذ أماتوه » ولهذا قال ابن عباس فى قوله (٥ : ٤٤ إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحـكم بها النبيون الذين أسلموا) قال [ابن عباس] : محمد صلى الله عليه وسلم ، من النبيين الذين أسلموا ، وهو لم يحكم إلا بما أنزل الله عليه ، كما قال (٥ : ٤٩ وأن احكم بينهم بما أنزل الله) .

وكذلك يمكن أن يقرأ من نسخة مترجمة بالعربية قد ترجمها الثقات بالخط واللفظ العربيين يعلم بهما ما عندهم ، بواسطة المترجمين الثقات من المسلمين ، أو ممن يعلم خطهم[2] منا ، كزيد بن ثابت ونحوه لما أمره النبى صلى الله عليه وسلم أن يتعلم ذلك ، والحديث معروف فى السنن[3] وقد احتج به البخارى فى (باب

---

(١) تسويد وجه الزانى بالحمم وهو الفحم . (٢) يعنى مع لغتهم .

(٣) كالترمذى وقال حسن صحيح ، وأخرجه أبو داود في كتاب العلم من سننه وأخرجه البخارى تعليقا فى كتاب العلم من صحيحه ا هـ منذرى .

ترجمة الحاكم ، وهل يجوز ترجمان ؟) قال: وقال خارجة بن زيد عن زيد بن ثابت « إن النبي أمره أن يتعلم كتاب اليهود ، حتى كتب للنبي صلى الله عليه وسلم ، وأقرأته كتبهم إذا كتبوا إليه [1] » .

والمكاتبة بخطهم والمخاطبة بلغتهم : من جنس واحد ، وإن كانا قد يجتمعان وقد ينفرد أحدهما عن الآخر ، مثل كتابة اللفظ العربي بالخط العبرى وغيره من خطوط الأعاجم ، وكتابة اللفظ العجمى بالخط العربى ، وقيل : يكتفى بذلك . ولهذا قال سبحانه (٣:٩٣ كل الطعام كان حِلاً لبنى إسرائيل إلا ماحرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة ، قل فائتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين) فأمرنا أن نطلب منهم إحضار التوراة وتلاوتها إن كانوا صادقين فى نقل مايخالف ذلك ، فإنهم كانوا (٣ : ٧٨ يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب) و (٢ : ٧٩ يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله) ويكذبون فى كلامهم وكتابهم . فلهذا لا تقبل الترجمة إلا من ثقة .

فإذا احتج أحدهم على خلاف القرآن برواية عن الرسل المتقدمين ، مثل الذى يروى عن موسي أنه قال « تمسكوا بالسبت مادامت السموات والأرض» أمكننا أن نقول لهم : فى أى كتاب هذا ؟ أحضروه . وقد علمنا أن هذا ليس في كتبهم وإنما هو مفترى مكذوب ، وعندهم النبوات التى هي مئتان وعشرون ، وكتاب المثنوى [2] الذى معناه المثناة ، وهى التى جعلها عبد الله بن عمرو فينا من أشراط الساعة ، فقال « لا تقوم الساعة حتى يقرأ فيهم بالمثناة ، ليس أحد يغيرها ، قيل : وما المثناة ؟ قال : ما استكتب من غير كتاب الله » .

---

(١) قال الحافظ فى الفتح (ج ١٣ ص ١٤٨) قد وصله مطولا فى كتاب التاريخ — ثم ساقه الحافظ بطوله .

(٢) يسمونه الآن « المشنى » أو التلمود ، وهو كتاب مطول فيه أخبار الأحبار ومواعظهم وآراؤهم .

وكذلك إذا سئلوا عما فى الكتاب من ذكر أسماء الله وصفاته لتقام الحجة عليهم وعلى غيرهم، بموافقة الأنبياء المتقدمين لمحمد صلى الله عليه وسلم، فحرفوا الكلم عن مواضعه : أمكن معرفة ذلك، كما تقدم .

وإن ذكروا حجة عقلية فهمت أيضاً مما في القرآن بردها إليه، مثل إنكارهم للنسخ بالعقل، حتى قالوا : لا ينسخ ما حرمه، ولا ينهى عما أمر به . فقال تعالى : (٢ : ١٤٢ سيقول السفهاء من الناس : ما ولَّاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها ؟) قال البراء بن عازب ـ [كما] فى الصحيحين ـ « هم اليهود » فقال سبحانه (لله المشرق والمغرب يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم).

فذكر ما فى النسخ من تعليق الأمر بالمشيئة الإلهية، ومن كون الأمر الثانى قد يكون أصلح وأنفع، فقوله : (يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم) بيان للأصلح الأنفع، وقوله (من يشاء) رداً للأمر إلى المشيئة .

وعلى بعض مافي الآية اعتماد جميع المتكلمين حيث قالوا : التكليف إما تابع لمحض المشيئة، كما يقوله قوم، أو تابع للمصلحة، كما يقوله قوم، وعلى التقديرين فهو جائز .

ثم إنه سبحانه بين وقوع النسخ بتحريم الحلال فى التوراة، بأنه أحلّ لإسرائيل أشياء ثم حرمها فى التوراة، وأن هذا كان تحليلا شرعياً بخطاب، لم يكونوا استباحوه بمجرد البقاء على الأصل، حتى لا يكون رفعه نسخاً، كما يدعيه قوم منهم، وأمر بطلب التوراة فى ذلك، وهكذا وجدناه فيها، كما حدثنا بذلك مُسْلِمة أهل الكتاب فى غير موضع .

وهكذا مناظرة الصابئة الفلاسفة والمشركين ونحوهم، فإن الصابئي الفيلسوف إذا ذكر ما عند قدماء الصابئة الفلاسفة من الكلام الذى عرب وترجم بالعربية وذكره إما صِرفاً وإما على الوجه الذى تصرف فيه متأخروهم بزيادة أو نقصان، وبسط واختصار، ورد بعضه وإتيان بمعان أخر، ليست فيه ونحو ذلك ـ فإن

ذكر ما لا يتعلق بالدين ، مثل مسائل الطب والحساب المحض التي يذكرون فيها ذلك ، وكتب من أخذ عنهم ، مثل : محمد بن زكريا الرازى وابن سينا ونحوهم من الزنادقة الأطباء ماغايته : انتفاع بآثار الكفار والمنافقين فى أمور الدنيا ، فهذا جائز . كما يجوز السكنى فى ديارهم ، ولبس ثيابهم وسلاحهم ،وكما تجوز معاملتهم على الأرض ، كما عامل النبى صلى الله عليه وسلم يهود خيبر ، وكما استأجر النبى صلى الله عليه وسلم هو وأبو بكر لما خرجا من مكة مهاجرين ابن أريقط ـ رجلا من بنى الدِّيل ـ هادياً خريتاً ، والخريت الماهر بالهداية ، وائتمناه على أنفسهما ودوابهما ، وواعداه غار ثور صبح ثالثة ، وكانت خزاعة[1] عَيْبة نصح رسول الله صلى الله عليه وسلم مسلمهم وكافرهم ، وكان يقبل نصحهم . وكل هذا فى الصحيحين ، وكان أبو طالب ينصر النبى صلى الله عليه وسلم ويذب عنه مع شركه وهذا كثير .

فإن المشركين وأهل الكتاب فيهم المؤتمن ، كما قال تعالى (٣ : ٧٥ ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يُؤَدِّه إليك ، ومنهم من إن تأمنه بدينار لايؤده إليك إلا مادمت عليه قائماً) ولهذا جاز ائتمان أحدهم على المال ، وجاز أن يستطب المسلم الكافر إذا كان ثقة ، نص على ذلك الأئمة كأحمد وغيره ، إذ ذلك من قبول خبرهم فيما يعلمونه من أمر الدنيا وائتمان لهم على ذلك ، وهو جائز إذا لم يكن فيه مفسدة راجحة ، مثل ولايته على المسلمين وعلوه عليهم[2] ونحو ذلك .

فأخذ علم الطب من كتبهم مثل الاستدلال بالكافر على الطريق واستطبابه بل هذا أحسن . لأن كتبهم لم يكتبوها لمعين من المسلمين حتى تدخل فيها الخيانة

---

(١) قبيلة تسكن مر الظهران بضواحى مكة ، وكونهم عيبة نصح لرسول الله صلى الله عليه وسلم كناية عن إخلاصهم له ، كأنهم حقائب مملوءة بالنصح له .

(٢) مثلان للمنفى لا للنفى ، إذ فيهما مفسدة عظيمة وشر كبير بإذلال المسلمين ، وتوهين أمرهم .

وليس هناك حاجة إلى أحد منهم بالخيانة ، بل هى مجرد انتفـاع بآثارهم ، كالملابس والمساكن والمزارع والسلاح ونحو ذلك .

وإن ذكروا(٣) مايتعلق بالدين فإن نقلوه عن الأنبياء كانوا فيه كأهل الكتاب وأسوأ حالا ، وإن أحالوا معرفته على القياس العقلى فإن وافق ما فى القرآن فهو حق ، وإن خالفه ففى القرآن بيان بطلانه بالأمثال المضروبة ، كما قال تعالى (٢٥ : ٣٣ ولايأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً) ففى القرآن الحق ، والقياس البين الذى يبين بطلان ما جاءوا به من القياس ، وإن كان ما يذكرونه مجملا فيه الحق ، وهو الغالب على الصـابئة المبدّلين ، مثل ارسطو وأتباعه وعلى من اتبعهم من الآخرين قبل الحق ورد الباطل ، والحق من ذلك لايكون بيان صفة الحق فيه كبيان صفة الحق فى القرآن . فالأمر في هذا موقوف على معرفة القرآن ومعانيه وتفسيره وترجمته .

والترجمة والتفسير ثلاث طبقات :

أحدها : ترجمة مجرد اللفظ ، مثل نقل اللفظ بلفظ مرادف ، ففى هذه الترجمة تريد أن تعرف أن الذى يُعنى بهذا اللفظ عند هؤلاء هو بعينه الذى يعنى باللفظ عند هؤلاء . فهذا علم نافع . إذ كثير من النـاس يقيد المعنى باللفظ ، فلا يجرده عن اللفظين جميعا .

والثانى : ترجمة المعنى وبيانه ، بأن يصور المعنى للمخاطب ، فتصوير المعنى له وتفهيمه إياه قدر زائد على ترجمة اللفظ ، كما يشرح للعربى كتابا عربيا قد سمع ألفاظه العربية ، لـكنه لم يتصور معانيه ولا فهمها ، وتصوير المعنى يكون بذكر عينه أو نظيره ، إذ هو تركيب صفات من مفردات يفهمها المخاطب يكون ذلك المركبُ صور ذلك المعنى ، إما تحديداً وإما تقريبا .

---

(٣) أى الصابئة الفلاسفة .

الدرجة الثالثة : بيان صحة ذلك وتحقيقة بذكر الدليل والقياس الذى يحقق ذلك المعنى ، إما بدليل مجرد وإما بدليل يبين علة وجوده .

وهنا قد يحتاج إلى ضرب أمثلة ومقاييس تفيده التصديق بذلك المعنى ، كما يحتاج فى الدرجة الثانية إلى أمثلة تصور له ذلك المعني . وقد يكون نفس تصوره مفيدا للعلم بصدقه . وإذا كفى تصور معناه فى التصديق به لم يحتج إلى قياس ومثل ودليل آخر .

فإذا عرف القرآن هذه المعرفة : فالكلام الذي يوافقه أو يخالفه من كلام أهل الكتاب والصابئين والمشركين لابد فيه من الترجمة للفظ والمعنى أيضاً وحينئذ فالقرآن فيه تفصيل كل شيء ، كما قال تعالى (١٢:١١١ ما كان حديثاً يفترى ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل كل شيء) وقال (١٦ : ٨٩ ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء)

ومعلوم أن الأمة مأمورة بتبليغ القرآن لفظه ومعناه ، كما أمر بذلك الرسول ولا يكون تبليغ رسالة الله إلا كذلك ، وأن تبليغه إلى العجم قد يحتاج إلى ترجمة لهم ، فيترجم لهم بحسب الإمكان . والترجمة قد تحتاج إلى ضرب أمثال لتصوير المعانى ، فيكون ذلك من تمام الترجمة .

وإذا كان من المعلوم : أن أكثر المسلمين ، بل أكثر المنتسبين منهم إلى العلم ، لايقومون بترجمة القرآن وتفسيره وبيانه فلأن يعجز غيرهم عن ترجمة ماعنده وبيانه أولى بذلك . لأن عقل المسلمين أكمل ، وكتابهم أقوم قيلا ، وأحسن حديثاً ، ولغتهم أوسع ، لا سيما إذا كانت تلك المعانى غير محققة ، بل فيها باطل كثير . فإن ترجمة المعانى الباطلة وتصويرها صعب . لأنه ليس لها نظير من الحق من كل وجه .

فإذا سئلنا عن كلام يقولونه : هل هو حق أو باطل ؟ ومن أين يتبين الحق فيه والباطل ؟

قلنا : من القول بالحجة والدليل ، كما كان المشركون وأهل الكتاب يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم عن مسائل ، أو يناظرونه ، وكما كانت الأمم تجادل رسلها . إذ كثير من الناس يدعى موافقة الشريعة للفلسفة .

مثال ذلك : إذا ذكروا (١) العقول العشرة ، والنفوس التسعة ، وقالوا : إن العقل الأول هو الصادر الأول عن الواجب بذاته ، وإنه من لوازم ذاته ومعلول له ، وكذلك الثانى عن الأول ، وإن لكل فلك عقلا ونفسا .

قيل : قولكم « عقل ونفس » لغة لكم ، فلا بد من ترجمتها ، وإن كان اللفظ عربياً فلابد من ترجمة المعنى .

فيقولون : العقل هو الروح المجردة عن المادة ، وهى (٢) الجسد وعلائقها ، سموه عقلا ، ويسمونه مفارقاً ، ويسمون تلك المفارقات للمواد لأنها مفارقة للأجساد ، كما أن روح الإنسان إذا فارقت جسده كانت مفارقة للمادة التى هى الجسد ، والنفس هى الروح المدبرة للجسم ، مثل نفس الإنسان إذا كانت فى جسمه ، فمتى كانت فى الجسم كانت محركة له . فإذا فارقته صارت عقلا محضاً ، أى يعقل العلوم من غير تحريك بشىء من الأجسام ، فهذه العقول والنفوس .

وهذا الذى ذكرناه من أحسن الترجمة عن معنى العقل والنفس ، وأكثرهم لا يحصلون ذلك .

قالوا : وأثبتنا لكل فلك نفساً لأن الحركة اختيارية ، فلا تكون إلا لنفس ، ولكل نفس عقلا لأن العقل كامل لايحتاج إلى حركة ، والمتحرك يطلب الكمال فلا بد أن يكون فوقه مايشبه به ، وما يكون علة له . ولهذا كانت حركة أنفسنا للتشبه بما فوقنا من العقول . وكل ذلك تشبه بواجب الوجود بحسب الإمكان .

والأول لايصدر عنه إلا عقل . لأن النفس تقتضى جسما ، والجسم فيه كثرة

---

(١) أى مقلدة فلاسفة اليونان . (٢) أى المادة .

والصادر عنه لايكون إلا واحداً . ولهم فى الصدور اختلاف كثير ليس هذا موضعه

قيل لهم : أما إثباتكم أن فى السماء أرواحاً : فهذا يشبه ما في القرآن وغيره من كتب الله ، ولكن ليست هى الملائكة ، كما يقول الذين يزعمون منكم أنهم آمنوا بما أنزل على الرسول وما أنزل من قبله ، ويقولون : ماأردنا إلا الإحسان والتوفيق بين الشريعة والفلسفة ، فإنهم قالوا : العقول والنفوس عند الفلاسفة هى الملائكة عند الأنبياء ، وليس كذلك ، لكن تشبهها من بعض الوجوه . فإن اسم الملائكة والملك يتضمن أنهم رسل الله ، كما قال تعالى : (٣٥ : ١ جاعل الملائكة رسلا) وكما قال (والمرسلات عُرفاً) فالملائكة رسل الله فى تنفيذ أمره الكونى الذى يدبر به السموات والأرض ، كما قال تعالى(٦:٦١ حتى إذا جاء أحدهم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون) وكما قال (٤٣:٨٠ بلى ورسلنا لديهم يكتبون) وأمرَه الديني الذى تنزل به الملائكة ، فإنه قال (١٦:٢ ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده) وقال تعالى (٤٢:٥١ وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحى بإذنه مايشاء إنه علىٌّ حكيم) وقال تعالى (٢٢ : ٧٥ الله يصطفى من الملائكة رسلاً ومن الناس) .

وملائكة الله لايحصى عددهم إلا الله ، كما قال تعالى (٧٤:٣١ وماجعلنا أصحاب النار إلاملائكة ، وما جعلنا عِدَّتهم إلا فتنة للذين كفروا ، ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ، ويزداد الذين آمنوا إيماناً ، ولايرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون وليقول الذين فى قلوبهم مرض والكافرون : ماذا أراد الله بهذا مثلا ؟ كذلك يضل الله من يشاء ويهدى من يشاء ، وما يعلم جنود ربك إلا هو) .

وقيل لهم : الذى فى الكتاب والسنة ، من ذكر الملائكة وكثرتهم ، أمر لا يحصر ، حتى قال النبى صلى الله عليه وسلم « أطَّت السماء وحُقَّ لها أن تئط

مافيها موضع أربع أصابع إلا ملك قائم أو قاعد أو راكع أو ساجد [١] » وقال الله (٤٢ : ٥ تكاد السموات يتفطرن من فوقهن والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن فى الأرض ، ألا إن الله هو الغفور الرحيم) .

فمن جعلهم عشرة أو تسعة عشر ، أو زعم أن التسعة عشر الذين على سَقَر : هم العقول والنفوس ؛ فهذا من جهله بما جاء عن الله ورسوله ، وضلاله فى ذلك بيِّن ، إذ لم تتفق الأسماء فى صفة المسمى ولا فى قدره ، كما تكون الألفاظ المترادفة . وإنما اتفق المسميان فى كون كل منهما روحاً متعلقا بالسموات . وهذا من بعض صفات ملائكة السموات ، فالذى أثبتوه [هو] بعض الصفات لبعض الملائكة ، وهو بالنسبة إلى الملائكة وصفاتهم وأقدارهم وأعدادهم فى غاية القلة أقل مما يؤمن به السامرة [٢] من الأنبياء بالنسبة إلى الأنبياء ، إذ هم لا يؤمنون بنبي بعد موسى ويوشع .

كيف ؟ وهم [٣] لم يثبتوا للملائكة من الصفة إلا مجرد ما علموه من نفوسهم مجرد العلم للعقول ، والحركة الارادية للنفوس .

ومن المعلوم أن الملائكة لهم من العلوم والأحوال والارادات والأعمال مالا يحصيه إلا ذو الجلال ، ووصفهم فى القرآن بالتسبيح والعبادة لله أكثر من أن يذكر هنا ، كما ذكر تعالى فى خطابه للملائكة وأمره لهم بالسجود لآدم ، وقوله تعالى (٤١ : ٣٨ فإن استكبروا فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسأمون) وقوله تعالى (٧ : ٢٠٦ إن الذين عند ربك لايستكبرن عن عبادته

---

(١) رواه أحمد والترمذى وابن ماجه من حديث أبى ذر بنحوه . وقال الترمذى حسن غريب . ويروى عن أبى ذر موقوفا اهـ من تفسير ابن كثير عند قوله تعالى (وما يعلم جنود ربك إلا هو) من سورة المدثر .

(٢) فرقة من اليهود لهم توراة وشرائع خلاف ما عند جمهور اليهود .

(٣) أى مقلدة الفلاسفة .

ويسبحونه وله يسجدون) وقوله تعالى (٢١ : ٢٦ ـ ٢٩ وقالوا اتخذ الرحمن ولدا سبحانه ! بل عباد مكرمون ، لا يسبقونه بالقول ، وهم بأمره يعملون . يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى . وهم من خشيته مشفقون . ومن يقل منهم إنى إله من دونه فذلك نجزيه جهنم ، كذلك نجزى الظالمين) وقوله تعالى (٢٢ : ٧٥ الله يصطفى من الملائكة رسلا من الناس) وقوله تعالى (٤٠ : ٧ الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا) وقوله تعال (٢ : ٢٨٥ كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله) وقوله تعالى (٣ : ١٢٤ ، ١٢٥ إذ تقول للمؤمنين : ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة مُنْزَلين ؟ بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين) وقوله تعالى (٨ : ١٢ إذ يوحى ربك إلى الملائكة : أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا) وقوله تعالى (٩ : ٤٠ فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنودا لم تروها) وقال تعالى (٣٣ : ٩ يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها) وقوله تعالى (٨ : ٥٠ ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم وذوقوا عذاب الحريق) وقوله تعالى(١٦ : ٣٢ الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم) وقوله تعالى (٤١ : ٣٠ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة أن لاتخافوا ولا تحزنوا ، وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون) وقوله (٦ : ٦١ حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون) وقوله تعالى (٣٢ : ١١ قل يتوفاكم ملك الموت الذى وُكِّل بكم) وقوله تعالى (٨٠ : ١٣ ـ ١٦ فى صحف مكرمة . مرفوعة مطهرة . بأيدى سَفَرة كرام بررة) وقوله تعالى (٨٢ : ١١، ١٢ وإن عليكم لحافظين كراما كاتبين يعلمون ما تفعلون) وقوله تعالى (٤٣ : ٨٠ أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم ؟ بلى ، ورسلنا لديهم يكتبون) وقوله تعالى (٥٠ : ١٨ ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب

عتيد) وقوله تعالى (٣٧ : ١ ـ ٣ والصافات ، صفا فالزاجرات زجرا . فالتاليات ذكرا) وقوله تعالى (٣٧ :١٤٩ ـ ١٦٥ فاستفتهم ؟ ألربك البنات ولهم البنون ؟ أم خلقنا الملائكة إناثا وهم شاهدون ؟ ألا إنهم من إفكهم ليقولون : وَلَدَ اللهُ ، وإنهم لكاذبون ـ إلى قوله تعالى ـ وإنا لنحن الصافون وإنا لنحن المسبحون)

وفى الصحيحين عن جابر بن سمرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « ألا تَصُفُّون كما تصف الملائكة عند ربها ؟ قالوا : وكيف تصف الملائكة عند ربها ؟ قال : يتمون الصف الأول ، ويتراصون فى الصف[1] » وفي الصحيحين عن قتادة عن أنس عن مالك بن صعصعة فى حديث المعراج عن النبى صلى الله عليه وسلم ـ لما ذكر صعوده إلى السماء السابعة ـ قال « فرفع لى البيت المعمور ، فسألت جبريل ؟ فقال : هذا البيت المعمور ، يصلى فيه كل يوم سبعون ألف ملك ، إذا خرجوا لم يعودوا آخر ما عليهم » وقال البخارى : وقال همام عن قتادة عن الحسن عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « إذا أمَّن القارىء فأمِّنوا ، فإنه من وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه » وفى الرواية الأخرى فى الصحيحين إذا قال « آمين ، فإن الملائكة فى السماء تقول : آمين » وفى الصحيح أيضا عن أبى صالح عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إذا قال الإمام : سمع الله لمن حمده ، فقولوا :اللهم ربنا ولك الحمد فإنه من وافق قوله قول الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه » وفي الصحيح عن عروة عن عائشة زوج النبى صلى الله عليه وسلم : أنها سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إن الملائكة تنزل فى العنان ـ وهو السحاب ـ فتذكر الأمر قضى فى السماء ، فتسترق الشياطين السمع ، فتسمعه فتوحيه إلى الكهان ، فيكذبون معها مائة كذبة من عند أنفسهم » وفى الصحيحين عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال« إن لله ملائكة سيارة فضلاء ، يتبعون مجالس الذكر . فإذا وجدوا مجلسا فيه ذكر قعدوا معهم ، وحَفَّ بعضهم بعضا بأجنحتهم ، حتى

---

(١) قال المجد فى المنتقى والمنذرى فىالترغيب : رواه الجماعة إلاالبخاري والترمذى

يملؤوا ما بينهم و بين السماء الدنيا ، فإذا تفرقوا عرجوا وصعدوا إلى السماء ، فيسألهم الله ـ وهو أعلم ـ من أين جئتم ؟ فيقولون : جئنا من عند عباد لك فى الأرض يسبحونك ويكبرونك ويهللونك ويحمدونك ويسألونك . قال : وما يسألونى ؟ قالوا : يسألونك جنتك . قال : وهل رأوا جنتى ؟ قالوا : لا ، أى رب ، قال : فكيف لو رأوا جنتى ؟ قالوا : و يستجيرونك . قال : ومم يستجيرونني ؟ قالوا : من نارك . قال : وهل رأوا نارى ؟ قالوا : يارب لا . قال : فكيف لورأوا نارى ؟ قالوا : و يستغفرونك . قال فيقول : قد غفرت لهم ، وأعطيتهم ما سألوا ، وأجرتهم مما استجاروا . قال يقولون : رب فيهم فلان عبد خطاء ، إنما مر فجلس معهم . قال فيقول : وله قد غفرت ، هم القوم لا يشقى بهم جليسهم » (١)

وفى الصحيحين عن عروة عن عائشة حدثته : أنها قالت للنبى صلى الله عليه وسلم «هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد ؟ قال : لقد لقيت من قومك مالقيت . وكان أشد مالقيت منهم يوم العقبة ، إذ عرضت نفسى على ابن عبد ياليل ابن عبد كلال ، فلم يجبنى إلى ما أردت ، فانطلقت وأنا مهموم على وجهى ، فلم أستفق إلا وأنا بقَرْن الثعالب ، فرفعت رأسى ، وإذا أنا بسحابة قد أظلتنى ، فنظرت فإذا فيها جبريل ، فنادانى ، فقال : إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك ، وقد بعث الله إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم ، فنادانى ملك الجبال ، فسلم على ، ثم قال : يا محمد ، فقال ذلك فيما شئت ، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين (٢) فقال النبى صلى الله عليه وسلم : بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئا »

---

(١) هذا لفظ مسلم . وكتبه سليمان الصنيع .

(٢) الاخشبان : جبلان بمكة الشرقى أبو قبيس والغربى قيقعان المسمى الآن بجبل الهندى . هذا قول والقول الآخر أنه الجبل الأحمر المشرف على قعيقعان . أنظر فتح البارى (ج ٦ ص ٢٢٤) أميرية . و (ج ٦ ص ١٩٨) طبعة الخشاب وقال الحافظ : ورواه الطبرانى . فقال « يا محمد ، إن الله بعثنى إليك ، وأنا ملك الجبال ، لتأمرنى بأمرك فيما شئت » والنهاية لابن الاثير ومعجم البلدان لياقوت وكتبه سليمان الصنيع

وأمثال هذه الأحاديث الصحاح مما فيها ذكر الملائـكة الذين فى السموات وملائـكة الهواء والجبال وغير ذلك كثيرة .

وكذلك الملائـكة المتصرفون فى أمور بنى آدم ، مثل قوله صلى الله عليه وسلم فى الحديث المتفق عليه ،حديث الصادق[١] المصدوق ، إذ يقول « ثم يبعث إليه الملك فيؤمر بأربع كلمات ، فيقال : اكتب رزقه وأجله وشقى أو سعيد ، ثم ينفخ فيه الروح » وفى الصحيح حديث البراء بن عازب قال : قال النبى صلى الله عليه وسلم لحسان « اهجهم ـ أو هاجهم ـ وجبريل معك » وفى الصحيح أيضا أن النبى صلى الله عليه وسلم قال له « أجب عنى ، اللهم أيده بروح القدس » وفى الصحيح عن أنس قال : « كأنى أنظر إلى غبار ساطع فى سكة بنى غَنْم موكب جبريل » وفى الصحيحين عن عائشة : أن الحرث بن هشام قال « يا رسول الله ، كيف يأتيك الوحى ؟ قال : أحيانا يأتينى مثل صلصلة الجرس ، وهو أشده على ، فيفصم عنى وقد وعيت ما قال ، وأحيانا يتمثل لى الملك رجلا ، فيكلمنى ، فأعي ما يقول » .

وإتيان جبريل إلى النبى صلى الله عليه وسلم تارة فى صورة أعرابى ، وتارة فى صورة دِحْية الـكلبى ، ومخاطبته وإقراؤه إياه كثيراً أعظم من أن يذكر هنا .

وفى الصحيحين عن أبى هريرة قال قال النبى صلى الله عليه وسلم « يتعاقبون فيكم ملائـكة بالليل وملائكة بالنهار ، ويجتمعون فى صلاة الفجر والعصر ، ثم يعرج الذين باتوا فيكم ، فيسألهم ، ربهم ـ وهوأعلم بهم ـ كيف تركتم عبادى ؟ فيقولون : تركناهم وهم يصلون ، وأتيناهم وهم يصلون » وفى الصحيحين عن عائشة قالت : « حشوت للنبى صلى الله عليه وسلم وسادة فيها تماثيل ، كأنها نُمْرقة ، فجاء فقام ،

(١) يعنى حديث ابن مسعود إذ يقول « حدثنى الصادق المصدوق » يعني النبي صلى الله عليه وسلم « أن أحدكم يجمع خلقه فى بطن أمه أربعين يوما نطفة ـ الحديث » .

وجعل يتغير وجهه ، فقلت : ما لنـا يا رسول الله ؟ قال : ما بال هذه الوسادة ؟ قالت : وسادة جعلتها لك لتضطجع عليها ، قال : أما علمت أن الملائكة لا تدخل بيتا فيه صورة ، إن من صنع الصور يعذب يوم القيامة يقال : أحيوا ما خلقتم » وفى الصحيحين عن ابن عباس قال : سمعت أبا طلحة يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « لا تدخل الملائـكة بيتا فيه كلب ولا صورة تماثيل » وكذلك فى الصحيحين عن عبد الله بن عمر قال « وعد النبى صلى الله عليه وسلم جبريل ، فقـال : إنا لا ندخل بيتا فيه كلب ولا صورة » وفى الصحيحين عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم : « قال إن الملائـكة تصلى على أحدكم مادام فى مصلاه الذى صلى فيه : اللهم اغفر له اللهم ارحمه ، مالم يحدث »

وأمثال هذه النصوص ، التى يذكر فيها من أصناف الملائـكة وأوصافهم وأفعالهم ما يمنع أن تكون على ما يذكرونه من العقول والنفوس ، أو أن يكون جبريل هو العقل الفعال ، وتكون ملائكة الآدميين هى القوى الصالحة والشياطين هى القوى الفاسدة ، كما يزعم هؤلاء .

وأيضا فزعمهم أن العقول والنفوس ـ التى جعلوها الملائـكة ، وزعموا أنها معلولة عن الله صادرة عن ذاته صدور المعلول عن علته ـ هو قول بتولدها عن الله . وأن الله . ولدَ الملائـكة . وهذا مما رده الله ونزه نفسه عنه ، وكذب قائله ، و بين كذبه بقوله (لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد) وقال تعالى (٣٧ : ١٥١ـ ١٥٧ ألا إنهم من إفـكهم ليقولون ولد الله . و إنهم لـكاذبون ـ إلى قوله ـ أصطفى البنات على البنين ، مالـكم كيف تحكمون ؟ أفلا تذكرون ؟ أم لـكم سلطان مبين ؟ فائتوا بكتابكم إن كنتم صادقين) و بقوله (٦ : ١٠٠ وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم وخرقوا[1] له بنين و بنات بغير علم ، سبحانه وتعالى عما يصفون) وقوله تعالى (وقالوا : اتخذ الرحمن ولداً سبحانه بل عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم

---

(١) أي نسبوا واختلقوا له كفرا وبهتانا

بأمره يعملون . يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعــون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون) وقال تعالى (٤ :١٧٢ لن يستنكف المسيح أن يكون عبد الله ولا الملائــكة المقربون) وقال تعالى (١٩ : ٨٨ ـ ٩٥ وقالوا اتخذ الرحمن ولدا لقد جئتم شيئا إدًّا ، تــكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هَدًّا : أن دَعَوْا للرحمن ولدا . وما ينبغى للرحمن أن يتخذ ولدا . إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبدا . لقد أحصاهم وعدهم عَدًّا . وكلهم آتيه يوم القيامة فردا)

فأخبر أنهم معبدون ، أى مذللون مصرفون مدينون مقهورون ليسوا كالمعلول المتولد تولدا لازما لا يتصور أن يتغير عن ذلك . وأخبر أنهم عباد الله، لا يشبهون به كما يشبه المعلول بالعلة ، والولد بالوالد ، كما يزعمه هؤلاء الصابئون . وقال تعالى (٢:١١٦، ١١٧ وقالوا اتخذ الله ولدا سبحانه ، بل له ما فى السموات والأرض كل له قانتون . بديع السموات والأرض وإذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيـكون) فأخبر أنه يقضى كل شيء بقوله « كن » لا بالتولد المعلول عنه .

ولذلك قال سبحانه (وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم ، وخرقوا له بنين وبنات بغير علم ، سبحانه وتعالى عما يصفون ، بديع السموات والأرض ، أنَّى يكون له ولد ، ولم تـكن له صاحبة ؟ وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم)

فأخبر أن التولد لا يكون إلا عن أصلين ، كما تـكون النتيجة عن مقدمتين وكذلك سائر المعلولات المعلومة لا يحدث المعلول إلا باقتران ما تتم به العلة . فأما الشيء الواحد وحده فلا يكون علة ولا والداً قط ، لا يكون شيء فى هـذا العالم إلا عن أصلين ، ولو أنهما الفاعل والقابل ، كالنار والحطب والشمس والأرض ، فأما الواحد وحده فلا يصدر عنه شيء ولا يتولد .

فبين القرآن أنهم أخطأوا طريق القياس فى العلة والتولد حيث جعلوا العالم يصدر عنه بالتعليل والتولد . وكذلك قال (٥١ :٤٩ ومن كل شيء خلقنا زوجين

لعلـكم تذكرون) خلاف قولهم : إن الصادر عنه واحد . وهذا وفاء بما ذكره الله تعالى من قوله (ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا) إذ قد تكفل بذلك فى حق كل من خرج عن اتباع الرسول ، فقال تعالى (٢٥ : ١ ـ ٣٣ تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً) [فذكر] الوحدانية والرسالة إلى قوله (ويوم يعض الظالم على يديه ، يقول : يا ليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا يا ويلتى ليتنى لم اتخذ فلانا خليلا . لقد أضلنى عن الذكر بعد إذ جاءنى. وكان الشيطان للانسان خذولا) فكل من خرج عن اتباع الرسول فهو ظالم بحسب ذلك . والمبتدع ظالم بقدر ما خالف من سنته (وقال الرسول يارب إن قومى اتخذوا هذا القرآن مهجوراً . وكذلك جعلنا لكل نبى عدواً من المجرمين.وكفى بربك هاديا ونصيراً . وقال الذين كفروا : لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة ؟ كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا . ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً)

وهؤلاء الصابئة قد أتوا بمثلٍ ، وهو قولهم « الواحد لا يصدر عنه و يتولد عنه إلا واحد ، والرب واحد فلا يصدر عنه إلا واحد يتولد عنه » فأتى الله بالحق وأحسن تفسيراً ، و بين أن الواحد لايصدر عنه شىء ، ولايتولد عنه شيء أصلا ، وأنه لم يتولد عنه شىء ولم يصدر عنه شىء . ولـكن خلق كل شىء خلقا ، وأنه خلق من كل شىء زوجين اثنين . ولهذا قال مجاهد ـ وذكره البخارى في صحيحه ـ فى الشفع والوتر : « أن الشفع هو الخلق ، فكل مخلوق له نظير ، والوتر هو الله الذى لا شبيه له » فقال : (أنّى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة ؟) وذلك أن الآثار الصادرة عن العلل والمتولدات فى الموجودات لابد فيها من شيئين ، أحدهما يكون كالأب . والآخر : يكون كالأم القابلة . وقد يسمون ذلك الفاعل والقابل كالشمس مع الأرض ، والنار مع الحطب ، فأما صدور شىء واحد عن شىء واحد ، فهذا لا وجود له فى الوجود أصلا .

وأما تشبيههم ذلك بالشعاع مع الشمس، وبالصوت كالطنين مع الحركة والنقر

فهو أيضاً حجة لله ورسوله والمؤمنين عليهم . وذلك : أن الشعاع إن أريد به نفس ما يقوم بالشمس : فذلك صفة من صفاتها ، وصفات الخالق ليست مخلوقه ، ولا هي من العالم الذي فيه الكلام .

وإن أريد بالشعاع ما ينعكس على الأرض : فذلك لا بد فيه من شيئين ، وهو الشمس التي تجرى مجرى الأب الفاعل ، والأرض التي تجرى مجرى الأم القابلة ، وهي الصاحبة للشمس .

وكذلك الصوت لا يتولد إلا عن جسمين يقرع أحدهما الآخر ، أو يقلع عنه فيتولد الصوت الموجود في أجسام العالم عن أصلين يقرع أحدهما الآخر أو يقلع عنه

فمهما احتجوا به من القياس ، فالذي جاء الله به هو الحق وأحسن تفسيراً ، وأحسن بيانا وإيضاحا للحق وكشفا له .

وأيضا فجعلها علة تامة لما يحبها ، ومؤكدة له ، وموجبة له حتى يجعلونها مبادئنا ، ويجعلونها لنا كالآباء والأمهات ، وربما جعلوا العقل هو الأب ، والنفس هي الأم . وربما قال بعضهم : الوالدان العقل والطبيعة ، كما قال [ابن عربي] صاحب الفصوص في قول نوح (اغفر لي ولوالدي) أي من كنت نتيجة عنهما ، وهما العقل والطبيعة . وحتى يسمونها الأرباب والآلهة الصغرى ، ويعبدونها . وهو كفرٌ مخالف لما جاءت به الرسل .

وبهذا وصف بعض السلف الصابئة بأنهم يعبدون الملائكة . وكذلك في الكتب المعربة عن قدمائهم : أنهم كانوا يسمونها الآلهة والأرباب الصغري ، كما كانوا يعبدون الكواكب أيضاً . والقرآن ينفي أن تكون أربابا ، أو أن تكون آلهة ، ويكون لها غير ما للرسول الذي لا يفعل إلا بعد أمر مُرسِله ، ولا يشفع إلا بعد أن يؤذن له في الشفاعة . وقد رد الله ذلك على من زعمه من العرب والروم وغيرهم من الأمم ، فقاله تعالى (٣ : ٨٠ ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا ، أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون ؟) وقال تعالى (وقالوا اتخذ الرحمن ولدا ، سبحانه بل عباد مكرمون ! لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون) قال

تعالى (٣٤ : ٢٢ قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ، وما لهم فيهما من شرك ، وما له منهم من ظهير ، ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له ، حتى إذا فُزِّع عن قلوبهم ، قالوا : ماذا قال ربكم ؟ قالوا : الحق ، وهو العلى الكبير)

وقد تقدم بعض الأحاديث فى صعق الملائكة إذا قضي الله بالأمر الكونى أو بالوحى الدينى .

وقال تعالى (٢٦:٥٣ وكم من ملك فى السموات لا تغنى شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى) وقال تعالى (بل عباد مكرمون ـ الآية) وقال تعالى (٦٤:١٩ وما نتنزل إلا بأمر ربك له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك . وما كان ربك نسيا) وقال تعالى (١٧: ٥٦ ، ٥٧قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا . أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ؟ ويرجون رحمته ويخافون عذابه . إن عذاب ربك كان محذوراً) نزلت الآية فى الذين يدعون الملائكة والنبيين .

واستقصاء القول فى ذلك ليس هذا موضعه .

فإن الله سبحانه بعث محمدا صلى الله عليه وسلم بجوامع الكلم . فالكلم التى فى القرآن جامعة محيطة كُلِّية عامة لما كان متفرقا منتشراً في كلام غيره . ثم إنه يسمى كل شيء بما يدل على صفته المناسبة للحكم المذكور المبين ، وما يبين وجه دلالته .

فإن تنزيهه نفسه عن الولد والولادة واتخاذ الولد : أعم وأقوم من نفيه بلفظ العلة . فإن العلة أصلها التغيير ، كالمرض الذى يحيل البدن عن صحته ، والعليل ضد الصحيح . وقد قيل : إنه لا يقال « معلول » إلا فى الشرب ، يقال : شرب الماء عَلاًّ بعد نَهَل وعللته إذا سقيته مرة ثانية .

وأما استعمال اسم «العلة» في الموجب للشيء أو المقتضى له فهو من عرف أهل الـكلام ، وهى ـ وإن كان بينهما وبين العلة اللغوية مناسبة من جهة التغير ـ فالمناسبة في لفظ « التولد » أظهر . ولهذا كان فى الخطاب أشهر . يقول الناس : هـذا الأمر يتولد عنه كذا ، وهذا يُوَلِّد كذا ، وقد تولد عن ذلك الأمر كيت وكيت ، لـكل سبب اقتضى مسبباً من الأقوال والأعمـال ، حتى أهل الطب يقولون « الأركان والمولدات » يريدون ما يتولد عن الأصول الأربعة : التراب والماء والهواء والنار من معدن ونبات وحيوان .

فنفيه سبحانه عن نفسه أن يلد شيئاً اقتضى أن لا يتولد عنه شيء ، ونفيه أن يتخذ ولدا يقتضى أنه لم يفعل ذلك بشيء من خلقه على سبيل التـكريم ، وأن العباد لا يصلح أن يتخذ شيئاً منهم بمنزلة الولد . وهذا يبطل دعوى من يدعى مثل ذلك فى المسيح وغيره ، ومن يقول « نحن أبناء الله » ومن يقول : الفلسفة هى التشبه بالاله . فإن الولد يكون من جنس والده ويكون نظيراً له ، وإن كان فرعا له . ولهذا كان هؤلاء القائلون بهـذه المعانى من أعظم الخلق قولا بالتشبيه والتمثيل ، وجعل الانداد له والعدل والتسوية . ولهـذا كانت الفلاسفة الذين يقولون بصدور العقول والنفوس عنه على وجه التولد والتعليل يجعلونها له أنداداً ، ويتخذونهـا آلهة وأربابا ، بل قد لا يعبدون إلا إياها ، ولا يدعون سواها ، ويجعلونها هى المبدعة لما سواها مما تحتها .

فالحمد لله الذى لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك فى الملك . و (تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً الذى له ملك السموات والأرض ولم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك فى الملك وخلق كل شيء فقدره تقديراً)[1] .

---

(١) بهامش الأصل : هنا متروك محل خمسة أسطر . قال فى المسودة : يتلوه الوريقه ، ولم نجدها .

فإن هؤلاء جعلوا لله شركاء الجن وخلقهم وخرقوا له بنين و بنات بغير علم . و«الجن» قد قيل : إنه يعم الملائكة ، كما قيل فى قوله (٣٧ :١٥٨وجعلوا بينه و بين الجنة نسباً) و إن كان قد قيل في سبب ذلك : زعم بعض مشركى العرب : إن الله صاهر إلى الجن فولدت الملائكة . فقد كانوا يعبدون الملائكة أيضاً ، كما عبدتها الصابئة الفلاسفة كما قال تعالى (٤٣ :١٩ وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا ، أشهدوا خلقهم ؟ ستكتب شهادتهم و يسألون) وقال تعالى : (٣٤ : ٤٠ ، ٤١ ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للملائكة : أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون ؟ قالوا سبحانك ! أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون) يعنى أن الملائكة لم تأمرهم بذلك ، و إنما أمرتهم بذلك الجن ، ليكونوا عابدين للشياطين التى تتمثل لهم ، كما يكون للأصنام شياطين ، وكما تنزل الشياطين على بعض من يعبد الكواكب و يرصدها ، حتى تنزل عليه صورة فتخاطبه . وهو شيطان من الشياطين . ولهذا قال تعالى (٣٦ : ٦٠-٦٢ ألم أعهد إليكم يا بنى آدم أن لا تعبدوا الشيطان ؟ إنه لكم عدو مبين ، وأن اعبدونى هذا صراط مستقيم . ولقد أضل منكم جِبِلاًّ كثيراً ، أفلم تكونوا تعقلون ؟) وقال (١٧ : ٥٠ أفتتخذونه وذريته أولياء من دونى وهم لكم عدو ؟ بئس للظالمين بدلا) فهم — و إن لم يقصدوا عبادة الشيطان وموالاته — ولكنهم فى الحقيقة يعبدونه و يوالونه .

فقد تبين أن هؤلاء الفلاسفة الصّابئة المبتدعة مؤمنون بقليل مما جاءت به الرسل فى أمر الملائكة فى صفتهم وأقدارهم .

وذلك : أن هؤلاء القوم إنما سلكوا سبيل الاستدلال بالحركات الفلكية والقياس على نفوسهم ، مع ما جحدوه وجهلوه من خلق الله و إبداعه .

وسبب ذلك : ما ذكره طائفة ممن جمع أخبارهم : أن أساطينهم الأوائل — كفيثاغورس وسقراط وأفلاطن — كانوا يهاجرون إلى أرض الأنبياء بالشام ،

ويتلقون عن لقمان الحكيم ومن بعده من أصحاب داود وسليمان ، وأن إرسطو لم يسافر إلى أرض الأنبياء ، ولم يكن عنده من العلم بأثارة الأنبياء ما عند سلفه . وكان عنده قدر يسير من الصّابئية الصحيحة [(١)] فابتدع لهم هذه التعاليم القياسية وصارت قانونا مشى عليه أتباعه ، واتفق أنه قد يتكلم فى طبائع الأجسام ، أو فى صورة المنطق أحياناً بكلام صحيح .

وأما الأولون فلم يوجد لهم مذهب تام مبتدع ، بمنزلة مبتدعة المتكلمين فى المسلمين ، مثل أبى الهذيل وهشام بن الحكم ونحوهما ، ممن وضع مذهباً فى أبواب أصول الدين ، فاتبعه على ذلك طائفة . إذ كان أئمة المسلمين ـ مثل مالك وحماد ابن زيد والثورى ونحوهم ـ إنما تكلموا بما جاءت به الرسالة وفيه الهدى والشفاء فمن لم يكن له علم بطريق المسلمين يعتاض عنه بما عند هؤلاء . وهذا سبب ظهور البدع فى كل أمة ، وهو خفاء سنن المرسلين فيهم . وبذلك يقع الهلاك . ولهذا كانوا يقولون : الاعتصام بالسنة نجاة ، قال مالك رحمه الله : « السنة مثل سفينة نوح ، من ركبها نجا ، ومن تخلف عنها هلك » وهذا حق . فإن سفينة نوح إنما ركبها من صدق المرسلين واتبعهم ، وأن من لم يركبها فقد كذب المرسلين . واتباع السنة هو اتباع الرسالة التى جاءت من عند الله ، فتابعها بمنزلة من ركب مع نوح السفينة باطناً وظاهراً . والمتخلف عن اتباع الرسالة ، بمنزلة المتخلف عن اتباع نوح عليه السلام وركوب السفينة معه .

وهكذا إذا تدبر المؤمن العليم سائر مقالات الفلاسفة وغيرهم من الأمم التى فيها ضلال وكفر ، وجد القرآن والسنة كاشفان لأحوالهم ، مبينان لحقهم ، مميزين بين حق ذلك وباطله . والصحابة كانوا أعلم الخلق بذلك ، كما كانوا أقوم الخلق بجهاد الكفار والمنافقين ، كما قال فيهم عبد الله بن مسعود « من كان منكم

---

(١) لعله يقصد دين الصابئة الأصلي . لأنه ليس فى الصابئة شيء صحيح .

مستناً فليستن بمن قد مات ، فإن الحى لاتومن عليه الفتنة ، أولئك أصحاب محمد : كانوا أبر هذه الأمة قلوباً ، وأعمقها علماً ، وأقلها تكلفاً ، قوم اختارهم الله لصحبة نبيه وإقامة دينه ، فاعرفوا لهم حقهم ، وتمسكوا بهديهم ، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم » .

فأخبر عنهم بكمال بر القلوب ، مع كمال عمق العلم . وهذا قليل فى المتأخرين، كما يقال : من العجائب فقيه صوفى ، وعالم زاهد ونحو ذلك ، فإن أهل برّ القلوب وحسن الإرادة وصلاح المقاصد يحمدون على سلامة قلوبهم من الإرادات المذمومة ويُقْرن بهم كثيراً عدمُ المعرفة ، وإدراك حقائق أحوال الخلق التى توجب الذم للشر والنهى عنه ، والجهاد فى سبيل الله ، وأهل التعمق فى العلوم قد يدركون من معرفة الشرور والشبهات ما يوقعهم فى أنواع الغى والضلالات ، وأصحاب محمد كانوا أبر الخلق قلوباً وأعمقهم علماً .

ثم إن أكثر المتعمقين فى العلم من المتأخرين يقترن بتعمقهم التكلف المذموم من المتكلمين والمتعبدين ، وهو القول والعمل بلا علم، وطلب مالا يدرك ، وأصحاب محمد كانوا — مع أنهم أكمل الناس علماً نافعاً وعملا صالحاً — أقل الناس تكلفاً ، يصدر عن أحدهم الكلمة والكلمتان من الحكمة أو من المعارف ، ما يهدى الله بها أمة ، وهذا من منن الله على هذه الأمة . وتجد غيرهم يحشون الأوراق من التكلفات والشطحات (١) ، ما هو من أعظم الفضول المبتدعة ، والآراء المخترعة ، لم يكن لهم فى ذلك سلف إلا رعونات النفوس المتلقاة ممن ساء قصده فى الدين .

ويروى أن الله سبحانه قال للمسيح « إنى سأخلق أمة أفضلها على كل أمة وليس لها علم ولا حلم ، فقال المسيح : أى رب ، كيف تفضلهم على جميع الأمم ،

---

(١) ما خرج عن قوانين الشرع والتعقل بسبب شعوذات الصوفية .

وليس لهم علم ولا حلم ؟ قال : أهبهم من علمى وحلمى » وهذا من خواص متابعة الرسول . فأيهم كان له أتبع كان في ذلك أكمل ، كما قال تعالى (٥٧ : ٢٨، ٢٩ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ، ويجعل لكم نوراً تمشون به ويغفر لكم . والله غفور رحيم ، لئلا يعلم أهل الكتاب أن لا يقدرون على شيء من فضل الله ، وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم) وكذلك فى الصحيحين من حديث أبي موسى وعبد الله بن عمر « مثلنا ومثل الأمم قبلنا : كالذى استأجر أجراء ، فقال : من يعمل لى إلى نصف النهار على قيراط قيراط ؟ فعملت اليهود ، ثم قال : من يعمل لى إلى صلاة العصر على قيراط قيراط ، فعملت النصارى ، ثم قال : من يعمل لى إلى غروب الشمس على قيراطين قيراطين ؟ فعملت المسلمون . فغضبت اليهود والنصارى ، وقالوا : نحن أكثر عملا وأقل أجراً ؟ قال : فهل ظلمتكم من حقكم شيئاً ؟ قالوا : لا ، قال : فهو فضلى أوتيه من أشاء »

فدل الكتاب والسنة على أن الله يؤتى أتباع هذا الرسول من فضله ما لم يؤته لأهل الكتابين قبلهم ، فكيف بمن هو دونهم من الصابئة ؟ دع مبتدعة الصابئة من المتفلسفة ونحوهم .

ومن المعلوم : أن أهل الحديث والسنة أخص بالرسول واتباعه . فلهم من فضل الله وتخصيصه إياهم بالعلم والحلم وتضعيف الأجر ماليس لغيرهم ، كما قال بعض السلف : أهل السنة فى الإسلام كأهل الإسلام فى الملل .

فهذا الكلام تنبيه على مايظنه أهل الجهالة والضلالة من نقص الصحابة فى العلم والبيان ، أو اليد والسنان . و بسط هذا لا يتحمله هذا المقام .

والمقصود : التنبيه على أن كل من زعم بلسان حاله أو مقاله : أن طائفة غير أهل الحديث أدركوا من حقائق الأمور الباطنة الغيبية فى أمر الخلق والبعث والمبدأ والمعاد ، وأمر الإيمان بالله واليوم الآخر ، وتعرف واجب الوجود، والنفس

الناطقة والعلوم والأخلاق التى تزكو بها النفوس وتصلح وتكمل ، دون أهل الحديث فهو ـ إن كان من المؤمنين بالرسل ـ فهو جاهل ، فيه شعبة قوية من شعب النفاق ، و إلا فهو منافق خالص من الذين (٢ : ١٣ إذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا : أنؤمن كما آمن السفهاء ؟ ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون) وقد يكون من (٤٠ : ٣٥ الذين يجادلون فى آيات الله بغير سلطان أتاهم) ومن (٤٢ :١٦ الذين يحاجون فى الله من بعد مااستجيب له حجتهم داحضة عند ربهم وعليهم غضب ولهم عذاب شديد) .

وقد يبين ذلك بالقياس العقلى الصحيح الذى لا ريب فيه ، و إن كان ذلك ظاهراً بالفطرة لكل سليم الفطرة ، فإنه متى كان الرسول أكمل الخلق وأعلمهم بالحقائق ، وأقومهم قولاً وحالاً : لزم أن يكون أعلمُ الناس به أعلمَ الخلق بذلك وأن يكون أعظمُهم موافقة له واقتداء به أفضلَ الخلق .

ولا يقال : هذه الفطرة يغيرها مايوجد فى المنتسبين إلى السنة والحديث من تفريط وعدوان ، لأنه يقال : إنَّ ذلك فى غيرهم أكثر ، والواجب مقابلة الجملة بالجملة فى المحمود والمذموم ، هذه هى المقابلة العادلة .

و إنما غَيَّر الفطرة قلة المعرفة بالحديث والسنة واتباع ذلك ، مع ما يوجد فى المخالفين لها من نوع تحقيق لبعض العلم ، و إحسان لبعض العمل . فيكون ذلك شبهة فى قبول غيره وترجيح صاحبه . ولا غرض لنا فى ذكر الأشخاص .

وقد ذكر أبو محمد بن قتيبة فى أول كتاب « مختلف الحديث » وغيره من العلماء فى هذا الباب مالا يحصى من الأمور المبينة لما ذكرناه .

و إنما المقصود : ذكر نفس الطريقة العلمية والعملية ، التى تُعَرِّف بحقائق الأمور الخبرية النظرية وتوصل إلى حقائق الامور الإرادية العملية . فمتى كان غير الرسول قادراً على علم بذلك أو بيان له أو محبة لإفادة ذلك ، فالرسول أعلم بذلك وأحرص على الهدى ، وأقدر على بيانه منه . وكذلك أصحابه من بعده

وأتباعهم . وهذه صفات الكمال والعلم والإرادة والإحسان والقدرة عليه ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم فى دعاء الاستخارة « اللهم إنى أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك ، وأسألك من فضلك العظيم . فإنك تقدر ولا أقدر ، وتعلم ولا أعلم ، وأنت علام الغيوب » فعلّمنا صلى الله عليه وسلم أن نستخير الله بعلمه ، فيعلمنا من علمه ما نعلم به الخير ، ونستقدره بقدرته ، فيجعلنا قادرين . إذ الاستفعال هو طلب الفعل ، كما قال فى الحديث الصحيح يقول الله تعالى « ياعبادى كلكم جائع إلا من أطعمته ، فاستطعمونى أطعمكم ، يا عبادى كلكم ضال إلا من هديته ، فاستهدونى أهدكم » فاستهداء الله طلب أن يهدينا ،واستطعامه طلبُ أن يطعمنا هذا قوت القلوب ، وهذا قوت الأجسام ، وكذلك استخارته بعلمه واستقداره بقدرته . ثم قال « وأسألك من فضلك العظيم » فهذا السؤال من جوده وَمَنِّه وعطائه وإحسانه الذى يكون بمشيئته ورحمته وحنانه . ولهذا قال « فإنك تقدر ولا أقدر ، وتعلم ولا أعلم » ولم يقل : إنى لا أرحم نفسى ، لأنه فى مقام الاستخارة يريد الخير لنفسه ويطلب ذلك . لكنه لا يعلمه ولا يقدر عليه ، إن لم يعلمه الله إياه ويقدره عليه .

فإذا كان الرسول أعلم الخلق بالحقائق الخبرية والطلبية ، وأحب الخلق للتعليم والهداية والإفادة ، وأقدر الخلق على البيان والعبارة : امتنع أن يكون مَنْ هو دونه أفاد خواصه معرفة الحقائق أعظم مما أفادها الرسول لخواصه . فامتنع أن يكون عند أحد من الطوائف من معرفة الحقائق ماليس عند علماء الحديث ، وإذا لم يكن فى الطوائف من هو أعلم بالحقائق وأبين لها منه : وجب أن يكون كل ما يذمون به من جهل بعضهم هو فى طائفة المخالف الذام لهم أكثر . فيكون الذام لهم جاهلا ظالماً ، فيه شعبة نفاق ، إذا كان مؤمناً ، وهذا هو المقصود .

ثم إن هذا الذى بيناه مشهود بالقلب ، أعلم ذلك فى كل أحد ممن أعرف مفصلا ، وهذه جملة يمكن تفصيلها من وجوه كثيرة لكن ليس هذا موضعه .

فصل

وأما قول من [1] قال :إن الحشوية علي ضربين ، أحدهما : لا يتحاشى من الحشو والتشبيه والتجسيم . والآخر : تستر بمذهب السلف . ومذهب السلف إنما هو التوحيد والتنزيه دون التشبيه والتجسيم ، وكذا جميع المبتدعة يزعمون هذا فيهم ، كما قال القائل :

وكل يدعى وصلاً لليلى ... وليلى لاتقر لهم بذا كا

فهذا الكلام فيه حق و باطل .

فمن الحق الذى فيه : ذم من يمثل الله بمخلوقاته ويجعل صفاته من جنس صفاتهم . وقد قال الله تعالى (ليس كمثله شيء) وقال تعالى (ولم يكن له كفواً أحد) وقال (هل تعلم له سمياً ؟) .

وقد بسطنا القول فى ذلك وذكرنا الدلالات العقلية التى دل عليها كتاب الله فى نفى ذلك ، و بينا منه ما لم يذكره النفاة الذين يَتَّسِمُون بالتنزيه ،ولا يوجد

---

(١) هو العز عبد العزيز بن عبد السلام ، وهو متقدم عن زمن شيخ الإسلام ابن تيميه . فبين وفاتيهما ٦٨ سنة واعتراضه على السلف عامة والحنابلة خاصة . وكلامه هذا قاله فى عقيدته المشهورة. وقد ذكرها السبكى فى طبقاته فى ترجمته وذكر أنه كتبها جوابا لمن سأله من بعض الحنابلة فى مسئلة الكلام (انظر ج ٥ ص ٨٥ من طبقات الشافعية) والكلام الذى نقله الشيخ هنا هو فى ص ٨٨ وقد أخذه ابن جهبل الحلبي وضمنه فى رده على الفتوي الحموية ، ثم حاء المدراسى محمد بن سعيد ، فأخذ رسالة أحمد بن يحيي الحلبي الشهير بابن جهبل وكتب كتابا يرد به على شيخ الإسلام ابن تيميه والحافظ الذهبي، فقام المحقق العلامة الشيخ أحمد بن ابراهيم بن عيسى، ورد على المدراسى والحلبى بكتاب « تنبيه النبيه والغبى » جزاه الله خيرا . وهو كتاب مفيد جداً طبعه الشيخ عبد القادر التلمسانى فى « مجموعة الرد الوافر » ولله الحمد . ورسالة الحلبى المذكورة فى ترجمته فى طبقات السبكى ج ٥ص١٨١ فقدذكرها السبكى بكمالها . وكتبه سليمان الصنيع .

فى كتبهم ، ولا يسمع من أئمتهم ، بل عامة حججهم التى يذكرونها حجج ضعيفة . لأنهم يقصدون إثبات حق و باطل ، فلا يقوم على ذلك حجة مطردة سليمة عن الفساد ، بخلاف من اقتصد فى قوله وتحرى القول السديد . فإن الله يصلح عمله ، كما قال تعالى (٣٣ : ٧٠ ، ٧١ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً يصلح لكم أعمالكم و يغفر لكم ذنوبكم) .

وفيه من الحق الاشارة إلى الرد على من انتحل مذهب السلف ، مع الجهل بمقالهم أو المخالفة لهم بزيادة أو نقصان . فتمثيل الله بخلقه والكذب على السلف من الأمور المنكرة ، سواء سمى ذلك حشواً أو لم يسم . وهذا يتناول كثيراً من غالية المثبتة الذين يروون أحاديث موضوعة فى الصفات ، مثل حديث عرق الخيل[(١)] ونزوله عشية عرفة على الجمل الأورق حتى يصافح المشاة و يعانق الركبان، وتجليه لنبيه فى الأرض ، أو رؤيته له على كرسى بين السماء والأرض ، أو رؤيته إياه فى الطواف أو فى بعض سكك المدينة ـ إلى غير ذلك من الأحاديث الموضوعة

فقد رأيت من ذلك أموراً من أعظم المنكرات والكفران . وأحضر لى غير واحد من الناس من الأجزاء والكتب ما فيه من ذلك ما هو من الافتراء على الله وعلى رسوله . وقد وضع لتلك الأحاديث أسانيد ، حتى إن منهم من عمد إلى كتاب صنفه الشيخ أبو الفرج المقدسى[(٢)] فيما يمتحن به السنى من البدعى . فجعل ذلك الكتاب مما أوحاه الله إلى نبيه ليلة المعراج، وأمره أن يمتحن به الناس

---

(١) الحديث الذى وضعه محمد بن شجاع الثلجى الحنفى الجهمى مات سنة ٢٦٦ هـ له ترجمة فى الميزان للذهبي . ولفظ الحديث المكذوب «إن الله خلق خيلا فأجراها فعرقت ثم خلق نفسه منها » قبح الله واضعه .

(٢) هو أبو الفرج عبد الواحد بن محمد بن على بن أحمد الشيرازى ثم المقدسى ثم الدمشقى الانصارى السعدى العبادى الخزرجى شيخ الشام فى وقته له ترجمة حافلة فى طبقات أبى يعلى وطبقات ابن رجب مات سنة ٤٨٦ .

فمن أقرَّ به فهو سني ، ومن لم يقر به فهو بدعي . وزادوا فيه على الشيخ أبى الفرج أشياء لم يقلها هو ولا عاقل . والناس المشهورون قد يقول أحدهم من المسائل والدلائل ما هو حق أو فيه شبهة حق . فإذا أخذ الجهال ذلك فغيروه صار فيه من الضلال ما هو من أعظم الإفك والمحال .

والمقصود : أن كلامه (١) فيه حق وفيه من الباطل أمور :

أحدها : قوله « لا يتحاشي من الحشو والتجسيم » ذم للناس بأسماء ما أنزل الله بها من سلطان . والذى مدحُه زين وذمه شَين : هو الله . والأسماء التى يتعلق بها المدح والذم من الدين : لا تكون إلا من الأسماء التى أنزل الله بها سلطانه ، ودل عليها الكتاب والسنة أو الاجماع ، كالمؤمن والكافر ، والعالم والجاهل ، والمقتصد والملحد . فأما هذه الألفاظ الثلاثة فليست فى كتاب الله ، ولا فى حديث عن رسول الله ، ولا نطق بها أحد من سلف الأمة وأئمتها لا نفياً ولا إثباتاً . وأول من ابتدع الذم بها المعتزلة الذين فارقوا جماعة المسلمين ، فاتباعُ سبيل المعتزلة دون سبيل سلف الأمة ترك للقول السديد الواجب فى الدين ، واتباع لسبيل المبتدعة الضالين . وليس فيها ما يوجد عن بعض السلف ذمه إلا لفظ «التشبيه» فلو اقتصر عليه لكان له قدوة من السلف الصالح (٢) ولو ذَكَر الأسماء التى نفاها الله فى القرآن مثل لفظ « الكفر ، والند ، والسمي » وقال : منهم من لا يتحاشى من التمثيل ونحوه : لكان قد ذم بقول نفاه الله فى كتابه ، ودل القرآن على ذم قائله ثم ينظر : هل قائله موصوف بما وصفه به من الذم أم لا ؟.

فأما الأسماء التى لم يدل الشرع على ذم أهلها ولا مدحهم فيحتاج فيها إلى مقامين .

---

(١) كلام العز بن عبد السلام

(٢) وفاعل «ذكر» هو المردود عليه الذى سبق نقل كلامه فى أول الفصل هو العز عبد العزيز بن السلام . وكتبه سليمان الصنيع .

أحدهما : بيان المراد بها . والثانى : بيان أن أولئك مذمومون فى الشريعة .

والمعترض عليه له أن يمنع المقامان ، فيقول: لا نسلم أن الذين عنيتهم داخلون فى هذه الأسماء التى ذممتها ، ولم يقم دليل شرعى على ذمها ، وإن دخلوا فيها . فلا نسلم أن كل من دخل فى هذه الأسماء فهو مذموم فى الشرع .

الوجه الثانى : أن هذا الضرب الذى قلت : « إنه لا يتحاشى من الحشو والتشبيه والتجسيم » إما أن تدخل فيه مثبتة الصفات الخبرية [1] التى دل عليها الكتاب والسنة أو لا تدخلهم . فإن أدخلتهم كنت ذاماً لكل من أثبت الصفات الخبرية . ومعلوم أن هـذا مذهب عامة السلف ، ومذهب أئمة الدين ، بل أئمة المتكلين يثبتون الصفات الخبرية فى الجملة ، وإن كان لهم فيها طرق ، كأبى سعيد ابن كُلَّاب ، وأبى الحسن الأشعرى وأئمة أصحابه ، كأبى عبد الله بن مجاهد [2] ، وأبى الحسن الباهلى [3] والقاضى أبى بكر بن الباقلانى ، وأبى إسحق الاسفراينى [4] وأبى بكر بن فَوْرك [5] وأبى محمد بن اللبان [6] وأبى على بن شاذان [7] وأبى

(١) التى ثبتت بخبر الله ورسوله فى القرآن والحديث .

(٢) أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن يعقوب بن مجاهد الطائى المتكلم صاحب أبى الحسن الأشعرى، ترجمه الخطيب البغدادى فى تاريخه. وعنه نقل صاحب كتاب تبيين كذب المفترى ص ١٧٧ .

(٣) أحد تلامذة أبى الحسن الأشعرى ذكره ابن عساكر فى كتابه تبيين كذب المفترى ص ١٧٨ .

(٤) أبو اسحق ابراهيم بن محمد بن ابراهيم الشيرازى الأشعرى توفى سنة ٤١٨ هـ ذكره ابن عساكر فى كتابه المذكور آنفا ص ٢٤٣ .

(٥) أبو بكر محمد بن الحسن بن فورك صاحب أبى الحسن الأشعرى المتوفى سنة ٤٠٦ هـ ذكره ابن عساكر ص ٢٣٢ .

(٦) أبو محمد عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن أحمد المعروف بابن اللبان مات سنة ٤٤٦ هـ ذكره ابن عساكر ص ٢٦١ .

(٧) أبو على الحسن بن أحمد بن إبراهيم بن الحسن بن محمد بن شاذان مات سنة ٤٢٦ هـ .

القاسم القشيرى ، وأبى بكر البيهقى وغير هؤلاء ، فما من هؤلاء إلا من يثبت من الصفات الخبرية ماشاء الله تعالى . وعماد المذهب عنهم : إثبات كل صفة فى القرآن وأما الصفات التى فى الحديث : فمنهم من يثبتها ومنهم من لايثبتها .

فإذا كنت تذم جميع أهل الإثبات من سلفك وغيرهم ، لم يبق معك إلا الجهمية من المعتزلة ومن وافقهم على نفى الصفات الخبرية من متأخرى الأشعرية ونحوهم . ولم تذكر حجة تعتمد .

فأى ذم اقوم فى أنهم لايتحاشون مماعليه سلف الأمة وأئمتها وأئمة الذام لهم؟

وإن لم تدخل فى اسم الحشوية من يثبت الصفات الخبرية ، لم ينفعك هذا الكلام ، بل قد ذكرت أنت فى غير هذا الموضع هذا القول .

وإذا كان الكلام لا يخرج به الإنسان عن أن يذم نفسه ، أو يذم سلفه — الذين يقر هو بإمامتهم ، وأنهم أفضل ممن اتبعهم — كان هو المذموم بهذا الذم على التقديرين . وكان له نصيب من الخوارج الذين قال النبى صلى الله عليه وسلم لأولهم : « لقد خبتَ وخسرتَ ، إن لم أعدل » يقول : إذا كنت مقراً بأني رسول الله ، وأنت تزعم أني أظلم ، فأنت خائب خاسر . وهكذا من ذَمَّ من يقر بأنهم خيار الأمة وأفضلها ، وأن طائفته إنما تلقت العلم والإيمان منهم . هو خائب خاسر فى هذا الذم . وهذه حال الرافضة فى ذم الصحابة .

الوجه الثالث : قوله « والآخر يتستر بمذهب السلف » إن أردت بالتستر الاستخفاء بمذهب السلف ، فيقال : ليس مذهب السلف مما يتستر به إلا فى بلاد أهل البدع ، مثل بلاد الرافضة والخوارج . فإن المؤمن المستضعف هناك قد يكتم إيمانه واستنانه ، كما كتم مؤمن آل فرعون إيمانه ، وكما كان كثير من المؤمنين يكتم إيمانه . حين كانوا فى دار الحرب .

فإن كان هؤلاء فى بلد أنت لك فيه سلطان — وقد تستروا بمذهب السلف — فقد ذممت نفسك ، حيث كنت من طائفة يستر مذهب السلف عندهم ، وإن

كنت من المستضعفين المستترين بمذهب السلف فلا معنى لذم نفسك . وإن لم تكن منهم ولا من الملأ فلا وجه لذم قوم بلفظ « التستر » .

وإن أردت بالتستر : أنهم يَجْتَنُّونَ به[1] ويتقون به غيرهم ويتظاهرون به حتى إذا خوطب أحدهم قال : أنا على مذهب السلف — وهذا الذى أراده . والله أعلم — فيقال له : لا عيب على من أظهر مذهب السلف وانتسب إليه واعتزى إليه بل يجب قبول ذلك منه بالاتفاق . فإن مذهب السلف لا يكون إلا حقاً . فإن كان موافقاً له باطناً وظاهراً فهو بمنزلة المؤمن الذي هو على الحق باطناً وظاهراً . وإن كان موافقا له فى الظاهر فقط دون الباطن ، فهو بمنزلة المنافق فتقبل منه علانيته وتوكل سريرته إلى الله . فإنا لم نؤمر أن ننقب عن قلوب الناس ولا نشق بطونهم .

وأما قوله[2] « مذهب السلف إنما هو التوحيد والتنزيه دون التجسيم والتشبيه » .

فيقال له : لفظ « التوحيد والتنزيه والتشبيه والتجسيم » ألفاظ قد دخلها الاشتراك بسبب اختلاف اصطلاحات المتكلمين وغيرهم . وكل طائفة تعنى بهذه الأسماء مالا يعنيه غيرهم. فالجهمية من المعتزلة وغيرهم يريدون بالتوحيد والتنزيه : نفى جميع الصفات ، وبالتجسيم والتشبيه : إثبات شىء منها ، حتى إن من قال« إن الله يُرى » أو «إن له علماً » فهو عندهم مشبه مجسم. وكثير من المتكلمة الصفاتية يريدون بالتوحيد والتنزيه : نفى الصفات الخبرية أو بعضها ، وبالتجسيم والتشبيه إثباتها أو بعضها . والفلاسفة تعنى بالتوحيد : ما تعنيه المعتزلة وزيادة ، حتى يقولون ليس له إلا صفة سلبية أو إضافية ، أو مركبه منهما[3] ، والاتحادية تعنى

---

(١) يجتنون أى يجعلونه جنة وستراً وترساً لهم .

(٢) أى العز عبد العزيز بن عبد السلام . (٣) أى التى تنفى عندهم ، كالقدم سلب الأولية والاضافية ، كرب العالمين مثلا . والمركبة منهما كمخالفته للحوادث .

بالتوحيد : أنه هو الوجود المطلق ، ولغير هؤلاء فيه اصطلاحات أخرى .

وأما التوحيد الذى بعث الله به الرسل وأنزل به الكتب : فليس هو متضمنا شيئاً من هذه الاصطلاحات ، بل أمر الله عباده أن يعبدوه وحده لا يشركوا به شيئا. فلا يكون لغيره نصيب فيما يختص به من العبادة وتوابعها ـ هذا فى العمل ، وفى القول : هو الإيمان بما وصف به نفسه ووصفه به رسوله .

فإن كنت(١) تعنى أن مذهب السلف : هو التوحيد بالمعنى الذى جاء به الكتاب والسنة : فهذا حق . وأهل الصفات الخبرية لا يخالفون هذا .

وإن عنيت أن مذهب السلف : هو التوحيد والتنزيه الذى يعنيه بعض الطوائف : فهذا يعلم بطلانه كل من تأمل أقوال السلف الثابتة عنهم ، الموجودة فى كتب آثارهم ، فليس فى كلام أحد من السلف كلمة توافق ما تختص به هذه الطوائف ، ولا كلمة تنفى الصفات الخبرية .

ومن المعلوم : أن مذهب السلف إن كان يعرف بالنقل عنهم فليرجع فى ذلك إلى الآثار المنقولة عنهم ، وإن كان إنما يعرف بالاستدلال المحض بأن يكون كل من رأى قولا عنده هو الصواب قال «هذا قول السلف ، لأن السلف لا يقولون إلا الصواب ، وهذا هو الصواب » فهذا هو الذى يجرىء المبتدعة على أن يزعم كل منهم : أنه على مذهب السلف ، فقائل هذا القول قد عاب نفسه بنفسه حيث انتحل مذهب السلف بلا نقل عنهم ، بل بدعواه : أن قوله هو الحق .

وأما أهل الحديث : فإنما يذكرون مذهب السلف بالنقول المتواترة ، يذكرون من نقل مذهبهم من علماء الإسلام ، وتارة يروون نفس قولهم فى هذا الباب ، كما سلكناه فى جواب الاستفتاء(٢) .

---

(١) خطاب لذلك المعترض ، وهو العز بن عبد السلام .

(٢) كأنه يعنى به الفتوى الحموية ؛ وقد كان وقعها على المخالفين وقع الصواعق ، فقد أجلبوا بسببها على الشيخ بخيلهم ورجلهم ، ثم هزمهم فارتدوا على أعقابهم صاغرين . ونصر الله الشيخ عليهم والحمد لله رب العالمين .

فإنا لما أردنا أن نبين مذهب السلف ذكرنا طريقين .أحدهما : أنا ذكرنا ما تيسر من ذكر ألفاظهم ، ومن روى ذلك من أهل العلم بالأسانيد المعتبرة.

والثانى : أنا ذكرنا من نقل مذهب السلف من جميع طوائف المسلمين من طوائف الفقهاء الأربعة ، ومن أهل الحديث والتصوف ، وأهل الكلام كالأشعرى وغيره .

فصار مذهب السلف منقولا بإجماع الطوائف و بالتواتر ، لم نثبته بمجرد دعوى الإصابة لنا والخطأ لمخالفنا ، كما يفعل أهل البدع .

ثم لفظ « التجسم » لا يوجد فى كلام أحد من السلف لا نفياً ولا إثباتاً ، فكيف يحل أن يقال : مذهب السلف نفى التجسيم أو إثباته ، بلا ذكر لذلك اللفظ ولا لمعناه عنهم .

وكذلك لفظ « التوحيد » بمعنى نفى شىء من الصفات لا يوجد فى كلام أحد من السلف .

وكذلك لفظ « التنزيه » بمعنى نفى شىء من الصفات الخبرية لا يوجد فى كلام أحد من السلف .

نعم لفظ «التشبيه» موجود في كلام بعضهم وتفسيره معه، كما قد كتبناه عنهم وأنهم أرادو بالتشبيه تمثيل الله بخلقه ، دون نفى الصفات التى فى القرآن والحديث

وأيضا فهذا الكلام لو كان حقا فى نفسه لم يكن مذكورا بحجة تتبع . وإنما هو مجرد دعوى على وجه الخصومة التى لا يعجز عنها من يستجيز ويستحسن أن يتكلم بلا علم ولا عدل .

ثم إنه يدل على قلة الخبرة بمقالات الناس من أهل السنة والبدعة فإنه قال[١] « وكذا جميع المبتدعة يزعمون أنهم على مذهب السلف » فليس الأمر كذلك ،

---

(١) القائل الذى تقدم بدء كلامه فى أول الفصل هو العز بن عبد السلام .

بل الطوائف المشهورة بالبدعة ، كالخوارج والروافض لا يدعون أنهم علي مذهب السلف ، بل هؤلاء يكفرون جمهور السلف . فالرافضة تطعن فى أبى بكر وعمر وعامة السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان وسائر أئمة الإسلام . فكيف يزعمون أنهم على مذهب السلف ؟ ولكن ينتحلون مذهب أهل البيت كذبا وافتراء .

وكذلك الخوارج قد كفروا عثمان وعليا ، وجمهور المسلمين من الصحابة والتابعين ، فكيف يزعمون أنهم على مذهب السلف ؟ .

الوجه الرابع[1] : أن هذا الاسم ليس له ذكر فى كتاب الله ولا سنة رسوله ولا كلام أحد من الصحابة والتابعين، ولا من أئمة المسلمين ،ولا شيخ أو عالم مقبول عند عموم الأمة . فإذا لم يكن ذلك لم يكن فى الذم به لا نص ولا إجماع ولاما يصلح تقليده للعامة . فإذا كان الذم بلا مستند للمجتهد ولا للمقلدين عموما نكا فى غاية الفساد والظلم . إذ لو ذم به بعض من يصلح لبعض العامة تقليده لم يكن له أن يحتج به ، إذ المقلد الآخر لمن يصلح له تقليده لا يذم به .

ثم مثل أبى محمد وأمثاله لم يكن يستحل أن يتكلم فى كثير من فروع الفقه بالتقليد ، فكيف يجوز له التكلم فى أصول الدين بالتقليد ؟

والنكتة : أن الذام به إما مجتهد وإما مقلد ، أما المجتهد فلا بد له من نص أو إجماع أو دليل يستنبط من ذلك . فإن الذم والحمد من الأحكام الشرعية. وقد قدمنا بيان ذلك . وذكرنا أن الحمد والذم والحب والبغض ، والوعد والوعيد ، والموالاة والمعاداة ونحو ذلك : من أحكام الدين لا يصلح إلا بالأسماء التى أنزل الله بها سلطانه . فأما تعليق ذلك بأسماء مبتدعة فلا يجوز ، بل ذلك من باب شرع دين لم يأذن به الله . وإنه لا بد من معرفة حدود ما أنزل الله على رسوله .

(١) فى الأصل « الثانى » .

والمعتزلة أيضا تفسق من الصحابة والتابعين طوائف ، وتطعن فى كثير منهم وفيما رووه من الأحاديث التى تخالف آراءهم وأهواءهم ، بل تكفر أيضـا من يخالف أصولهم التى انتحلوها من السلف والخلف ، فلهم من الطعن فى علمـاء السلف وفى علمهم ما ليس لأهل السنة والجماعة. وليس انتحال مذهب السلف من شعائرهم و إن كانوا يقررون خلافة الخلفاء الأربعة . ويعظمون من أئمة الإسلام وجمهورهم مالا يعظمه أولئك[1] فلهم من القدح فى كثير منهم ما ليس هذا موضعه . وللنظّام[2] من القدح فى الصحابة ما ليس هذا موضعه .

و إن كان من أسباب انتقاص هؤلاء المبتدعة للسلف ما حصل فى المنتسبين إليهم من نوع تقصير وعدوان ، وما كان من بعضهم من أمور اجتهادية ، الصواب فى خلافها ، فإن ما حصل من ذلك صار فتنة للمخالف لهم ، ضل به ضلالا كبيرا

فالمقصود هنا : أن المشهورين من الطوائف بين أهل السنة والجماعة العامة بالبدعة [3] ليسوا منتحلين للسلف بل أشهر الطوائف بالبدعة : الرافضة ، حتى إن العامة لا تعرف من شعـائر البدع إلا الرفض ، والسنى فى اصطلاحهم : من لا يكون رافضيا . وذلك أنهم أكثر مخالفة للاحاديث النبوية ولمعانى القرآن ، وأكثر قدحا فى سلف الأمة وأئمتها ، وطعنا فى جمهور الأمة من جميع الطوائف . فلما كانوا أبعد عن متابعة السلف كانوا أشهر بالبدعة .

فعلم أن شعار أهل البدع : هو ترك انتحال اتباع السلف . ولهذا قال الإمام

---

(١) يعنى الشيعة الروافض أو الخوارج .

(٢) هو أبو اسحاق ابراهيم بن سيار بن هانىء الشهير بالنظام مات سنة بضع وعشرين ومائتين فى خلافة المعتصم . وقد ذكر شيئاً من قبـائحه وطعنه فى الصحابة عبد القاهر الجرجانى فى الفرق بين الفرق . والشهرستانى فى الملل والنحل . وكتبه سليمان الصنيع .

(٣) متعلق بالمشهورين أى المشهورون بالبدعة عند أهل السنة والجماعة ليسوا منتحلين للسلف

أحمد فى رسالة عبدوس بن مالك[1] « أصول السنة عندنا التمسك بما كان عليه أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ».

وأما متكلمة أهل الإثبات من الكلابية والكرامية والأشعرية مع الفقهاء والصوفية وأهل الحديث : فهؤلاء فى الجملة لا يطعنون فى السلف ، بل قد يوافقونهم فى أكثر جمل مقالاتهم ، لكن كل من كان بالحديث من هؤلاء أعلم ، كان بمذهب السلف أعلم وله أتبع . وإنما يوجد تعظيم السلف عند كل طائفة بقدر استغنائها ، وقلة ابتداعها .

أما أن يكون انتحال السلف من شعائر أهل البدع : فهذا باطل قطعا . فإن ذلك غير ممكن إلا حيث يكثر الجهل ويقل العلم .

يوضح ذلك : أن كثيراً من أصحاب أبي محمد من أتباع أبي الحسن الأشعرى يصرحون بمخالفة السلف فى مثل مسألة الإيمان ، ومسألة تأويل الآيات والأحاديث يقولون « مذهب السلف : أن الإيمان قول وعمل يزيد وينقص . وأما المتكلمون من أصحابنا: فمذهبهم كيت وكيت » وكذلك يقولون «مذهب السلف : أن هذه الآيات والأحاديث الواردة فى الصفات لا تتأول . والمتكلمون يريدون تأويلها إما وجوبا وإما جوازاً » ويذكرون الخلاف بين السلف وبين أصحابهم المتكلمين هذا منطوق ألسنتهم ومسطور كتبهم .

أفلا عاقل يعتبر ومغرور يزدجر : أن السلف ثبت عنهم ذلك حتى بتصريح المخالف ، ثم يُحدث مقالة تخرج عنهم ، أليس هذا صريحاً : أن السلف كانوا ضالين عن التوحيد والتنزيه وعلمه المتأخرون ؟ وهذا فاسد بضرورة العلم الصحيح والدين المتين .

(١) من أصحاب أحمد ، كان له به أنس وبينهما مهاداه ، ترجمته فى مختصر طبقات الحنابلة ص ١٧٩ .

وأيضاً فقد ينصر المتكلمون أقوال السلف تارة وأقوال المتكلمين تارة ، كما يفعله غير واحد مثل أبي المعالى الجويني ، وأبي حامد الغزالى والرازى وغيرهم ، ولازم المذهب الذى ينصرونه تارة أنه هو المعتمد ، فلا يثبتون على دين واحد ، وتغلب عليهم الشكوك . وهذا عادة الله فيمن أعرض عن الكتاب والسنة .

وتارة يجعلون إخوانهم المتأخرين أحذق وأعلم من السلف ، ويقولون : « طريقة السلف أسلم ، وطريقة هؤلاء أعلم وأحكم » فيصفون إخوانهم بالفضيلة فى العلم والبيان والتحقيق والعرفان ، والسلفَ بالنقص فى ذلك والتقصير فيه ، أو الخطأ والجهل . وغايتهم عندهم : أن يقيموا أعذارهم[١] فى التقصير والتفريط .

ولا ريب أن هذا شعبة من الرفض ، فإنه وإن لم يكن تكفيراً للسلف ـ كما يقوله من يقوله من الرافضة والخوارج ـ ولا تفسيقاً لهم ـ كما يقوله من يقوله من المعتزلة والزيدية وغيرهم ـ كان تجهيلا لهم وتخطئة وتضليلا ، ونسبة لهم إلى الذنوب والمعاصى ، وإن لم يكن فسقاً فزعما أن أهل القرون المفضولة فى الشريعة : أعلم وأفضل من أهل القرون الفاضلة .

ومن المعلوم بالضرورة لمن تدبر الكتاب والسنة ، وما اتفق عليه أهل السنة والجماعة من جميع الطوائف : أن خير قرون هذه الأمة ـ فى الأعمال والأقوال ، والاعتقاد وغيرها من كل فضيلة ـ أن خيرها : القرن الأول ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ، كما ثبت ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم من غير وجه ، وأنهم أفضل من الخلف فى كل فضيلة : من علم وعمل وإيمان وعقل ودين ، وبيان وعبادة ، وأنهم أولى بالبيان لكل مشكل . هذا لا يدفعه إلا من كابر المعلوم بالضرورة من دين الإسلام ، وأضله الله على علم ، كما قال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه « من كان منكم مستنا فليستن بمن قد مات . فإن الحى لا تؤمن عليه

---

(١) أعذار السلف .

الفتنة ، أولئك أصحاب محمد : أبرُّ هذه الأمة قلوبا ، وأعمقها علما ، وأقلها تكلفا ، قوم اختارهم الله لصحبة نبيه ، و إقامة دينه ، فاعرفوا لهم حَقهم ، وتمسكوا بهديهم فإنهم كانوا على الهدى المستقيم » وقال غيره « عليكم بآثار من سلف فإنهم جاءوا بما يكفى وما يشفى ، ولم يحدث بعدهم خير كامِن لم يعلموه » .

هذا ، وقد قال صلى الله عليه وسلم « لا يأتى زمان إلا والذى بعده شر منه ، حتى تلقوا ربكم »

فكيف يحدث لنا زمان فيه الخير فى أعظم المعلومات وهو معرفة الله تعالى ؟ هذا لا يكون أبداً .

وما أحسن ما قال الشافعى رحمه الله فى رسالته « هم فوقنا فى كل علم وعقل ودين وفضل ، وكل سبب ينال به علم أو يدرك به هُدًى ، ورأيهم لنا خير من رأينا لأنفسنا » .

وأيضاً فيقال لهؤلاء الجهمية الكلابية [1] ـ كصاحب هذا الكلام أبى محمد وأمثاله ـ كيف تدعون طريقة السلف ، وغاية ما عند السلف : أن يكونوا موافقين لرسول الله صلى الله عليه وسلم . فإن عامة ماعند السلف من العلم والإيمان هو ما استفادوه من نبيهم صلى الله عليه وسلم ؟ الذى أخرجهم الله به من الظلمات إلى النور ، وهداهم به إلى صراط العزيز الحميد ، الذى قال الله فيه(٥٧:٩ هو الذى ينزل على عبده آيات بينات ليخرجكم من الظلمات إلى النور) وقال تعالى : (٥٧ : ٢٨، ٢٩ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نوراً تمشون به ويغفر لكم والله غفور رحيم ، لئلا يعلم أهل الكتاب أن لا يقدرون على شىء من فضل الله) وقال تعالى (٣: ١٦٤ لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين) وقال تعالى :

---

(١) يعنى بين مذهب الجهم فى نفى الصفات ومذهب ابن كلاب فى إثبات بعضها .

(٤٢ : ٥٢ وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ، ما كنت تدرى ما الـكتاب ولا الإيمان ، ولـكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا . وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم . صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض).

وأبو محمد وأمثاله قد سلـكوا مسلك الملاحدة الذين يقولون : إن الرسول لم يبين الحق فى باب التوحيد ، ولا بين للنـاس ما هو الأمر عليه فى نفسه ، بل أظهر للناس خلاف الحق ، والحق : إما كتمه وإما إنه كان غير عالم به .

فإن هؤلاء الملاحدة من المتفلسفة ومن سلك سبيلهم من المخالفين لما جاء به الرسول فى الأمور العلمية ، كالتوحيد والمعاد وغير ذلك يقولون : إن الرسول أحكم الأمور العملية المتعلقة بالأخلاق والسياسَة المنزليـة والمدنية ، وأتى بشريعة عملية هى أفضل شرائع العالم ، ويعترفون بأنه لم يقرع العالم ناموس أفضل من ناموسه ولا أكمل منه . فإنهم رأوا حسن سياسته للعالم وما أقامه من سنن العدل ومحاه من الظلم

وأما الأمور العلمية التى أخبر بها — من صفات الرب وأسمائه ، وملائـكته وكتبه ورسله ، واليوم الآخر والجنة والنار — فلما رأوها تخالف ما هم عليه صاروا فى الرسول فريقين . فغُلاتُهم يقولون : إنه لم يكن يعرف هذه المعارف ، وإنما كان كماله فى الأمور العملية : العبادات والأخلاق ، وأما الأمور العلمية : فالفلاسفة أعلم بها منه ، بل ومن غيره من الأنبياء . وهؤلاء يقولون : إن عليا كان فيلسوفا وأنه كان أعلم بالعلميـات من الرسول ، وأن هرون كان فيلسوفا ، وكان أعلم بالعلميات من موسى .

وكثير منهم يعظم فرعون ويسمونه أفلاطن القبطى ، ويدعون أن صاحب مدين الذى تزوج موسى ابنته — الذى يقول بعضُ النـاس إنه شعيب — يقول هؤلاء : إنه أفلاطون أستاذ إرسطو ، ويقولون : إن إرسطو هو الخضر — إلى أمثال هذا الـكلام الذى فيه من الجهل والضلال ما لا يعلمه إلا ذو الجلال ، أقل ما فيه جهلهم بتواريخ الأنبياء . فإن إرسطو باتفاقهم كان وزيراً للإسكندر

ابن فيلبودس المقدونى الذى تؤرخ به اليهود والنصارى التاريخ الرومى . وكان قبل المسيح بنحو ثلاثمائة سنة .

وقد يظنون أن هذا هو ذو القرنين المذكور فى القرآن ، وأن إرسطو كان وزيراً لذى القرنين المذكور فى القرآن وهذا جهل . فإن هذا الاسكندر بن فيلبودس لم يصل إلى بلاد الترك ولم يبن السد ، وإنما وصل إلى بلاد الفرس ، وذو القرنين المذكور فى القرآن وصل إلى شرق الأرض وغربها وكان متقدما على هذا ، يقال : إن اسمه الاسكندر بن دارا ، وكان موحداً مؤمناً [١] وذاك مشركا ، كان يعبد هو وقومه الكواكب والأصنام ويعانون السحر ، كما كان إرسطو وقومه من اليونان مشركين يعبدون الأصنام ، ويعانون السحر . ولهم فى ذلك مصنفات ، وأخبارهم مشهورة ، وآثارهم ظاهرة بذلك . فأين هذا من هذا ؟ .

والمقصود هنا : بيان ما يقوله هؤلاء الفلاسفة الباطنية فيما جاء به الرسول .

والفريق الثانى منهم يقولون : إن الرسول كان يعلم الحق الثابت فى نفس الأمر فى التوحيد والمعاد ، ويعرف أن الرب ليس له صفة ثبوتية [٢] وأنه لا يُرى ولا يتكلم ، وأن الأفلاك قديمة أزلية لم تزل ولا تزال ، وأن الأبدان لا تقوم ، وأنه ليس لله ملائكة هم أحياء ناطقون ينزلون بالوحى من عنده ويصعدون إليه ، ولكن يقول بما عليه هؤلاء الباطنية في الباطن ، لكن ما كان يمكنه [٣] إظهار ذلك للعامة . لأن هذا إذا ظهر لم تقبله عقولهم وقلوبهم ، بل ينكرونه وينفرون منه . فأظهر لهم من التخييل والتمثيل ما ينتفعون به فى دينهم ، وإن كان فى ذلك تلبيس عليهم وتجهيل لهم ، واعتقادهم الأمر على خلاف ماهو عليه ، لما فى ذلك من المصلحة لهم . ويجعلون أئمة الباطنية كبنى عبيد بن ميمون القداح [٤] الذين

---

(١) لقب « ذو القرنين » أى ذو الضفيرتين من الشعر — يدل على أنه كان من ملوك اليمن . والله أعلم .

(٢) كالعلم والقدرة والاستواء واليد . (٣) أى الرسول بزعمهم .

(٤) المشهورين بالفاطميين حكام مصر والمغرب مائة وثمانين سنة من سنة ٣٨٧ إلى ٥٦٧ هـ لخص ابن كثير حالهم ص ٢١٧ ج ١٢ من تاريخه البداية .

ادعوا أنهم من ولد محمد بن إسمعيل بن جعفر ، ولم يكونوا من أولاده ، بل كان جدهم يهوديا ربيبا لمجوسى وأظهروا التشيع . ولم يكونوا فى الحقيقة على دين واحد من الشيعة ، لا الإمامية ، ولا الزيدية ، بل ولا الغالية الذين يعتقدون إلٰهية على أو نبوته ، بل كانوا شراً من هؤلاء كلهم . ولهذا كثر تصانيف علماء المسلمين فى كشف أسرارهم وهتك أستارهم ، وكثر غزو المسلمين لهم . وقصصهم معروفة ، وابن سينا وأهل بيته كانوا من أتباع هؤلاء على عهد حاكمهم المصرى[١] . ولهذا دخل ابن سينا فى الفلسفة .

وهؤلاء يجعلون محمد بن إسمعيل هو الإمام المكتوم ، وأنه نسخ شرع محمد ابن عبد الله بن عبد المطلب ، ويقولون : إن هؤلاء الإسماعيلية كانوا أئمة معصومين بل قد يقولون : إنهم أفضل من الأنبياء ، وقد يقولون : إنهم آلهة يُعْبدون . ولهذا أرسل الحاكم غلامه هشتكير[٢] الدرزى إلى وادى تيم الله بن ثعلبة بالشام فأضل أهل تلك الناحية ، وبقاياه فيهم إلى اليوم[٣] يقولون بإلٰهية الحاكم ، وقد

---

(١) الحاكم بأمره الذى قتلته أخته سنة ٤١١ هـ وقد كتب ابن كثير فى تاريخه ص ٩ ج ١٢ فصلا فى كيفية قتله وشىء من مخازيه ورزاياه .

(٢) أشار اليها الحافظ ابن كثير فى ترجمة العزيز صاحب مصر والد الحاكم المتوفى سنة ٣٨٦ هـ وسمى هذا الغلام هسنكر وسمى طائفته الدرزيه ذكر ذلك فى ص ٣٢٠ ج ١١ من تاريخه . وذكره صاحب النجوم الزاهرة ص ١٨٤ ج ٤ وسماه الدرزى وذكر صاحب النجوم الزاهرة : أنه قدم مصر ، وكان من الباطنية القائلين بالتناسخ وساعد الحاكم على ادعاء الربوبية ، وصنف له كتابا زعم فيه : أن روح آدم انتقلت إلى على ، وأن روح على انتقلت إلى الحاكم ، وأن المصريين ثاروا عليه لما عرفوا ذلك فأرسله إلى الحاكم . وسماه مصحح مطبعة دار الكتب المصرية ، فى حاشية الكتاب (محمد بن إسماعيل) .

(٣) وقد تغلغلت عقائدهم في الصوفية ، وأشهر المعروفين فى هذا الزمن بدينهم : أغاخان وأتباعه ، الذين يؤلهه أتباعه فى الهند وغيرها ، ونحوهم البهرة ببلاد الهند وغيرها من البلاد .

أخرجهم عن دين الإسلام ، فلا يرون الصلوات الخمس ولا صيام شهر رمضان ، ولا حج البيت الحرام ، ولا تحريم ما حرمه الله ورسوله ، من الميتة والدم ولحم الخنزير والخمر وغير ذلك .

وهؤلاء يدعون المستجيب لهم أولاً إلى التشيع ، والتزام ما توجبه الرافضة وتحريم ما يحرمونه . ثم بعد هذا ينقلونه درجة بعد درجة حتى ينقلونه فى الآخر إلى الانسلاخ من الإسلام ، وأن المقصود : هو معرفة أسرارهم ، وهو العلم الذى به تـكمل النفس ، كما تقوله الفلاسفة الملاحدة . فمن حصل له هذا العلم وصل إلى الغاية ، وسقطت عنه العبادات التى تجب على العامة ، كالصلوات الخمس وصيـام رمضان وحج البيت ، وحلت له المحرمات التى لا تحل لغيره .

فهؤلاء يجعلون الرسول صلى الله عليه وسلم — إذا عظموه وقالوا : كان كاملا فى العلم — من جنس رءوسهم الملاحدة ، وأنه كان يظهر للعامة خلاف ما يبطنه للخاصة . وقد بينا من فساد أقوالهم فى غير هذا الموضع ما لا يناسبه هذا المقام .

فإن المقصود هنا : أن هؤلاء النفاة للعلو وللصفات الخبرية ، كصاحب اللمعة وأمثاله يقولون فى الرسول من جنس قول هؤلاء : إن الذى أظهره ليس هو الحق الثابت فى نفس الأمر ، لأن ذلك ما كان يمكنه إظهاره للعامة . فإذا كانوا يقولون هذا فى الرسول نفسه فكيف قولهم فى أتباعه من سلف الأمة من الصحابة والتابعين ؟

ومن كان هـذا أصل قوله فى الرسول والسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار : كان مخالفا لهم لا موافقاً ، لا سيما إذا أظهر النفى الذى كان الرسول وخواص أصحابه عنده يبطنونه ولا يظهرونه . فإنه يكون مخالفاً لهم أيضاً .

وهذا المسلك يراه عامة النفاة ، كابن رشد الحفيد وغيره . وفى كلام أبى حامد الغزالى من هذا قطعة كبيرة . وابن عقيل[1] وأمثاله قد يقولون أحياناً هذا، لـكن

---

(١) أبو الوفاء على بن عقيل الحنبلى صاحب كتاب الفنون مات سنة ٥١٣ ترجمه ابن كثير فى ص ١٨٤ ج ١٢ من تاريخه .

ابن عقيل الغالب عليه إذا خرج عن السنة أن يميل إلى التجهم والاعتزال فى أول أمره ، بخلاف آخر ما كان عليه . فقد خرج إلى السنة المحضة . وأبو حامد يميل إلى الفلسفة ، لكنه أظهرها فى قالب التصوف والعبارات الإسلامية ، ولهذا رد عليه علماء المسلمين حتى أخص أصحابه به أبو بكر بن العربي ، فإنه قال « شيخنا أبو حامد دخل فى بطن الفلاسفة ، ثم أراد أن يخرج منهم فما قدر » وقد حكى عنه من القول بمذاهب الباطنية مايوجد تصديق ذلك فى كتبه ، ورد عليه العلماء المذكورن قبل .

فصل

ثم قال المعترض : قال أبو الفرج بن الجوزى فى الرد على الحنابلة : إنهم أثبتوا لله سبحانه عيناً وصورة ويميناً وشمالاً ووجهاً زائداً على الذات ، وجبهة وصدراً ويدين ورجلين ، وأصابع وخنصراً ، وفخذاً وساقاً ، وقدماً وجنباً وحِقْواً ، وخلفاً وأماماً وصعوداً ونزولاً وهرولة وعجباً ، لقد كملوا هيئة البدن ، وقالوا : يحمل على ظاهره ، وليست بجوارح ، ومثل هؤلاء لا يُحدَّثون ، فإنهم يكابرون العقول ، وكأنهم يحدثون الأطفال .

قلت : الكلام على هذا فيه أنواع .

الأول : بيان مافيه من التعصب بالجهل والظلم قبل الكلام فى المسألة العلمية

الثانى : بيان أنه رد بلا حجة ولا دليل أصلاً .

الثالث : بيان ما فيه من ضعف النقل والعقل .

أما أولاً : فإن هذا المصنَّف الذى نقل منه كلام أبى الفرج لم يصنفه فى الرد على الحنابلة كما ذكر هذا ، وإنما رد به — فيما ادعاه — على بعضهم . وقصد أبى عبد الله بن حامد (١) .

(١) أبو عبد الله الحسن بن حامد بن على بن مروان البغدادى الفقيه الحنبلى الوراق توفى سنة ٤٠٣ هـ ترجمته فى مختصر طبقات الحنابلة ص ٣٥٩ وفى البداية ص ٣٤٩ ج ١١ .

والقاضي أبي يعلى [١] وشيخه أبي الحسن بن الزاغوني ومن تبعهم ، وإلا فجنس الحنابلة لم يتعرض أبو الفرج للرد عليهم ، ولا حكى عنهم ما أنكره ، بل هو يحتج في مخالفته لهؤلاء بكلام كثير من الحنبلية ، كما يذكره من كلام التميميين ، مثل رزق الله التميمي [٢] وأبي الوفا بن عقيل . ورزق الله كان يميل إلى طريقة سلفه كجده أبي الحسن التميمي [٣] وعمه أبي الفضل التميمي [٤] والشريف أبي علي بن أبي موسى [٥] هو صاحب أبي الحسن التميمي ، وقد ذكر عنه أنه قال : « لقد خرى القاضي أبو يعلى على الحنابلة خرية لا يغسلها الماء »

وسنتكلم على هذا بما ييسره الله ، متحرين للكلام بعلم وعدل . ولا حول ولا قوة إلا بالله ، فما زال في الحنبلية من يكون ميله إلى نوع من الإثبات الذي ينفيه طائفة أخرى منهم ، ومنهم من يمسك عن النفي والإثبات جميعاً . ففيهم جنس التنازع الموجود في سائر الطوائف ، لكن نزاعهم في مسائل الدق [٦] وأما الأصول الكبار فهم متفقون عليها ولهذا كانوا أقل الطوائف تنازعاً وافتراقاً ، لكثرة اعتصامهم بالسنة والآثار ، لأن للإمام أحمد في باب أصول الدين من

(١) محمد بن الحسين بن محمد بن خلف بن أحمد بن الفراء القاضي أبو يعلى الفقيه الحنبلي ، المتوفى سنة ٣٥٨ ترجمته في مختصر الطبقات ص ٣٧٧ وفي البداية ص ٩٤ ج ١٢ .

(٢) أبو محمد رزق الله بن عبد الوهاب بن عبد العزيز التميمي الحنبلي المتوفى سنة ٤٨٨ هـ ترجمته في مختصر طبقات الحنابلة ص ٤٠٢ وفي البداية ص ١٥٠ ج ١٢

(٣) أبو الحسن عبد العزيز بن الحارث بن أسد بن الليث التميمي الفقيه الحنبلي توفي سنة ٣٧١ هـ ترجمته في طبقات الحنابلة ص ٣٤٢ وفي البداية ص ٢٩٨ ج ١١

(٤) أبو الفضل عبد الواحد بن عبد العزيز بن الحارث بن أسد الفقيه الحنبلي المتوفى سنة ٤١٠ هـ ترجمته في مختصر طبقات الحنابلة ص ٣٦٣ .

(٥) أبو علي أحمد بن أبي موسى الشريف القاضي الهاشمي الحنبلي المتوفى سنة ٤٢٨ هـ ترجمته ص ٣٣٨ في المختصر وفي البداية ص ٤١ ج ١٢ .

(٦) كذا في الأصل ، ولعلها « المسائل الدقيقه » أو نحو هذا .

الأقوال المبيِّنة لِماَ تنازع فيه النـاس ما ليس لغيره . وأقواله مؤيدة بالـكتاب والسنة واتِّباعِ سبيل السلف الطيب . ولهذا كان جميع من ينتحل السنة من طوائف الأمة : فقهائها ومتكلمتها وصوفيتها ينتحلونه . ثم قد يتنازع هؤلاء فى بعض المسائل . فإن هذا أمر لابد منه فى العالَم ، والنبى صلى الله عليه وسلم قد أخبر بأن هذا لابد من وقوعه ، وأنه لما سأل ربه أن لا يلقى بأسهم بينهم مُنِـع ذلك . فلا بد فى الطوائف المنتسبة إلى السنة والجماعة من نوع تنازع ، لـكن لا بد فيهم من طائفة تعتصم بالـكتاب والسنة ، كما أنه لابد أن يكون بين المسلمين تنازع واختلاف ، لـكنه لا يزال فى هذه الأمة طائفة قائمة بالحق لا يضرها من خالفها ولا من خذلها حتى تقوم الساعة .

ولهذا لما كان أبو الحسن الأشعرى وأصحابه منتسبين إلى السنة والجماعة كان منتحلا للإمام أحمد ، ذاكراً أنه مقتد به متبع سبيله . وكان بين أعيان أصحابه من الموافقة والمؤالفة لـكثير من أصحـاب الإمام أحمد ما هو معروف ، حتى إن أبا بكر عبد العزيز [1] يذكر من حجج أبى الحسن فى كلامه مثل ما يذكر من حجج أصحابه ، لأنه كان عنده من متكلمة أصحابه .

وكان من أعظم المائلين إليهم التميميون : أبو الحسن التميمى وابنه وابن ابنه ونحوهم ، وكان بين أبى الحسن التميمى و بين القاضى أبى بكر بن الباقلانى من المودة والصحبة ما هو معروف مشهور . ولهذا اعتمد الحافظ أبو بكر البيهقى فى كتابه الذى صنفه فى مناقب الإمام أحمد ــ لمـا ذكر اعتقاده ــ اعتمد على ما نقله من كلام أبى الفضل عبد الواحد بن أبى الحسن التميمى . وله فى هذا الباب مصنف ذكر فيه من اعتقاد أحمد ما فهمه ، ولم يذكر فيه ألفاظه وإنما ذكر جمل الاعتقاد بلفظ نفسه ، وجعل يقول « وكان أبو عبد الله » . وهو بمنزلة من يصنف كتاباً

(١) هو عبد العزيز بن جعفر بن أحمد بن يزداد بن معروف أبو بكر المعروف بغلام الخلال له ترجمة حافلة في مختصر طبقات الحنابلة لابن أبي يعلى ص٤٣٣ وتوفى سنة ٣٦٣ فى ٢٠ شوال .

فى الفقه على رأى بعض الأئمة ، ويذكر مذهبه بحسب ما فهمه ورآه ، وإن كان غيره بمذهب ذلك الإمام أعلم منه بألفاظه وأفهم لمقاصده ، فإن الناس فى نقل مذاهب الأئمة قد يكونون بمنزلتهم فى نقل الشريعة . ومن المعلوم : أن أحدهم يقول : حكم الله كذا ، أو حكم الشريعة كذا بحسب ما أعتقده عن صاحب الشريعة ، بحسب ما بلغه وفهمه ، وإن كان غيره أعلم بأقوال صاحب الشريعة وأعماله وأفهم لمراده .

فهذا أيضاً من الأمور التى يكثر وجودها فى بنى آدم . ولهذا قد تختلف الرواية فى النقل عن الأئمة ، كما يختلف بعض [أهل] الحديث فى النقل عن النبي صلى الله عليه وسلم ، لكن النبى صلى الله عليه وسلم معصوم . فلا يجوز أن يصدر عنه خبران متناقضان فى الحقيقة . ولا أمران متناقضان فى الحقيقة إلا وأحد هما ناسخ والآخر منسوخ . وأما غير النبى صلى الله عليه وسلم فليس بمعصوم . فيجوز أن يكون قد قال خبرين متناقضين . وأمرين متناقضين ولم يشعر بالتناقض ، لكن إذا كان فى المنقول عن النبى صلى الله عليه وسلم ما يحتاج إلى تمييز ومعرفة ـ وقد تختلف الروايات حتى يكون بعضها أرجح من بعض ، والناقلون لشريعته بالاستدلال[١] فيهم اختلاف كثير ـ لم يستنكر وقوع نحو من هذا في غيره ، بل هو أولى بذلك . لأن الله قد ضمن حفظ الذكر الذى أنزله على رسوله ، ولم يضمن حفظ ما يؤثر عن غيره . لأن ما بعث الله به رسوله

(١) كذا . والصواب « بالإسناد » وكتبه محمد بن عبد الرزاق. وعندى فى هذا الصواب نظر ؛ فإن معنى كلام المصنف أن الأئمة الناقلين للشريعة بما فهموا منها فيهم اختلاف كثير فمن باب أولى أن يغلط الناقلون عن الأئمة فى سعى مافهموا من كلامهم فمن أراد أن ينسب إلى الرسول أو إلى أحد من أهل العلم قولا . فليسق قوله ، لاما فهم هو من قوله . فإن الأفهام والمدارك تختلف ، ولو اتحدت الأفهام والمدارك لما وجد الخلاف ، ثم وقفت على ما كتبه أبو محمد بن حزم ، فى كتابه الإحكام فى الأصول قال « الاستدلال طلب الدليل من نيل معارف العقل ونتائجه ، أو من قبل إنسان يعلم » اهـ ج ١ ص ٣٩ . وكتبه سليمان الصنيع .

من الكتاب والحكمة هو هُدَى الله الذى جاء من عند الله ، وبه يعرف سبيله وهو حجته على عباده ، فلو وقع فيـه ضلال لم يبين لسقطت حجة الله فى ذلك ، وذهب هُداه ، وعُمِّيت سبيله ، إذ ليس بعد هذا النبى نبىّ آخر ينتظر ليبين للناس ما اختلفوا فيـه ، بل هذا الرسول آخر الرسل ، وأمته خير الأمم . ولهذا لا يزال فيها طائفة قائمة على الحق بإذن الله ، لا يضرها من خالفها ولا من خذلها ، حتى تقوم الساعة .

الوجه الثانى

أن أبا الفرج نفسه متناقض فى هذا الباب ، لم يثبت على قدم النفى ولا على قدم الإثبات بل له من الكلام فى الإثبات نظماً ونثراً ما أثبت به كثيراً من الصفات التي أنكرها فى هذا المصنف ، فهو فى هذا الباب مثل كثير من الخائضين فى هذا الباب من أنواع الناس ، يثبتون تارة وينفون أخرى فى مواضع كثيرة من الصفات ، كما هو حال أبى الوفاء بن عقيل وأبى حامد الغزالى .

الوجه الثالث

أن باب الإثبات ليس مختصاً بالحنبلية ، ولا فيهم من الغلو ماليس فى غيرهم ، بل من استقرأ مذاهب الناس وجد فى كل طائفة من الغلاة فى النفى والإثبات مالا يوجد مثله فى الحنبلية ، ووجد من مال منهم إلى نفى باطل أو إثبات باطل ، فإنه لا يسرف إسراف غيرهم من المائلين إلى النفى والإثبات ، بل تجد فى الطوائف من زيادة النفي الباطل والإثبات الباطل مالا يوجد مثله فى الحنبلية . وإنما وقع الاعتداء فى النفى والإثبات فيهم مما دبّ إليهم من غيرهم الذين اعتدوا حدود الله بزيادة في النفى والإثبات إذْ أصل السنة مبناها على الاقتصاد والاعتدال دون البغى والاعتداء .

وكان علم الإمام أحمد وأتباعه له من الكمال والتمام ، على الوجه المشهور بين

الخاص والعام ممن له بالسنة وأهلها نوع إلمام ، وأما أهل الجهل والضلال ، الذين لا يعرفون مابعث الله به الرسول ولا يميزون بين صحيح المنقول وصريح المعقول ، وبين الروايات المكذوبة والآراء المضطربة : فأولئك جاهلون قدر الرسول والسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار الذين نطق بفضلهم القرآن ، فهم بمقادير الأئمة المخالفين لهؤلاء أولى أن يكونوا جاهلين ، إذ كانوا أشبه بمن شاقّ الرسول واتبع غير سبيل المؤمنين من أهل العلم والإيمان . وهم فى هذه الأحوال إلى الكفر أقرب منهم للإيمان .

تجد أحدهم يتكلم فى أصول الدين وفروعه ، بكلام من كأنه لم ينشأ فى دار الإسلام ، ولاسمع ماعليه أهل العلم والإيمان ، ولا عرف حال سلف هذه الأمة ، وما أوتوه من كمال العلوم النافعة والأعمال الصالحة ، ولا عرف مما بعث الله به نبيه ما يدله على الفرق بين الهدى والضلال ، والغى والرشاد .

وتجد وقيعة هؤلاء في أئمة السنة وهُداة الأمة من جنس وقيعة الرافضة ومن معهم من المنافقين فى أبى بكر وعمر وأعيان المهاجرين والأنصار ، ووقيعة اليهود والنصارى ومن تبعهم من منافقى هذه الأمة فى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ووقيعة الصابئة والمشركين من الفلاسفة وغيرهم فى الأنبياء والمرسلين ، وقد ذكر الله فى كتابه من كلام الكفار والمنافقين فى الأنبياء والمرسلين وأهل العلم والإيمان ما فيه عبرة للمعتبر ، وبينة للمستبصر ، وموعظة للمتهوِّك المتحير .

وتجد عامة أهل الكلام ومن أعرض عن جادة السلف ـ إلا من عصم الله ـ يعظمون أئمة الاتحاد ، بعد تصريحهم فى كتبهم بعبارات الاتحاد ، ويتكلفون لها محامل غير ما قصدوه . ولهم فى قلوبهم من الإجلال والتعظيم والشهادة بالإمامة والولاية لهم وأنهم أهل الحقائق : ما الله به عليم .

هذا ابن عربى يصرح فى نصوصه : أن الولاية أعظم من النبوة ، بل أكمل من الرسالة ، ومن كلامه :

مقـام النبوة فى برزخ   فُوَيْقَ الرسول ودون الولى

و بعض أصحابه يتأول ذلك بأن ولاية النبى أفضل من نبوته، وكذلك ولاية الرسول أفضل من رسالته ، أو يجعلون ولايته حاله مع الله ، ورسالته حاله مع الخلق وهذا من بليغ الجهل . فإن الرسول إذا خاطب الخلق و بلغهم الرسالة لم يفارق الولاية ، بل هو ولى الله فى تلك الحال ، كما هو ولى الله فى سائر أحواله ، فإنه ولى الله ليس عدواً له فى شيء من أحواله . وليس حاله فى تبليغ الرسالة دون حاله إذا صلى ودعا الله وناجاه .

وأيضاً : فما يقول هذا المتكلف فى قول هذا [الملحد الزنديق] المعظم [عنده][1] إن النبى صلى الله عليه وسلم لبنة من فضة ، وهو لبنتان من ذهب وفضة ، و يزعم أن لبنة محمد صلى الله عليه وسلم هى العلم الظـاهر ، ولبنتاه : الذهب علم الباطن ، والفضة علم الظاهر ، وأنه يتلقى ذلك بلا واسطة ، و يصرح فى فصوصه : أن رتبة الولاية أعظم من رتبة النبوة ، لأن الولى يأخذ بلا واسطة والنبى بواسطة ، فالفضيلة التى زعم أنه امتاز بها على النبى صلى الله عليه وسلم أعظم عنده مما شاركه فيه

و بالجملة : فهو[2] لم يتبع النبى صلى الله عليه وسلم فى شيء ، فإنه أخذ بزعمه عن الله ما هو متابعه فيه فى الظاهر ، كما يوافق المجتهد المجتهد والرسول الرسول ، فليس عنده من اتباع الرسول والتلقى عنه شيء أصـلا ، لا فى الحقائق الخبرية ، ولا فى الحقائق الشرعية .

وأيضاً : فإنه لم يرض أن يكون معه كموسى مع عيسى ، وكالعالم مع العـالم فى الشرع الذى وافقه فيه ، بل ادعى أنه يأخذ ماأقره عليه من الشرع من الله في الباطن ، فيكون أخذه للشرع عن الله أعظم من أخذ الرسول .

وأما ماادعى امتيازه به عنه وافتقار الرسول إليه ـ وهو موضع اللبنة الذهبية ـ

(١، ٢) يعنى ابن عربى .

فزعم أنه يأخذه عن المعدن الذى يأخذ منه الملك الذى يوحى به إلى الرسول .

فهذا كما ترى فى حال هذا الرجل ، وتعظيم بعض المتأخرين له ، وصرح الغزالى بأن قتل من ادعى أن رتبة الولاية أعلى من رتبة النبوة أحب إليه من قتل مائة كافر ، لأن ضرر هذا فى الدين أعظم .

ولا نطيل الكلام فى هذا المقام لأنه ليس المقصود هنا .

وأيضاً فأسماء الله وأسماء صفاته عندهم شرعية سمعية ، لا تطلق بمجرد الرأى فهم فى الاتباع من هذه الأسماء أحق بالعذر ممن امتنع من تسمية صفاته أعراضاً

وذلك أن الصفات التى لنا : منها ماهو عرض كالعلم والقدرة ، ومنها ما هو جسم وجوهر قائم بنفسه ، كالوجه واليد ، وتسمية هذه جوارح وأعْضاء أخص من تسميتها أجساماً ، لما فى ذلك من معنى الاكتساب والانتفاع والتصرف ، وجواز التفريق والبعضية .

الوجه الرابع

أن هذا السؤال لا يختص بهؤلاء ، بل إثبات جنس هذه الصفات قد اتفق عليه سلف الأمة وأئمتها ، من أهل الفقه والحديث والتصوف والمعرفة ، وأئمة أهل الكلام من الكلابية والكرامية والأشعرية ، كل هؤلاء يثبتون لله صفة الوجه واليد ونحو ذلك . وقد ذكر الأشعرى فى كتاب المقالات[1] أن هذا مذهبُ أهل الحديث ، وقال : إنه به يقول .

فقال فى جملة مقالة أهل السنة وأصحاب الحديث : جملة مقالة أهل السنة وأصحاب الحديث : الإقرار بكذا وكذا ، وأن الله على عرشه استوى ، وأن له يدين بلا كيف ، كما قال (٣٨ : ٧٥ خلقت بيدى) وكما قال (٥ : ٦٧ بل يداه مبسوطتان) وأن له عينين بلا كيف ، كما قال (٥٤ : ١٤ تجرى بأعيننا) وأن له

---

(١) مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين : لأبي الحسن الأشعرى مطبوع بالأستانة.

وجهاً ، كما قال (٥٥ : ٢٧ ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام) .

وقد قدمنا فيما تقدم أن جميع أئمة الطوائف هم من أهل الإثبات ، وما من شيء ذكره أبو الفرج وغيره مما هو موجود فى الحنبلية ـ سواء كان الصوابُ فيه مع المثبت أو مع النافى ، أوكان فيه تفصيل ـ إلا وذلك موجود فيما شاء الله من أهل الحديث والصوفية والمالكية والشافعية والحنفية ونحوهم ، بل هو موجود فى الطوائف التي لا تنتحل السنة والجماعة والحديث ولا مذهب السلف ، مثل الشيعة وغيرهم ، ففيهم فى طرفى الإثبات والنفى مالا يوجد فى هذه الطوائف ، وكذلك فى أهل الكتابين ـ أهل التوراة والإنجيل ـ توجد هذه المذاهب المتقابلة فى النفى والإثبات ، وكذلك الصابئة من الفلاسفة وغيرهم له مقابل فى النفى والإثبات ، حتى إن منهم من يثبت ما لا يثبته كثير من متكلمة الصفاتية ، ولكن جنس الإثبات على المتبعين للرسل أغلب : من الذين آمنوا واليهود والنصارى والصابئة المهتدين ، وجنس النفى على غير المتبعين للرسل أغلب : من المشركين والصابئة المبتدعة .

وقد ذكرنا فى غير هذا الجواب [١] ، مذهب سلف الأمة وأئمتها بألفاظها وألفاظ من نقل ذلك من جميع الطوائف ، بحيث لا يبقى لأحد من الطوائف اختصاص بالإثبات .

ومن ذلك : ما ذكره شيخ الحرمين : أبو الحسن محمد بن عبد الملك الكَرْجى [٢] فى كتابه الذى سماه « الفصول فى الأصول عن الأئمة الفحول ،

---

(١) كأنه يعنى الفتوى الحموية وهى مطبوعة عدة طبعات .

(٢) أبو الحسن محمد بن عبد الملك بن محمد بن عمر الكرجى له مصنفات كثيرة « منها الفصول فى اعتقاد الأئمة الفحول » يذكر فيه مذاهب السلف فى باب الاعتقاد ، ويحكى فيه أشياء غريبة حسنة . وله تفسير وله كتاب فى الفقه توفى سنة ٥٣٢ هـ ملخصا من البداية والنهاية ص ٢١٣ ج ١٢ وله قصيدة أكثر من مائتى بيت اسمها « عروس القصائد فى شموس القصائد » نقلها من أولها الذهبي فى كتابه العلو وذكرها السمعاني ، وتشكك فيها التاج السبكي لما فيها من هجو بعض الناس .

إلزاماً لذوى البدع والفضول » وكان من أئمة الشافعية ـ ذكر فيه من كلام الشافعى ومالك والثورى ، وأحمد بن حنبل والبخارى ـ صاحب الصحيح ـ وسفيان بن عيينة ، وعبد الله بن المبارك ، والأوزاعى ، والليث بن سعد ، و إسحق بن راهوية [وأبى زرعة وأبى حاتم] فى أصول السنة مايعرف به اعتقادهم . وذكر فى تراجمهم مافيه تنبيه على مراتبهم ومكانتهم فى الإسلام ، وذكر أنه اقتصر فى النقل عنهم دون غيرهم ، لأنهم هم المقتدى بهم والمرجوع شرقاً وغربا إلى مذاهبهم ، ولأنهم أجمع لشرائط القدوة والإمامة من غيرهم ، وأكثر لتحصيل أسبابها وأدواتها : من جودة الحفظ والبصيرة ، والفطنة والمعرفة بالكتاب والسنة ، والإجماع والسند والرجال والأحوال ، ولغات العرب ومواضعها ، والتاريخ والناسخ والمنسوخ ، والمنقول والمعقول ، والصحيح والمدخول فى الصدق والصلابة ، وظهور الأمانة والديانة ممن سواهم ، قال : و إن قصر واحد منهم فى سبب منها جبر تقصيره قرب عصره من الصحابة والتابعين لهم بإحسان ،باينوا هؤلاء بهذا المعنى من سواهم فإن غيرهم من الأئمة ـ و إن كانوا في منصب الإمامة ـ لكن أخلوا ببعض ما أشرت إليه مجملا من شرائطها ، إذ ليس هذا موضعاً لبيانها .

قال[1] : ووجه ثالث لا بد من أن نبين فيه ، فنقول : إن فى النقل عن هؤلاء إلزاما للحجة على كل من ينتحل مذهب إمام يخالفه فى العقيدة ، فإن أحدهما لا محالة يضلل صاحبه ، أو يبدعه ، أو يكفره ، فانتحال مذهبه ـ مع مخالفته له فى العقيدة ـ مستنكر والله شرعا وطبعا ، فمن قال : أنا شافعى الشرع ، أشعرى الاعتقاد ، قلنا له : هذا من الأضداد ، لا بل من الارتداد ، إذ لم يكن الشافعى أشعرى الاعتقاد . ومن قال : أنا حنبلى فى الفروع ، معتزلى فى الأصول ، قلنا : قد ضللت إذاً عن سواء السبيل فيما تزعمه، إذ لم يكن أحمد معتزلى الدين والاجتهاد

قال : وقد افتتن أيضاً خلق من المالكية بمذاهب الأشعرية ، وهذه والله

(١) أى الكرجى .

سُبَّة وعار ، وفلتة تعود بالوبال والنكال وسوء الدار ، على منتحل مذاهب هؤلاء الأئمة الكبار ، فان مذهبهم ما رويناه : من تكفيرهم الجهمية والمعتزلة والقدرية والوقفية ، وتكفيرهم اللفظية .

وبسط الكلام فى مسألة اللفظ ، إلى أن قال ــ : فأما غير ما ذكرناه من الأئمة : فلم ينتحل أحد مذهبهم ، فلذلك لم نتعرض للنقل عنهم .

قال [١] : فان قيل : فهلا اقتصرتم إذاً على النقل عمن شاع مذهبه وانتحل اختياره من أصحاب الحديث ، وهم الأئمة : الشافعي ومالك والثورى وأحمد ، إذ لا نرى أحداً ينتحل مذهب الأوزاعى والليث وسائرهم ؟

قلنا : لأن من ذكرناه من الأئمة ــ سوى هؤلاء ــ أرباب المذاهب فى الجملة ، إذ كانوا قدوة فى عصرهم ، ثم اندرجت مذاهبهم الآخرة تحت مذاهب الأئمة المعتبرة . وذلك أن ابن عيينة كان قدوة ، ولكن لم يصنف فى الذى كان يختاره من الأحكام ، وإنما صنف أصحابه ، وهم الشافعي وأحمد وإسحق [٢] فاندرج مذهبه تحت مذاهبهم . وأما الليث بن سعد فلم يقم أصحابه بمذهبه ، قال الشافعي «لم يرزَق الأصحابَ» إلا أن قوله يوافق قول مالك [٣] أو قول الثورى [٤] لا يخطئهما ، فاندرج مذهبه تحت مذهبهما . وأما الأوزاعي [٥] فلا نرى له فى أعم المسائل قولا إلا ويوافق قول مالك ، أو قول الثورى أو قول الشافعى ، فاندرج اختياره أيضاً تحت اختيار هؤلاء . وكذلك اختيار اسحق يندرج تحت مذهب أحمد لتوافقهما .

قال : فان قيل : فمن أين وقعتَ على هذا التفصيل والبيان فى اندراج مذاهب هؤلاء تحت مذاهب الأئمة ؟ قلت : من التعليقة للشيخ أبي حامد

(١) أى الكرجى . (٢) اسحاق بن ابراهيم الحنظلى الشهير بابن راهوية شيخ الجماعة البخارى ومسلم وغيرهما . (٣) مالك بن أنس أبو عبد الله امام دار الهجرة . (٤) أبو عبد الله سفيان بن سعيد الثورى فقيه الكوفة ومحدثها.
(٥) أبو عمرو عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعى فقيه الشام فى زمانه .

الاسفرائيني ، التي هي ديوان الشرائع ، وأم البدائع في بيان الأحكام ، ومذاهب العلماء الأعلام ، وأصول الحجج العظام في المختلف والمؤتلف .

قال : وأما اختيار أبي زرعة ، وأبي حاتم في الصلاة والأحكام ـ مما قرأته وسمعته من مجموعيهما ـ فهو موافق لقول أحمد ومندرج تحته . وذلك مشهور . وأما البخاري فلم أر له اختيارا ، ولكن سمعت محمد بن طاهر الحافظ يقول : استنبط البخاري في الاختيارات مسائل موافقة لمذهب أحمد و إسحق .

فلهذه المعاني نقلنا عن الجماعة الذين سميناهم ، دون غيرهم ، إذ هم أرباب المذاهب في الجملة ، ولهم أهلية الاقتداء بهم لحيازتهم شرائط الامامة، وليس مَنْ سواهم في درجتهم ، و إن كانوا أئمة كبراء قد ساروا بسيرهم .

ثم ذكر[1] بعد ذلك الفصل الثاني عشر ، في ذكر خلاصة تحوى مناصيص الأئمة بعد أن أفرد لكل منهم فصلا ـ قال : لما تتبعت أصول ماصح لى روايته ، فعثرت فيها بما قد ذكرت من عقائد الأئمة، فرتبتها عند ذلك على ترتيب الفصول التي أثبتها ، وافتتحت كل فصل بنيف من المحامد يكون لامامتهم إحدى الشواهد داعية إلى اتباعهم ، ووجوب وفاقهم ، وتحريم خلافهم وشقاقهم ، فان اتباع من ذكرناه من الأئمة في الأصول في زماننا بمنزلة اتباع الاجماع الذي يبلغنا عن الصحابة والتابعين ، إذ لايسع مسلما خلافه ، ولايعذر فيه ، فان الحق لايخرج عنهم ، لأنهم الأدلاء ، وأرباب مذاهب هذه الأمة ، والصدور السادة ، والعلماء القادة ، أولو الدين والديانة ، والصدق والأمانة ، والعلم الوافر ، والاجتهاد الظاهر ولهذا المعنى اقتدوا بهم في الفروع ، فجعلوهم فيها وسائل بينهم و بين الله ، حتى صاروا أرباب المذاهب في المشارق والمغارب ، فليرضوا كذلك بهم في الأصول فيما بينهم و بين ربهم ، و بما نصوا عليه ودعوا إليه .

---

(١) أي الكرجي .

قال : فإنا نعلم قطعاً أنهم أعرف قطعاً بما صح من معتقد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه من بعده ، لجودة معارفهم وحيازتهم شرائط الامامة ، ولقرب عصرهم من الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، كما بيناه فى أول الكتاب .

قال : ثم أردت — ووافق مرادى سؤال بعض الاخوان — أن أذكر خلاصة مناصيصهم متضمنة بعض ألفاظهم . فانها أقرب إلى الحفظ ، وهى اللباب لما ينطوى عليه الكتاب ، فاستعنت بمن عليه التكلان ، وقلت : إن الذى آثرناه من مناصيصهم يجمعه فصلان . أحدها : فى بيان السنة وفضلها . والثانى : في هجران البدعة وأهلها .

أما الفصل الأول : فاعلم أن السنة طريقة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والتسنن بسلوكها و إصابتها ، وهى أقسام ثلاثة : أقوال ، وأعمال ، وعقائد . فالأقوال : نحو الأذكار والتسبيحات المأثورة ، والأفعال : مثل سنن الصلاة والصيام والصدقات المذكورة ، ونحو السير المرضية ، والآداب المحكية ، فهذان القسمان فى عداد التأكيد والاستحباب ، واكتساب الأجر والثواب . والقسم الثالث : سنة العقائد ، وهى من الايمان إحدى القواعد .

قال : وها أنذا أذكر بعون الله خلاصة ما نقلته عنهم مفرقا ، وأضيف إليه ما دوّن فى كتب الأصول مما لم يبلغنى عنهم مطلقا ، وأرتبها مرشحة ، و ببعض مناصيصهم موشحة ، بأوجز لفظ على قدر وسعى ، ليسهل حفظه على من يريد أن يعى ، فأقول :

ليعلم المستن أن سنة العقائد على ثلاثة أضرب : ضرب يتعلق بأسماء الله ، وذاته ، وصفاته . وضرب يتعلق برسول الله صلى الله عليه وسلم وصحبه ومعجزاته ، وضرب يتعلق بأهل الاسلام فى أولاهم وأخراهم .

أما الضرب الأول : فلنعتقد أن لله أسماء وصفات قديمة غير مخلوقة ، جاء

بها كتابه ، وأخبر بها الرسول أصحابه ، فيما رواه الثقات ، وصححه النقاد الأثبات ودل القرآن المبين ، والحديث الصحيح المتين على ثبوتها .

قال رحمه الله تعالى : وهى أن الله تعالى أول لم يزل ، وآخِر لا يزال ، أحد قديم [1] وصمد كريم ، عليم حليم عَلِيٌّ عظيم ، رفيع مجيد ، وله بطش شديد ، وهو يبدىء و يعيد ، فعال لما يريد ، قوى قدير ، منيع نصير (ليس كمثله شىء وهو السميع البصير) إلى سائر أسمائه وصفاته من النفس والوجه والعين والقدم واليدين والعلم والنظر ، والسمع والبصر ، والارادة والمشيئة ، والرضى والغضب ، والمحبـة والضحك ، والعجب والاستحياء والغَيْرة ، والـكراهة والسخط ، والقبض والبسط والقرب والدنو ، والفوقية والعلو ، والـكلام والسلام ، والقول والنداء ، والتجلى واللقاء ، والنزول والصعود ، والاستواء ، وأنه تعالى فى السماء ، وأنه على عرشه بائن من خلقه . قال مالك «إن الله فى السماء وعلمه فى كل مكان» وقال عبد الله ابن المبارك « نعرف ربنا فوق سبع سمواته على العرش بائنا من خلقه ، ولا نقول كما قالت الجهمية : إنه ههنا ـ وأشار إلى الأرض » وقال سفيان الثورى (٥٧ : ٤ وهو معكم أينما كنتم) قال « علمه » قال الشافعى « إنه على عرشه في سمائه يقرب من خلقه كيف شاء » قال أحمد « إنه مستو على العرش عالم بكل مكان » و إنه ينزل كل ليلة إلى السماء الدنيا كيف شاء ، و إنه يأتى يوم القيامة كيف شـاء ، و إنه يعلو على كرسيه ، والإيمـان بالعرش والـكرسى وما ورد فيهما من الآيات والأخبار ، وأن الـكلم الطيب يصعد إليه ، وتعرج الملائكة والروح إليه ، وأنه خلق آدم بيديه ، وخلق القلم وجنة عدن وشجرة طوبى بيديه ، وكتب التوراة بيديه ، وأن كلتا يديه يمين . وقال ابن عمر «خلق الله بيديه أربعة أشياء : آدم ، والعرش والقلم ، وجنة عدن ، وقال لسائر الخلق : كن فكان » وأنه يتكلم بالوحي

---

(١) « قديم » لم ترد هذه الصفة فى كلام الله ولا كلام رسوله .

كيف يشاء ، قالت عائشة رضى الله عنها : « لشأنى فى نفسى كان أحقر من أن يتكلم الله فىّ بوحى يتلى » وأن القرآن كلام الله بجميع جهاته منزل غير مخلوق ، ولا حرف منه مخلوق ، منه بدأ و إليه يعود ، قال عبد الله بن المبارك « من كفر بحرف من القرآن فقد كفر ، ومن قال : لا أؤمن بهـذه اللام فقد كفر » وأن الـكتب المنزلة على الرسل مائة وأربعة كتب كلام الله غير مخلوق ، قال أحمد : « وما فى اللوح المحفوظ ومافى المصاحف وتلاوة الناس وكيفما يقرأ وكيفما يوصف ، فهو كلام الله غير مخلوق » قال البخارى « وأقول : فى المصحف قرآن وفي صدور الرجال قرآن ، فمن قال غير هذا يستتاب فإن تاب و إلا فسبيله سبيل الـكفر »

قال [(١)] وذكر الشافعي المعتقد بالدلائل ، فقال « لله أسماء وصفات جاء بهـا كتابه ، وأخبر بها نبيه أمته ، لا يسع أحداً من خلق الله قامت عليه الحجة ردها ــ إلى أن قال ــ نحو إخبار الله سبحانه إيانا: أنه سميع بصير ، وأن له يدين لقوله : (٥:٦٤ بل يداه مبسوطتان) وأن له يميناً بقوله (٣٩ : ٦٧ والسموات مطويات بيمينه) وأن له وجهاً لقوله (٢٨:٨٨ كل شيء هالك إلا وجهه) وقوله (٥٥:٢٧ و يبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام) وأن له قدماً لقوله[(٢)] «حتى يضع الرب فيها قدمه » يعنى جهنم ، وأنه يضحك من عبده المؤمن لقوله صلى الله عليه وسلم للذى قتل فى سبيل الله « إنه لقى الله وهو يضحك إليه » وأنه يهبط كل ليلة إلى سماء الدنيا ، لخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك ، وأنه ليس بأعور ، لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ ذكر الدجال فقال « إنه أعور ، و إن ربكم ليس بأعور » وأن المؤمنين يرون ربهم يوم القيامة بأبصارهم ، كما يرون القمر ليلة البدر وأن له إصبعاً لقوله صلى الله عليه وسلم : « ما من قلب إلا وهو بين إصبعين من أصابع الرحمن » .

قال : وسوى مانقله الشافعى أحاديث جاءت فى الصحاح والمسانيد ، وتلقتها

(١) أى الـكرجى . (٢) أى النبي صلي الله عليه وسلم .

الأمة بالقبول والتصديق ، نحو ما فى الصحيح من حديث الذات ، وقوله «لا شخص أغير من الله» وقوله «أتعجبون من غيرة سعد ؟ والله لأنا أغير من سعد ، والله أغير منى » وقوله « ليس أحد أحب إليه المدح من الله ، ولذلك مدح نفسه ، وليس أحد أغير من الله ، من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن » وقوله « يد الله ملأى » وقوله « بيده الأخرى الميزان يخفض ويرفع » وقوله « إن الله يقبض يوم القيامة الأرضين ، وتكون السموات بيمينه ، ثم يقول : أنا الملك » ونحوه قوله « ثلاث حثيات من حثيات الرب » وقوله « لما خلق آدم مسح ظهره بيمينه » وقوله فى حديث أبى رزين « قلت : يا رسول الله ، فما يفعل ربنا بنا إذا لقيناه ؟ قال : تعرضون عليه بادية له صفحاتكم ،لا يخفى عليه منكم خافية ، فيأخذ ربك بيده غرفة من الماء ، فينضح قِبَلكم ، فلعمر إلهك ما يخطىء وجه أحدكم منها قطرة » أخرجه أحمد فى المسند ، وحديث « القبضة التى يخرج بها من النار قوماً لم يعملوا خيراً قط ، قد عادوا حُمما ، فيلقيهم فى نهر من أنهار الجنة يقال له : نهر الحياة » ونحو الحديث « رأيت ربى فى أحسن صورة » ونحو قوله : « خلق آدم على صورته » وقوله « يدنو أحدكم من ربه حتى يضع كنفه عليه » وقوله [لجابر بن عبد الله الأنصارى] « كلَّم أباك كفاحا » [(١)] وقوله « ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه ، ليس بينه وبينه ترجمان يترجم له » وقوله « يتجلى لنا ربنا يوم القيامة ضاحكا » وفى حديث المعراج فى الصحيح [(٢)] « ثم دنا الجبار رب العزة ، فتدلى حتى كان منه قاب قوسين أو أدنى » وقوله « كتب كتابا ، فهو عنده فوق العرش : أن رحمتى سبقت غضبى » وقوله « لا تزال جهنم يلقى فيها ، وتقول : هل من مزيد ؟ حتى يضع رب العزة فيها قدمه ـ وفى رواية : رِجله ـ فيزوى بعضها إلى بعض ، وتقول : قَدِ قَدِ » وفى رواية « قط قط بعزتك » ونحو

---

(١) أى بلا واسطة بل وجها لوجه . (٢) فى كتاب التوحيد من صحيح البخارى ، وهى رواية شريك بن أبى عمر عن أنس .

قوله « فيأتيهم الله فى صورته التى يعرفون ، فيقول : أنا ربكم ، فيقولون : أنت ربنا » وقوله « يحشر الله العباد ، فيناديهم بصوت يسمعه مَنْ بعد كما يسمعه من قرب : أنا الملك ، أنا الديان »

إلى غيرها من الأحاديث ، هالتنا أو لم تهلنا ، بَلَغَتنا أو لم تبلغنا ، اعتقادنا فيها وفى الآى الواردة فى الصفات : أنا نقبلها ولا نحرفها ولا نكيفها ، ولا نعطلها ولا نتأولها ، وعلى العقول لا نحملها ، و بصفات الخلق لا نشبهها ، ولا نعمل رأينا وفكرنا فيها ، ولا نزيد عليها ولا ننقص منها ، بل نؤمن بها ونكل علمها إلى عالمها ، كما فعل ذلك السلف الصالح ، وهم القدوة لنا فى كل علم .

روينا عن اسحاق أنه قال « لا نزيل صفة مما وصف الله بها نفسه أو وصفه بها الرسول عن جهتها ، لا بكلام ولا بإرادة ، إنما يلزم المسلم الأداء ، ويوقن بقلبه أن ما وصف الله به نفسه فى القرآن إنما هى صفاته ، ولا يعقل نبى مرسل ولا ملك مقرب تلك الصفات إلا بالأسماء التى عرفهم الرب عز وجل . فأما أن يدرك أحد من بنى آدم تلك الصفات ، فلا يدركه أحد ـ الحديث إلى آخره »

وكما روينا عن مالك والأوزاعى وسفيان والليث وأحمد بن حنبل أنهم قالوا فى الأحاديث فى الرؤية والنزول « أمِرُّوها كما جاءت » .

وكما روى عن محمد بن الحسن ـ صاحب أبى حنيفة ـ أنه قال فى الأحاديث التى جاءت « إن الله يهبط إلى السماء الدنيا » ونحو هذا من الأحاديث : إن هذه الأحاديث قد رواها الثقات ، فنحن نرويها ونؤمن بها . ولا نفسرها . انتهى كلام الكرجى رحمه الله تعالى .

والعجب أن هؤلاء المتكلمين ، إذا احتج عليهم بما فى الآيات والأحاديث من الصفات قال : قالت الحنابلة : إن الله ، كذا وكذا ، بما فيه تشنيع وترويج لباطلهم ، والحنابلة اقتفوا أثر السلف ، وساروا بسيرهم ، ووقفوا بوقوفهم ، بخلاف غيرهم . والله الموفق .

النوع الثانى

أن هذا الكلام ليس فيه من الحجة والدليل ما يستحق أن يخاطب به أهل العلم . فإن الرد بمجرد الشتم والتهويل لا يعجز عنه أحد . والإنسان لو أنه يناظر المشركين وأهل الكتاب لكان عليه أن يذكر من الحجة ما يبين به الحق الذى معه والباطل الذى معهم.فقد قال الله عز وجل لنبيه صلى الله عليه وسلم (١٦:١٢٥ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن) وقال تعالى (٢٩ : ٤٦ ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن) فلو كان خصم من يتكلم بهذا الكلام ـ سواء كان المتكلم به أبو الفرج أو غيره ، من أشهر الطوائف بالبدع كالرافضة ـ لكان ينبغى أن يذكر الحجة ، و يعدل عما لا فائدة فيه ، إذ كان فى مقام الرد عليهم دع[1] والمنازعون له ـ كما ادعاه ـ هم عند جميع الناس أعلم منه بالأصول والفروع . وهو فى كلامه ورده لم يأت بحجة أصلا ، لا حجة سمعية ولا عقلية . و إنما اعتمد تقليد طائفة من أهل الكلام قد خالفها أكثر منها من أهل الكلام ، فقلدهم فيما زعموا أنه حجة عقلية ، كما فعل هذا المعترض .

ومن يرد على الناس بالعقول إن لم يبين حجة عقلية ، و إلا كان قد أحال الناس على المجهولات، كمعصوم الرافضة وغوث الصوفية[2] .

فأما قوله « إن مثل هؤلاء لا يُحَدَّثون » فيقال له : قد بعث الله الرسل إلى جميع الخلق ليدعوهم إلى الله . فمن الذى أسقط الله مخاطبته من الناس ؟ دع من

---

(١) كذا بالأصل ، ولعل الصواب « كيف ؟ » .

(٢) الإمام المعصوم المختفى فى سرداب سامرا ، وتنتظر الرافضة خروجه منه لينتصف لهم من خصومهم ، وغوث الصوفية : هو المسمى بالقطب الغوث مغيب عن الأبصار ، ويجلس هو وديوانه فى غار حراء ، أو على ظهر الكعبة ، كما زعمه الشعراني وصاحب الإبريز وغيرهما من الصوفية .

تعرف أنت وغيرك ممن فضلهم الله ما ليس هذا موضعه . ولو أراد سفيه أن يرد على الراد بمثل رده لم يعجز عن ذلك .

وكذلك قوله [١] « إنهم يكابرون العقول » فنقول : المكابرة للعقول ، إما أن تكون فى إثبات ما أثبتوه ، وإما أن تكون في تناقضهم بجمع من إثبات هذه الأمور ونفى الجوارح .

أما الأول : فباطل . فإن المجسمة المحضة التى تصرح بالتجسيم المحض ، وتغلو فيه لم يقل أحد قط : إن قولها مكابرة للعقول ، ولا قال أحد : إنهم لايخاطبون ، بل الذين ردوا على غالية المجسمة ــ مثل هشام بن الحكم وشيعته ــ لم يردوا عليهم من الحجج العقلية إلا بحجج تحتاج إلى نظر واستدلال . والمنازع لهم ــ وإن كان مبطلا فى كثير مما يقوله ــ فقد قابلهم بنظير حججهم ، ولم يكونوا عليه بأظهر منه عليهم ، إذ مع كل طائفة حق وباطل .

وإذا كان مثل أبي الفرج بن الجوزى إنما يعتمد فى نفى هذه الأمور على مايذكره نفاة المظار : فأولئك لا يكادون يزعمون فى شيء من النفى والإثبات أنه مكابرة للمعقول ، حتى جاحدو الصانع ، الذين هم أجهل الخلق وأضلهم وأكفرهم ، وأعظمهم خلافا للعقول ــ لا يزعم أكثر هؤلاء الذين انتصر بهم أبو الفرج : أن قولهم مكابرة للعقول، بل يزعمون أن العلم بفساد قولهم إنما يعلم بالنظر والاستدلال.

وهذا القول ــ وإن كان يقوله جل هؤلاء النفاة من أهل الكلام ــ فليس هو طريقة مرضية ، لكن المقصود : أن هؤلاء النفاة لا يزعمون أن العلم بفساد قول المثبتة معلوم بالضرورة ولا أن قولهم مكابرة للعقل ، وإن شنعوا عليهم بأشياء ينفر عنها كثير من الناس : فذاك ليستعينوا بنفرة النافرين على دفعهم ، وإخماد قولهم ، لا لأن نفور النافرين عنهم يدل على حق أو باطل ، ولالأن قولهم مكابرة للعقل ، أو معلوم بضرورة العقل ، أو ببديهة فساده . هذا لم أعلم أحدا من أئمة

(١) القائل : هو أبو الفرج ابن الجوزى ، والمعترض ناقل عنه اهـ

النفاة أهل النظر يدعيه فى شىء من أقوال المثبتة ، و إن كان فيها من اللغو مافيها .

ومن المعلوم أن مجرد نفور النافرين أو محبة الموافقين : لا يدل على صحة قول ولا فساده إلا إذا كان ذلك بهدى من الله ، بل الاستدلال بذلك هو استدلال باتباع الهوى بغير هدى من الله . فإن اتباع الانسان لما يهواه هو أخذ القول والفعل الذى يحبه ، وَرَدُّ القول والفعل الذى يبغضه بلا هدى من الله . قال تعالى : (٦ : ١١٩ و إن كثيرا ليضلون بأهوائهم بغير علم) وقال (٢٨ . ٥٠ فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم، ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله؟) وقال تعالى لداود (٣٨ : ٢٦ ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله) وقال تعالى(٦ : ١٥٠ فإن شهدوا فلا تشهد معهم ، ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا والذين لا يؤمنون بالآخرة ، وهم بربهم يعدلون) وقال تعالى(٥ : ٧٧ قل يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم غير الحق ، ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل) وقال تعالى (٢ : ١٢٠ ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم . قل إن هدى الله هو الهدى . ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذى جاءك من العلم ما لك من الله من ولى ولا نصير) .

فمن اتبع أهواء الناس بعد العلم الذى بعث الله به رسوله و بعد هدى الله الذى بينه لعباده : فهو بهذه المثابة . ولهذا كان السلف يسمون أهل البدع والتفرق المخالفين للكتاب والسنة : أهل الأهواء ، حيث قبلوا ما أحبوه، وردوا ما أبغضوه بأهوائهم بغير هدى من الله .

وأما قول المعترض عن أبى الفرج « وكأنهم يخاطبون الأطفال » فلم تخاطب الحنابلة إلا بما ورد عن الله ورسوله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان ، الذين هم أعرف بالله وأحكامه وسلمنا لهم أمر الشريعة ، وهم قدوتنا فيما أخبروا عن الله وشرعه . وقد أنصف من أحال عليهم ، وقد شاقق من خرج عن طريقتهم وادعى أن غيرهم أعلم بالله منهم ، أو أنهم علموا وكتموا ، وأنهم لم يفهموا ما أخبروا به ،

أو أن عقل غيرهم فى باب معرفة الله أتم وأكمل وأعلم مما نقلوه وعقلوه .

وقد قدمنا ما فيه كفاية في هذا البـاب . والله الموفق . ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور .

فصل

وأما المنطق : فمن قال : إنه فرض كفاية ، وأن من ليس له به خبرة فليس له ثقة بشىء من علومه : فهذا القول فى غاية الفساد من وجوه كثيرة التعداد مشتمل على أمور فاسدة ودعاو باطلة كثيرة ، لا يتسع هذا الموضع لاستقصائها .

بل الواقع قديما وحديثا : أنك لا تجد من يلزم نفسه أن ينظر فى علومه به ويناظر به إلا وهو فاسد النظر والمناظرة ، كثير العجز عن تحقيق علم و بيانه .

فأحسن ما يحمل عليه كلام المتكلم على هذا : أن يكون قد كان هو وأمثاله فى غاية الجهالة والضلالة . وقد فقدوا أسباب الهدى كلها ، فلم يجدوا ما يردهم عن تلك الجهالات إلا بعض مافى المنطق من الأمور التى هي صحيحة . فإنه سبب بعض ذلك رجع كثير من هؤلاء عن بعض باطلهم ، وإن لم يحصـل لهم حق ينفعهم ، وإن وقعوا فى باطل آخر . ومع هذا فلا يصح نسبة وجوبه إلى شريعة الإسلام بوجه من الوجوه . إذ من هذه حاله فإنما أتى من نفسه بترك ما أمر الله به من الحق ، حتى احتاج إلى الباطل .

ومن المعلوم : أن القول بوجوبه قول غلاته وجهال أصحابه (١) . ونفس الحذاق منهم لا يلتزمون قوانينه فى كل علومهم ، بل يعرضون عنها . إما لطولها وإما لعدم فائدتهـا ، وإما لفسادها ، وإما لعدم تميزها وما فيها من الإجمال والاشتبـاه . فإن فيه مواضع كثيرة هى لحم جمل غَثّ على رأس جبل وَعْر ، لا سهل فيرتقى ولا سمين فينتقل (٢) .

(١) غلاة أهل المنطق ، والجهال منهم هم القائلون بوجوبه. وكتبه سليمان الصنيع

(٢) يضرب مثلا للشيء الذى يغرك ظاهره فإذا دنوت منه وبحثته لم تجـد مافيه يكافىء تعب السعى إليه .

ولهذا ما زال علماء المسلمين وأئمة الدين يذمونه ويذمون أهله ، وينهون عنه وعن أهله ، حتى رأيت للمتأخرين فُتيا فيها خطوط جماعة من أعيان زمانهم من أئمة الشافعية والحنفية وغيرهم فيها كلام عظيم فى تحريمه وعقوبة أهله ، حتى إن من الحكايات المشهورة التى بلغتنا : أن الشيخ أبا عمرو بن الصلاح أمر بانتزاع مدرسة معروفة من أبى الحسن الآمدى ، وقال : أخذُها منه أفضل من أخذ عكا[1] مع أن الآمدى لم يكن أحد فى وقته أكثر تبحرا فى العلوم الكلامية والفلسفية منه . وكان من أحسنهم إسلاما ، وأمثلهم اعتقادا .

ومن المعلوم أن الأمور الدقيقة : سواء كانت حقا أو باطلا ، إيمانا أو كفرا ، لا تعلم إلا بذكاء وفطنة ، فكذلك أهله[2] قد يستجهلون من لم يشركهم في علمهم وإن كان إيمانه أحسن من إيمانهم ، إذا كان فيه قصور فى الذكاء والبيان وهم كما قال الله تعالى (٨٣ : ٢٩ ـ ٣٦ إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون . وإذا مروا بهم يتغامزون . وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فَكِهين . وإذا رأوهم ، قالوا : إن هؤلاء لضالون . وما أرسلوا عليهم حافظين . فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون . على الأرائك ينظرون .هل ثُوِّب الكفار ما كانوا يفعلون؟)

فإذا تقلدوا عن طواغيتهم أن كل ما لم يحصل بهذه الطريق القياسية فليس بعلم ، وقد لايحصل لكثير منهم من هذه الطريق القياسية[3] مايستفيد به الايمان الواجب ، فيكون كافرا زنديقا منافقا جاهلا ضالا مضلا ، ظلوما كفورا ، ويكون من أكابر أعداء الرسل ، الذين قال الله فيهم (٢٥: ٣١ ـ ٣٣ وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا من المجرمين ، وكفى بربك هاديا ونصيرا . وقال الذين كفروا لولا نزل

(١) أى من الإفرنج أيام احتلالهم لبعض بلاد الشام ومصر فى المائة السادسة .
(٢) أهل المنطق . (٣) المنطقية .

عليه القرآن جملة واحدة ؟ كذلك لنثبت به فؤادك ، ورتلناه ترتيلا . ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا) .

وربما حصل لبعضهم إيمان إما من هذه الطريق أو من غيرها . ويحصل له أيضا منها نفاق ، فيكون فيه إيمان ونفاق، ويكون فى حال مؤمنا وفى حال منافقا ويكون مرتدا : إما عن أصل الدين ، أو عن بعض شرائعه : إما ردة نفاق ، وإما ردة كفر . وهذا كثير غالب ، لا سيما فى الأعصار والأمصار التي تغلب فيها الجاهلية والكفر والنفاق .

فلهؤلاء من عجائب الجهل والظلم والكذب والكفر والنفاق والضلال ، مالا يتسع لذكره المقام .

ولهذا لما تفطن كثير منهم لما فى هذا النفى من الجهل والضلال صاروا يقولون : النفوس القدسية ـ كنفوس الأنبياء والأولياء ـ تفيض عليها المعارف بدون الطريق القياسية .

وهم متفقون جميعهم على أن من النفوس ن يستغنى عن وزن علومها بالموازين الصناعية فى المنطق ، لكن قد يقولون : هو حكيم بالطبع .

والقياس ينعقد فى نفسه بدون تعلم هذه الصناعة ، كما ينطق العربى بالعربية بدون النحو ، وكما يقرض الشاعر الشعر بدون معرفة العروض ، لكن استغناء بعض الناس عن هذه الموازين لا يوجب استغناء الآخرين . فاستغناء كثير من النفوس عن هذه الصناعة لا ينازع فيه أحد منهم .

والكلام هنا : هل تستغنى النفوس فى علومها الكلية عن نفس القياس المذكور ، ومواده المعينة . فالاستغناء عن جنس هذا القياس شىء ، وعن الصناعة القانونية التى يوزن بها القياس شىء آخر . فإنهم يزعمون « أنه آلة قانونية تمنع مراعاتها الذهن أن يزل فى فكره » وفساد هذا مبسوط مذكور فى موضع غير هذا.

ونحن بعد أن تبينا عدم فائدته ، وأنه قد يتضمن من العلم ما يحصل

بدونه ثم تبينا أنا لو قدرنا أنه قد يفيد بعض الناس من العلم ما يفيده هو فلا يجوز أن يقال : ليس إلى ذلك العلم لذلك الشخص ، ولسائر بنى آدم طريق إلا بمثل القياس المنطقى . فإن هذا قول بلا علم . وهو كذب محقق . ولهذا ما زال متكلمو المسلمين ــ و إن كان فيهم نوع من البدعة ــ لهم من الرد عليه وعلى أهله و بيان الاستغناء عنه ، وحصول الضرر والجهل به والكفر ما ليس هذا موضعه ، دع غيرهم من طوائف المسلمين وعلمائهم وأئمتهم ، كما ذكره القاضى أبو بكر بن الباقلانى فى كتاب « الدقائق » .

فأما الشعرى ــ وهو ما يفيد مجرد التخييل وتحريك النفس ــ وذلك يظهر بأنهم جعلوا الأقيسة خمسة : البرهانى ، والخطابى ، والجدلى ، والشعري ، والمغلطى السوفسطائى . وهو ما يشبه الحق وهو باطل ، وهو الحكمة المموهة ــ فلا غرض لنا فيه هنا ، ولكن غرضنا تلك الثلاثة .

قالوا : « الجدلى » ما سلم المخاطب مقدماته ، و « الخطابى » ما كانت مقدماته مشهورة بين الناس ، و « البرهانى » ما كانت مقدماته معلومة .

وكثير من المقدمات تكون ــ مع كونها خطابية أو جدلية ــ يقينية برهانية ، بل وكذلك مع كونها شعرية ، ولكن هى من جهة التيقن بها : تسمى برهانية ، ومن جهة شهرتها عند عموم الناس وقبولهم لها : تسمى خطابية ، ومن جهة تسليم الشخص المعين لها: تسمى جدلية

هذا كلام أولئك المبتدعة الصابئة الذين لم يذكروا النبوات ، ولا تعرضوا لها بنفي ولا إثبات . وعدم التصديق للرسل واتباعهم كفر وضلال . و إن لم تعتقد تكذيبهم فالكفر والضلال أعم من التكذيب .

وأما قول بعض المتأخرين فى المشهورات : هى المقبولات لكون صاحبها مؤيداً بأمر يوجب قبول قوله ونحو ذلك ــ فهذه من الزيادات التى ألزمتهم إياها الحجة ، ورأوا وجوب قبولها على طريقة الأولين. ولهذا كان غالب صابئة المتأخرين

الذين هم الفلاسفة ممتزجين بالحنيفية ، كما أن غالب من دخل فى الفلسفة من الحنفاء مزج الحنيفية بالصَّبْء ، ولبس الحق بالباطل ، أعنى بالصَّبْء المبتدع الذى ليس فيه إيمان بالنبوات كصبء[1] صاحب المنطق وأتباعه .

وأما الصبء القديم[2] فذاك أصحابه : منهم المؤمنون بالله واليوم الآخر ، الذين آمنوا وعملوا الصالحات . فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، كما أن التهود والتنصر منه ما أهله مبتدعون ضلال قبل إرسال محمد صلى الله عليه وسلم ، ومنه ما كان أهله متبعين للحق . وهم الذين آمنوا بالله واليوم الآخر وعملوا الصالحات ، فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون .

ومن قال من العلماء المصنفين فى المنطق : إن القياس الخطابى هو ما يفيد الظن ، كما أن البرهانى مايفيد العلم : فلم يعرف مقصود القوم ، ولا قال حقاً . فإن كل واحد من الخطابى والجدلى قد يفيد الظن ، كما أن البرهانى قد تكون مقدماته مشهورة ومسلمة .

فالتقسيم لمواد القياس وقع باعتبار الجهات التى يقبل منها ، فتارة يقبل القول لأنه معلوم ، إذ العلم يوجب القبول . وأما كونه لا يفيد العلم فلا يوجب قبوله إلا لسبب . فإن كان لشهرته : فهو خطابى ، ولو لم يفد علما ولا ظنا . وهو أيضاً خطابى إذا كانت قصته مشهورة، و إن أفاد علماً أو ظنا. والقول فى الجدلى كذلك

ثم إنهم قد يمثلون المشهورات المقبولات التى ليست علمية بقولنا« العلم حسن والجهل قبيح ، والعدل حسن ، والظلم قبيح » ونحو ذلك من الأحكام العملية العقلية التى يثبتها من يقول بالتحسين والتقبيح . و يزعمون أنا إذا رجعنا إلى محض العقل لم نجد فيه حكما بذلك . وقد يمثلونها بأن الموجود لا بد أن يكون مباينا للموجود الآخر أو محايثا له ، أو أن الموجود لابد أن يكون بجهة من الجهات . أو

(١) أى دين أرسطو واضع المنطق . و « الصبء » مصدر صبأ

(٢) الذى كان قبل أرسطو .

يكون جائز الرؤية ويزعمون : أن هذا من أحكام الوهم لا الفطرة العقلية .

قالوا : لأن العقل يسلم مقدمات يعلم بها فساد الحكم الأول .

وهذا كله تخليط ظاهر لمن تدبره .

فأما أن تلك القضايا التى سموها مشهورات غير معلومة فهي من العلوم العقلية البديهية التى جَزْم العقول بها أعظم من جزمها بكثير من العلوم الحسابية والطبيعية وهى كما قال أكثر المتكلمين من أهل الإسلام ، بل أكثر متكلمى أهل الأرض من جميع الطوائف : إنها قضايا بديهية عقلية ، لكن قد لا يحسنون تفسير ذلك . فإن حسن ذلك وقبحه هو حسن الأفعال وقبحها ، وحسن الفعل هو كونه مقتضيا لما يطلبه الحى لذاته ويريده من المقاصد ، وقبحه بالعكس . والأمر كذلك .

فإن العلم والصدق والعدل هى كذلك محصلة لما يُطلَب لذاته ويراد لنفسه من المقاصد ، فحُسن الفعل وقبحه هو لكونه محصلا للمقصود المراد بذاته أو منافيا لذلك .

ولهذا كان الحق يطلق تارة بمعنى النفى والاثبات ، فيقال : هذا حق أى ثابت ، وهذا باطل أى منتف ، وفى الافعال : بمعنى التحصيل للمقصود ، فيقال : هذا الفعل حق ، أى نافع ، أو محصِّل للمقصود ، ويقال : باطل أى لا فائدة فيه ونحو ذلك .

وأما زعمهم : أن البديهة والفطرة قد تحكم بما يتبين لها بالقياس فساده : فهذا غلط . لأن القياس لا بد له من مقدمات بديهية فطرية . فإن جُوِّز أن تكون المقدمات الفطرية البديهية غلطاً من غير تبيين غلطها إلا بالقياس ، لكانت المقدمات الفطرية قد تعارضت بنفسها . ومقتضى القياس الذى مقدماته فطرية . فليس رد هذه المقدمات الفطرية لأجل تلك بأولى من العكس ، بل الغلط فيما تقل مقدماته أولى فما يعلم بالقياس وبمقدمات فطرية : أقرب إلى الغلط مما يعلم بمجرد الفطرة .

وهذا يذكرونه فى نفى علو الله على العرش ونحو ذلك من أباطيلهم

والمقصود هنا : أن متقدميهم لم يذكروا المقدمات المتلقاة من الأنبياء ، ولكن المتأخرون رتبوه على ذلك : إما بطريق الصابئة الذين لبسوا الحنيفية بالصابئة كابن سينا ونحوه ، وإما بطريق المتكلمين الذين أحسنوا الظن بما ذكره المنطقيون وقرروا إثبات العلم بموجب النبوات به [١] .

أما الأول : فإنه [٢] جعل علوم الأنبياء من العلوم الحدسية لقوة صفاء تلك النفوس القدسية وطهارتها ، وأن قوى النفوس فى الحدس لا تقف عند حد . ولا بد للعالم من نظام ينصبه حكيم ، فيعطى النفوس المؤيدة من القوة ما تعلم به ما لا يعلمه غيرها بطريق الحدْس . ويتمثل لها ما تسمعه وتراه فى نفسها من الكلام ومن الملائكة ما لا يسمعه غيرها ، ويكون لها من القوة العملية التى تطيعها بها هَيْولَى العالم ما ليس لغيرها . فهذه الخوارق فى قوى العلم مع السمع والبصر ، وقوة العمل والقدرة : هى النبوة عندهم .

ومعلوم أن الحدس راجع إلى قياس التمثيل ، كما تقدم . وأما ما يسمع ويرى فى نفسه فهو من جنس الرؤيا . وهذا القدر يحصل مثله لكثير من عوام الناس ، وكفارهم ، فضلا عن أولياء الله وأنبيائه . فكيف يجعل ذلك هو غاية النبوة ؟ وإن كان الذى يثبتونه للأنبياء أكمل وأشرف ، فهو كملك أقوى من ملك . ولهذا صاروا يقولون : النبوة مكتسبة ، ولم يثبتوا نزول ملائكة من عند الله إلى من يختاره ويصطفيه من عباده ، ولا قصد إلى تكليم شخص معين من رسله ، كما يذكر عن بعض قدمائهم [٣] أنه قال لموسى بن عمران : أنا أصدقك فى كل شىء إلا فى أن علة العلل كلمك ، ما أقدر أن أصدقك فى هذا . ولهذا صار من ضل بمثل هذا

---

(١) بالمنطق .

(٢) ابن سينا وأضرابه الخالطون بين الحنيفية والصابئة .

(٣) هذا الكلام يحكى عن أفلاطون شيخ إرسطو .

الـكلام يدعى مساواة الأنبياء والمرسلين أو التقدم عليهم . وهذا كثير فى كثير من الناس الذين يعتقدون فى أنفسهم أنهم أكمل النوع ، وهم من أجهل الناس وأظلمهم وأكفرهم وأعظمهم نفاقاً .

وأما المتـكلمون المنطقيون فيقولون : يُعلم بهذا القياس ثبوت الصانع وقدرته وجواز إرسال الرسل ، وتأييد الله لهم بما يوجب تصديقهم فيما يقولونه . وهـذه الطريقة أقرب إلى طريقة العلماء المؤمنين ، وإن كان قد يكون فيها أنواع من الباطل : تارة من جهة ما تقلدوه عن المنطقيين ، وتارة من جهة ما ابتدعوه هم مما ليس هذا موضعه .

ومنطقية اليهود والنصارى كذلك ، لـكن الهدى والعلم والبيان فى فلاسفة المسلمين ومتـكلميهم أعظم منه فى أهل الـكتابين ، لما فى تينك الملتين من الفساد .

ولـكن الغرض تقرير جنس النبوات . فإن أهـل الملل متفقون عليهـا لـكن اليهود والنصارى آمنوا ببعض الرسل وكفروا ببعض . والصابئة الفلاسفة ونحوهم آمنوا ببعض صفات الرسـالة دون بعض . فإذا اتفق متفلسف من أهل الـكتاب جمع الـكفرين : الـكفر بخاتم المرسلين . والـكفر بحقائق صفات الرسالة فى جميع المرسلين ، فهذا هذا .

فيقال لهم ــ مع علمهم بتفاوت قوى بنى آدم فى الادراك ــ : ما المانع من أن يخرق سمع أحدهم وبصره ، حتى يسمع ويرى من الأمور الموجودة فى الخارج ما لا يراه غيره ؟ كما قال النبى صلى الله عليه وسلم « إني أرى ما لا ترون ، وأسمع ما لا تسمعون ، أطَّت السماء وحُقَّ لها أن تئط ، ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك قائم أو قاعد أو راكع أو ساجد » فهذا إحساس بالظاهر أو بالباطن لما هو فى الخارج.

وكذلك العلوم الـكلية البديهية قد علمتم أنها ليس لها حد فى بنى آدم. فمن أين لـكم أن بعض النفوس يكون لها من العلوم البديهية ما يختص بها وحدها

أو بها و بأمثالها ما لا يكون من البديهيات عندكم ؟ و إذا كان هذا ممكنا ـ وعامة أهل الأرض على أنه واقع لغير الأنبياء ، دع الأنبياء ـ فمثل هذه العلوم ليس فى منطقكم طريق إليها ، إذ ليست من المشهورات ولا الجدليات ، ولا موادها عندكم يقينية ، وأنتم لا تعلمون نفيها ، وجمهور أهل الأرض من الأولين والآخرين على إثباتها . فإن كذبتم بها كنتم ـ مع الكفر والتكذيب بالحق وخسارة الدنيا والآخرة ـ تاركين لمنطقكم أيضاً ، وخارجين عما أوجبتموه على أنفسكم : أنكم لا تقولون إلا بموجب القياس ، إذ ليس لكم بهذا النفى قياس ولا حجة تذكر . ولهذا لم تذكروا عليه حجة ، و إنما اندرج هذا النفى فى كلامكم بغير حجة .

و إن : قلتم بل هى حق اعترفتم بأن من الحق ما لا يوزن بميزان منطقكم.

و إن قلتم : لا ندرى أحق هى أم باطل ؟ اعترفتم بأن أعظم المطالب وأجلها لا يوزن بميزان المنطق .

فإن صدّقتم[1] لم يوافقكم المنطق . و إن كذّبتم لم يوافقكم المنطق . و إن ارتبتم لم ينفعكم المنطق .

ومن المعلوم : أن موازين الأموال لا يقصد أن يوزن بها الحطب والرصاص دون الذهب والفضة . وأمر النبوات وما جاءت به الرسل أعظم فى العلوم من الذهب فى الأموال . فإذا لم يكن فى منطقكم ميزان له كان الميزان ـ مع أنه ميزان ـ عائلاً جائراً ، وهو أيضاً عاجز . فهو[2] ميزان جاهل ظالم ، إذ هو إما أن يرد الحق ويدفعه فيكون ظالما ، أولا يزنه ولا يبين أمره فيكون جاهلا ، أو يجتمع فيه الأمران فيرد الحق ويدفعه ـ وهو الحق الذى ليس للنفوس عنه عوض ، ولا لها عنه مندوحة ، وليست سعادتها إلا فيه ولا هلاكها إلا بتركه ـ فكيف يستقيم ـ مع هذا ـ أن تقولوا : إنه وما وزنتموه به من المتاع الخسيس الذى أنتم فى وزنكم

---

(١) أى بالنبوة فيها . (٢) المنطق .

إياه به ظالمون عائلون ، لم تزنوا بالقسطاس المستقيم ، ولم تستدلوا بالآيات البينات : هو العلوم الحقيقية ، والحكمه اليقينية ، التي فاز بالسعادة عالمها ، وخاب بالشقاوة جاهلها . ورأس مال السادة ، وغاية العالم المنصف منكم : أن يعترف بعجز ميزانكم عنه .

وأما عوام علمائكم فيكذبون به و يردونه ، و إن كان منطقكم ، يرد عليهم ، فلستم بتحريف أمر منطقكم أحسن حالا من اليهود والنصارى فى تحريف كتاب الله الذى هو فى الأصل حق هاد لا ريب فيه .

فهذا هذا ولا حول ولا قوة إلا بالله .

وأيضاً هم متفقون على أنه لا يفيد إلا أموراً كلية مقدرة فى الذهن ، لا يفيد العلم بشىء موجود محقق فى الخارج إلا بتوسط شىء آخر غيره . والأمور الكلية الذهنية ليست هى الحقائق الخارجية ، ولا هى أيضاً علما بالحقائق الخارجية ، إذ لكل موجود حقيقة يتميز بها عن غيره ، هو بها هو ، وتلك ليست كلية ، فالعلم بالأمر المشترك لا يكون علما بها فلا يكون فى القياس المنطقى علم تحقيقه بشىء[1] من الأشياء وهو المطلوب .

---

(١) وقد أصلحها الشيخ محمد بن عبد الرزاق ، وجعلها « تحقيق شىء » ثم علق عليها بقوله : يعنى أن العلم بالحقائق الذهنية الكلية التى تعلم بالمنطق ، وهى مشتركة بين أشياء كثيرة لا يفيد العلم بحقائقها الخارجية التى يتميز بها بعضها عن بعض . فالمنطق لا يفيد العلم بحقائق الأشياء الخارجية . اه

وقد تعقبه الشيخ سليمان الصنيع ، فقال :

أقول : واجب شيخنا ـ إذا فهم أن ما في الأصل محرف ، وأن الصواب خلافه ـ أن يقول : كذا فى الأصل ، وينبه على ما رآه صوابا فى الهامش . هذا هو واجب المحافظة على الأصول . وأما طمس ما فى الأصل أو الشطب عليه : فهذا عمل مخل ومفسد للأصول ، ويفتح الباب لكل أحد ـ إذا لم يفهم ما فى الأصل ـ أن يضرب على الأصل ويكتب ما فهمه هو ، كما فعل شيخنا . =

وأيضاً هم يطعنون فى قياس التمثيل . وقد يقولون : إنه لا يفيد إلا الظن ، وربما تكلموا على بعض الأقيسة الفرعية ، أو الأصلية التى تكون مقدماتها ضعيفة أو مظنونة ، مثل كلام السهروردى المقتول على الزندقة صاحب التلويحات والألواح وحكمة الاشراق . وكان فى فلسفته مستمداً من الروم الصابئين والفرس المجوس . وهاتان المادتان : هما مادتا القرامطة الباطنية ومن دخل ويدخل فيهم من الإسماعيلية والنصيرية وأمثالهم . وهم ممن دخل فى قوله صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح « لتأخُذُنّ مأخذ الأمم قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع ، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه ، قالوا : فارس والروم ؟ قال : فمن ؟ »

والمقصود : أن ذكر كلام السهروردى هذا على قياس ضربه ، وهو أن يقال : السماء محدثة ، قياساً على البيت ، بجامع ما يشتركان فيه من التأليف فيحتاج أن يثبت أن علة حدوث البناء هو التأليف وأنه موجود فى الفرع .

والتحقيق : أن قياس التمثيل أبلغ فى إفادة العلم واليقين من قياس الشمول وإن كان علم قياس الشمول أكثر فذلك أكبر، فقياس التمثيل فى القياس العقلى كالبصر فى العلم الحسى ، وقياس الشمول : كالسمع فى العلم الحسى . ولا ريب أن البصر أعظم وأكمل ، والسمع أوسع وأشمل ، فقياس التمثيل : بمنزلة البصر ، كما

= وأقول : إن ما فى الأصل صحيح . ومعنى كلام المصنف : أن القياس المنطقى لا يفيد العلم ، ما دام تحقيقه بشىء من الأشياء . وقد صرح المؤلف نفسه به قبل هذا . وهو قوله « لا يفيد العلم بشىء موجود فى الخارج إلا بتوسط شىء آخر غيره » وكذلك صرح فى ص ١٨٠ من الأصل المخطوط و ١٩٣ من هذا المطبوع « أن القياس المذكور لا يفيد علما إلا بواسطة قضية كلية موجبة الخ وكذلك قال فى ص ١٨٣ من الأصل المخطوط « والقياس لا يفيد العلم إلا بواسطة قضية كلية » ثم قال « قد تبين لك بإجماعهم وبالعقل أن القياس المنطقى لا يفيد إلا بواسطة قضية كلية » اهـ . هذا ما ظهر لى والعلم الحق عند الله .

قيل : من قاس ما لم يره بما رأى[١] وقياس الشمول يشابه السمع من جهة العموم .

ثم إن كل واحد من القياسين ـ فى كونه علمياً أو ظنياً ـ يتبع مقدماته ، فقياس التمثيل فى الحسيات وكل شيء . إذا علمنا أن هذا مثل هذا علمنا أن حكمه حكمه ، وإن لم نعلم علة الحكم ، وإن علمنا علة الحكم استدللنا بثبوتها على ثبوت الحكم ، فبكل واحد من العلم بقياس التمثيل وقياس التعليل يعلم الحكم ، وقياس التعليل : هو فى الحقيقة من نوع قياس الشمول ، لكنه امتاز عنه بأن الحد الأوسط ـ الذى هو الدليل فيه ـ هو علة الحكم ، ويسمى قياس العلة ، وبرهان العلة . وذلك يسمى قياس الدلالة وبرهان الدلالة ، وإن لم نعلم التماثل والعلة ، بل ظنناها ظناً كان الحكم كذلك .

وهكذا الأمر فى قياس الشمول: إن كانت المقدمتان معلومتين كانت النتيجة معلومة ، وإلا فالنتيجة تتبع أضعف المقدمات .

فأما دعواهم : أن هذا[٢] لا يفيد العلم ، فهو غلط محض محسوس ، بل عامة علوم بنى آدم العقلية المحضة [هى] من قياس التمثيل .

وأيضاً فإن علومهم التى جعلوا هذه الصناعة[٣] ميزاناً لها بالقصد الأول : لا يكاد ينتفع بهذه الصناعة المنطقية فى هذه العلوم إلا قليلا . فإن العلوم الرياضية : من حساب العدد ، وحساب المقدار الذهنى والخارجى ، قد علم أن الخائضين فيها من الأولين والآخرين مستقلون بها من غير التفات إلى هذه الصناعة المنطقية واصطلاح أهلها ، وكذلك مايصح من العلوم الطبيعية ، الكلية والطبية ، تجد الحاذقين فيها لم يستعينوا عليها بشيء من صناعة المنطق ، بل إمام صناعة الطب بقراط : له فيها من الكلام الذى تلقاه أهل الطب بالقبول ووجدوا مصداقه بالتجارب ، وله فيها من القضايا الكلية التى هى عند عقلاء بنى آدم من أعظم

(١) كذا بالأصل (٢) يعنى قياس التمثيل . (٣) يعنى المنطق

الأمور ، ومع هذا فليس هو مستعيناً بشيء من هذه الصناعة ، بل كان قد وضعها وهم[١] وإن كان العلم الطبيعي عندهم أعلم وأعلى من علم الطلب فلا ريب أنه متصل به . فبالعلم بطبائع الأجسام المعينة المحسوسة يعلم طبائع سائر الأجسام ، ومبدأ الحركة والسكون الذى فى الجسم . ويستدل بالجزء على الكل . ولهذا كثيراً مايتناظرون فى مسائل ويتنازع فيها هؤلاء وهؤلاء ، كتناظر الفقهاء والمتكلمين فى مسائل كثيرة تتفق فيها الصناعتان ، وأولئك يدعون عموم النظر ، ولكن الخطأ والغلط عند المتكلمين والمتفلسفة أكثر مما هو عند الفقهاء والأطباء ، وكلامهم[٢] وعلمهم أنفع ، وأولئك[٣] أكثرضلالا وأقل نفعاً،لأنهم طلبوا بالقياس ما لا يعلم بالقياس، وزاحموا الفطرة والنبوة مزاحمة أوجبت من مخالفتهم للفطرة والنبوة ماصاروا به من شياطين الإنس والجن الذين يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً ، بخلاف الطب المحض فإنه علم نافع ، وكذلك الفقة المحض .

وأما علم مابعد الطبيعة ـ وإن كانوا يعظمونه ، ويقولون : هو الفلسفة الأولى ، وهو العلم الكلى الناظر فى الوجود ولواحقه ، ويسميه متأخروهم العلم الإلهى ، وزعم المعلم الأول[٤] لهم : أنه غاية فلسفتهم ونهاية حكمتهم ـ فالحق فيه من المسائل قليل نزر ، وغالبه علم بأحكام ذهنية لاحقائق خارجية . وليس على أكثره قياس منطقى . فإن الوجود المجرد والوجوب والإمكان والعلة المجردة والمعلول ، وانقسام ذلك إلى جزء الماهية ، وهو المادة والصورة ، وإلى علتي وجودها ، وهما الفاعل والغاية ، والكلام فى انقسام الوجود إلى الجواهر والأعراض التسعة ، التى هى : الكم ، والكيف ، والإضافة ، والأين ، ومتى ، والوضع ، والملك ، وأن يفعل ، وأن ينفعل ، كما أنشد بعضهم فيها :

---

(١) كذا بالأصل ، فليتأمل . (٢) يعنى الفقهاء والأطباء . (٣) أرسطو .
(٤) المتكلمون والمتفلسفة .

زيد(١) الطويل(٢) الأسود(٣) ابن مالك(٤)
في داره(٥) بالأمس(٦) كان يتكي(٧)
بيده سيف(٨) نضاه(٩) فانتضى(١٠)
فهذه عشر مقولات سواء

ليس عليها ولا على أقسامها قياس منطقي ، بل غالبها مجرد استقراء قد نوزع صاحبه في كثير منه .

فإذا كانت صناعتهم بين معلوم لا يحتاج فيها إلى القياس المنطقي . و بين مالا يمكنهم أن يستعملوا فيه القياس المنطقي : كان عديم الفائدة في علومهم ، بل كان فيه من شغل القلب عن العلوم والأعمال النافعة ماضر كثيراً من الناس ، كما سد على كثير منهم طريق العلم ، وأوقعهم في أودية الضلال والجهل ، فما الظن بغير علومهم من العلوم التي لا تحد للأولين والآخرين(١١) .

وأيضاً لا تجد أحداً من أهل الأرض حقق علماً من العلوم وصار إماماً فيه مستعيناً بصناعة المنطق ، لا من العلوم الدينية ولا غيرها ، فالأطباء والحساب والكتاب ونحوهم يحققون مايحققون من علومهم وصناعاتهم بغير صناعة المنطق

---

(١) مثال الجوهر (٢) مثال الكم (٣) مثال الكيف (٤) مثال الإضافة
(٥) مثال أين (٦) مثال متى (٧) مثال الوضع (٨) مثال الملك
(٩) مثال أن يفعل (١٠) مثال أن ينفعل

وتسمى عندهم المقولات العشر . فأولها الجوهر ، وهو مايقوم بنفسه و التسعة بعده أعراض ، وهي ماتقوم بالجوهر . فالكم ما يقبل القسمة بذاته ، وهو منفصل ، وهو العدد ومتصل وهو المقدار الهندسي ، من خط وسطح وجسم تعليمي . والكيف مالا ينقسم كالحرارة والألوان . والإضافة مايعقل بإضافته إلى غيره كالأبوة والبنوة . والأين المكان ، ومتى الزمان ، والوضع والملك معلومان ، وأن يفعل تأثير الفاعل وأن ينفعل تأثر المفعول كضرب الضارب وانضراب المضروب .

(١١) بهامش الأصل : في نسخة . وهذا يظهر بالوجه العاشر .

وقد صُنف فى الإسلام علوم النحو واللغة والعروض والفقه وأصوله والـكلام وغير ذلك . وليس فى أئمة هذه الفنون من كان يلتفت إلى المنطق ، بل عامتهم كانوا قبل أن يعربْ هذا المنطق اليونانى .

وأما العلوم الموروثة عن الأنبياء صرفاً ، و إن كان الفقه وأصوله متصلا بذلك فهى أجل وأعظم من أن يظن أن لأهلها التفات إلى المنطق ، إذ ليس فى القرون الثلاثة من هذه الأمة ـ التى هى خير أمة أخرجت للنـاس ـ وأفضلها القرون الثلاثة : من كان يلتفت إلى المنطق أو يعرج عليه ، مع أنهم فى تحقيق العلوم وكمالها بالغاية التى لايدرك أحد شأوها ، كانوا أعمق الناس علماً ، وأقلهم تـكلفاً ، وأبرهم قلوباً . ولا يوجد لغيرهم كلام فيما تـكلموا فيه إلا وجدت بين الـكلامين من الفرق أعظم مما بين القدم والفَرْق[1] ، بل الذى وجدناه بالاستقراء أن من المعلوم: أن من الخائضين فى العلوم من أهل هذه الصناعة أكثر الناس شكا واضطراباً ، وأقلهم علماً وتحقيقـاً ، وأبعدهم عن تحقيق علم موزون ، و إن كان فيهم من قد يحقق شيئاً من العلم . فذلك لصحة المـادة والأدلة التى ينظر فيها ، وصحة ذهنه و إدراكه ، لا لأجل المنطق . بل إدخال صناعة المنطق فى العلوم الصحيحة يطول العبارة و يبعد الإشـارة ، و يجعل القريب من العلم بعيداً ، واليسير منه عسيراً . ولهذا تجد من أدخله فى الخلاف والـكلام وأصول الفقه وغير ذلك ، لم يفد إلا كثرة الـكلام والتشقيق ، مع قلة العلم والتحقيق .

فعلم أنه من أعظم حشو الـكلام ، وأبعد الأشياء عن طريقة ذوى الأحلام .

نعم لا ينكر أن فى المنطق ما قد يستفيد ببعضه من كان فى كفر وضلال ، وتقليد ، ممن نشأ بينهم من الجهال ، كعوام النصارى واليهود والرافضة ونحوهم ، فأورثهم المنطق ترك ما عليه أولئك من تلك العقائد . ولـكن يصير غالب هؤلاء

---

(١) يقصد فرق الشعر فى الرأس .

مداهنين لعوامهم ، مضلين لهم عن سبيل الله ، أو يصيرون منافقين زنادقة ، لا يقرون بحق ولا بباطل ، بل يتركون الحق كما تركوا الباطل .

وأذكياء طوائف الضلال إما مضللون مداهنون ، و إما زنادقة منافقون ، لا يكاد يخلو أحد منهم عن هذين .

فأما أن يكون المنطق وقفهم على حق يهتدون به : فهذا لا يقع بالمنطق .

ففي الجملة : ما يحصل به لبعض الناس من شحذ ذهن ، أو رجوع عن باطل أو تعبير عن حق : فإنما هو لكونه كان فى أسوأ حال ، لا لما فى صناعة المنطق من الكمال .

ومن المعلوم : أن المشرك إذا تمجس ، والمجوسي إذا تهود : حسنت حاله بالنسبة إلى ما كان فيه قبل ذلك . لكن لا يصلح أن يجعل ذلك عمدة لأهل الحق المبين .

وهذا ليس مختصا به . بل هذا شأن كل من نظر في الأمور التى فيها دقة ولها نوع إحاطة ، كما تجد ذلك فى علم النحو . فانه من المعلوم أن لأهله من التحقيق والتدقيق والتقسيم والتحديد ما ليس لأهل المنطق ، وأن أهله يتكلمون فى صورة المعانى المعقولة على أكمل القواعد . فالمعانى فطرية عقلية لا تحتاج إلى وضع خاص ، بخلاف قوالبها التى هى الألفاظ ، فانها تتنوع ، فمتى تعلموا أكمل الصور والقوالب للمعانى مع الفطرة الصحيحة كان ذلك أكمل وأنفع وأعون على تحقيق العلوم من صناعة اصطلاحية فى أمور فطرية عقلية لا يحتاج فيها إلى اصطلاح خاص هذا لعمرى من منفعته فى سائر العلوم .

وأما منفعته فى علم الإسلام خصوصاً : فهذا أبين من أن يحتاج إلى بيان . ولهذا تجد الذين اتصلت إليهم علوم الأوائل ، فصاغوها بالصيغة العربية بعقول المسلمين جاء فيها من الكمال والتحقيق والإحاطة والاختصار مالا يوجد فى كلام الأوائل ، و إن كان فى هؤلاء المتأخرين من فيه نفاق وضلال ، لكن عادت

عليهم فى الجملة بركة ما بعث به رسول الله صلى الله عليه وسلم من جوامع الـكلم وما أوتيته أمته من العلم والبيان الذى لم يشركها فيه أحد .

وأيضاً فان صناعة المنطق وضعها معلمهم الأول إرسطو صاحب التعاليم التى لمبتدعة الصابئة يزن بها ما كان هو وأمثاله يتكلمون فيه من حكمتهم وفلسفتهم ، التى هى غاية كمالهم . وهى قسمان : نظرية وعملية .

فأصح النظرية ــ وهى المدخل إلى الحق ــ هى الأمور الحسابية الرياضية .

وأما العملية : فاصلاح الخُلُق والمنزل والمدينة[1] . ولا ريب أن فى ذلك من نوع العلوم والأعمال الذى يتميزون بها عن جهال بنى آدم الذين ليس لهم كتاب منزل ولا نبى مرسل ما يستحقون به التقدم على ذلك . وفيه من منفعة صلاح الدنيا وعمارتها ما هو داخل فى ضمن ما جاءت به الرسل .

وفيها أيضاً من قول الحق واتباعه والأمر بالعدل والنهى عن الفساد : ما هو داخل فى ضمن ما جاءت به الرسل .

فهم بالنسبة إلى جهال الأمم كبادية الترك ونحوهم أمثل إذا خلوا عن ضلالهم فأما مع ضلالهم فقد يكون الباقون على الفطرة من جهال بنى آدم أمثل منهم .

فأما أضلُّ أهل الملل ــ مثل جهال النصارى وسامرة اليهود ــ فهم أعلم منهم وأهدى وأحكم وأتبع للحق . وهذا قد بسطته بسطاً كثيراً فى غير هذا الموضع .

وإنما المقصود هنا : بيان أن هذه الصناعة قليلة المنفعة عظيمة الحشو .

وذلك أن الأمور العملية الخُلقية قل أن ينتفع فيها بصناعة المنطق . إذ القضايا الـكلية الموجبة ــ وإن كانت توجد فى الأمور العملية ــ لـكن أهل السياسة لنفوسهم

---

(١) يسمون اصلاح الخلق تهذيب الاخلاق ، واصلاح المنزل بالسياسة المنزلية أو تدبير الأسرة ، واصلاح المدينة بالسياسة العامة أو سياسة الملك والدولة

ولأهلهم ولملكهم[١] إنما ينالون تلك الآراء الكلية من أمور لا يحتاجون فيها إلى المنطق ، ومتى حصل ذلك الرأى كان الانتفاع به بالعمل .

ثم الأمور العملية لاتقف على رأى كلى ، بل متى علم الانسان انتفاعه بعمل عمله ، وأى عمل تضرر به تركه . وهذا قد يعلّمه بالحس الظاهر أو الباطن لايقف ذلك على رأى كلى .

فعلم أن أكثر الأمور العملية لا يصح استعمال المنطق فيها . ولهذا كان المؤدبون لنفوسهم ولأهلهم ، السائسون لملكهم لايزنون آراءهم بالصناعة المنطقية ، إلا أن يكون شيئاً يسيراً ، والغالب على من يسلكه : التوقف والتعطيل . ولو كان أصحاب هذه الآراء تقف معرفتهم بها واستعمالهم لها على وزنها بهذه الصناعة لكان تضررهم بذلك أضعاف انتفاعهم به ، مع أن جميع مايأمرون به من العلوم والأخلاق والأعمال لا تكفى فى النجاة من عذاب الله ، فضلا عن أن يكون محصلا لنعيم الآخرة[٢] (٧ : ٣٨ حتى إذا ادّاركوا فيها جميعا قالت أخراهم لأولاهم : ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذاباً ضِعْفًا من النار . قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون) كذلك قال(٤٠ : ٨٢ـ ٨٥ أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ؟ كانوا أكثر منهم وأشد قوة وآثارا فى الأرض ، فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون ـ إلى قوله ـ الكافرون)

---

(١) هذه الأقسام الثلاثة هى التى يسمونها الحكمة العملية . فأولها تهذيب الأخلاق ، أشار اليه بقوله «السياسة لنفوسهم» والثاني تدبير المنزل ، أشار إليه بقوله « ولأهلهم » والثالث تدبير الملك ، أشار إليه بقوله « ولملكهم »

(٢) قال فى الأصل المقابل عليه ، لما وقف على قوله « فضلا عن أن يكون محصلا لنعيم الآخرة » يتلوه الخط المعترض، ولم نر خطاً معترضا . وكتبنا من قوله «حتى إذا اداركوا » وهو فى أول الورقة المنكوسة فاعرف ذلك ، كذا بهامش الأصل وفيه أيضا الورقة المنكوسة لليوم

فأخبر هنا بمثل ما أخبر به فى الأعراف : أن هؤلاء المعرضين عما جاءت به الرسل لما رأوا بأس الله وحدوا الله ، وتركوا الشرك فلم ينفعهم ذلك .

وكذلك أخبر عن فرعون ـ وهو كافر بالتوحيد و بالرسالة ـ أنه لما أدركه الغرق (١٠ : ٩٠ ، ٩١ قال : آمنت أنه لا إله الا الذى آمنت به بنو إسرائيل ، وأنا من المسلمين) قال الله (آلآن وقد عصيتَ قبل وكنت من المفسـدين ؟)

وقال تعالى (٧ : ١٧٢ ، ١٧٣ و إذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم ، وأشهدهم على أنفسهم : ألست بربكم ؟ قالوا بلى ، شهدنا ، أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين ، أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل ، وكنا ذرية من بعدهم أفتهلـكنا بما فعل المبطلون ؟) وقال تعالى (١٤ : ٩ ، ١٠ ألم يأتـكم نبأ الذين من قبلـكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله ، جاءتهم رسلهم بالبينات ، فردوا أيديهم فى أفواههم . وقالوا : إنا كفرنا بما أرسلتم به ، و إنا لفى شك مما تدعوننـا إليه مريب ، قالت رسلهم : أفى الله شك ؟ فاطر السموات والأرض ، يدعوكم ليغفر لـكم من ذنوبكم و يؤخركم إلى أجل مسمى . قالوا إن أنتم إلا بشر مثلنا ، تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا فائتونا بسلطان مبين) .

وهذا فى القرآن فى مواضع أخر يبين فيها أن الرسل كلهم أمروا بالتوحيد بعبادة الله وحده لا شريك له ، ونهوا عن عبادة شيء من المخلوقات سواه ، أو اتخاذه إلٰها ، ويخبر أن أهل السعادة هم أهل التوحيد ، وأن المشركين هم أهل الشقاوة . وذكر هذا عن عامة الرسل ، و يبين أن الذين لم يؤمنوا بالرسل مشركون .

فعلم أن التوحيد والإيمان بالرسل متلازمان . وكذلك الإيمان باليوم الآخر هو والإيمان بالرسل متلازمان . فالثلاثة متلازمة . ولهـذا يجمع بينها فى مثل قوله : (٦ : ١٥٠ ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنـا والذين لا يؤمنون بالآخرة وهم بربهم يعدلون) ولهذا أخبر أن الذين لا يؤمنون بالآخرة مشركون . فقال تعالى (٣٩ : ٤٥ و إذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة) .

وأخبر عن جميع الأشقياء : أن الرسل أنذرتهم باليوم الآخر ، كما قال تعالى (٦٧ : ٨ كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها : ألم يأتكم نذير ؟ قالوا بلى ، قد جاءنا نذير ، فكذبنا وقلنا ، ما نزل الله من شيء . إن أنتم إلا فى ضلال كبير) فأخبر أن الرسل أنذرتهم ، وأنهم كذبوا بالرسالة . وقال تعالى (٣٩: ٧١ وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمرا ، حتى إذا جاؤها فتحت أبوابها) الآية . فأخبر عن أهل النار : أنهم قد جاءتهم الرسالة ، وأنذروا باليوم الآخر .

وقال تعالى (٦:١٢٨ـ١٣٠ ويوم يحشرهم جميعاً يامعشر الجن قد استكثرتم من الإنس . وقال أولياؤهم من الإنس : ربنا استمتع بعضنا ببعض ، وبلغنا أجلنا الذى أجلت لنا . قال النار مثواكم خالدين فيها إلا ما شاء الله . إن ربك حكيم عليم . وكذلك نولّى بعض الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون . يا معشر الجن والإنس ـ إلى قوله ـ وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين) الآية .

فأخبر عن جميع الجن والإنس : أن الرسل بلغتهم رسالة الله ، وهى آياته وأنهم أنذروهم اليوم الآخر ، وكذلك قال (١٧: ١٠٣ ١٠٤ قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا : الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا ـ إلى قوله ـ أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه) . فأخبر أنهم كفروا بآياته ، وهى رسالته ، وبلقائه وهو اليوم الآخر .

وقد أخبر أيضاً فى غير موضع بأن الرسالة عمت بنى آدم ، وأن الرسل جاءوا مبشرين ومنذرين ، كما قال تعالى (٣٥:٢٤ إنا أرسلناك بالحق بشيرا ، وإن من أمة إلا خلا فيها نذير) وقال تعالى (٤:١٦٣ـ١٦٥ إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده ـ إلى قوله ـ وكان الله عزيزاً حكيما) وقال تعالى : (٦:٤٨ وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين ، فمن آمن وأصلح فلا خوف عليهم ولاهم يحزنون ، والذين كذبوا بآياتنا يمسهم العذاب بما كانوا يفسقون) فأخبر أن من آمن بالرسل وأصلح من الأولين والآخرين فلاخوف عليهم ولاهم يحزنون

وقال تعالى (٢ : ٣٨ قلنا اهبطوا منها جميعاً فإما يأتينكم منى هدى فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون) ومثل ذلك قوله (٢ : ٦٢ إن الذين آمنوا والذين هادوا إلى — إلى قوله — فلهم أجرهم عند ربهم — الآية)

فذكر أن المؤمنين بالله وباليوم الآخر من هؤلاء هم أهل النجاة والسعادة ، وذكر في تلك الآية الإيمان بالرسل ، وفى هذه الإيمان باليوم الآخر ، لأنهما متلازمان ، وكذلك الإيمان بالرسل كلهم متلازم . فمن آمن بواحد منهم فقد آمن بهم كلهم ، ومن كفر بواحد منهم فقد كفر بهم كلهم ، كما قال تعالى (٤: ١٥٠ ، ١٥١ إن الذين يكفرون بالله ورسله — إلى قوله — أولئك هم الكافرون حقاً — الآية) والتى بعدها . فأخبر أن المؤمنين بجميع الرسل هم أهل السعادة ، وأن المفرقين بينهم بالايمان ببعضهم دون بعض هم الكافرون حقاً .

وقال تعالى (١٧ : ١٣—١٥ وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه ، ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشورا . اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً . من اهتدي فانما يهتدى لنفسه ، ومن ضل فانما يضل عليها ، ولا تزر وازرة وزر أخرى ، وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) .

فهذه الأصول الثلاثة : توحيد الله ، والايمان برسله ، وباليوم الآخر — هى أمور متلازمة .

والحاصل[1] : أن توحيد الله والإيمان برسله واليوم الآخر هى أمور متلازمة مع العمل الصالح . فأهل هذا الايمان والعمل الصالح : هم أهل السعادة من الأولين والآخرين ، والخارجون عن هذا الايمان : مشركون أشقياء . فكل من كذب الرسل فلن يكون إلا مشركا ، وكل مشرك مكذب للرسل ، وكل مشرك وكافر بالرسل

---

(١) إلى هنا انتهت الورقة المكتوبة وقال فى آخرها : كذا بالأصل ولعل هذه العبارة مكررة .

فهو كافر باليوم الآخر ، وكل من كفر باليوم الآخر فهو كافر بالرسل وهو مشرك. ولهذا قال سبحانه وتعالى (٦:١١٢،١١٣ وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا،ولو شاء ربك مافعلوه فذرهم وما يفترون . ولتصغى إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة وليرضوه . وليقترفوا ما هم مقترفون) .

فأخبر أن جميع الأنبياء لهم أعداء ، وهم شياطين الانس والجن ، يوحى بعضهم إلى بعض القول المزخرف ، وهو المزين المحسن ، يغررون به . والغرور : هو التلبيس والتمويه . وهذا شأن كل كلام وكل عمل يخالف ما جاءت به الرسل من أمر المتفلسفة والمتكلمة وغيرهم من الأولين والآخرين ، ثم قال (ولتصغى إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة وليرضوه) فأخبر أن كلام أعداء الرسل تصغى إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة .

فعلم أن مخالفة الرسل وترك الإيمان بالآخرة متلازمان ، فمن لم يؤمن بالآخرة أصغى إلى زخرف أعدائهم ، فخالف الرسل ، كما هو موجود فى أصناف الكفار والمنافقين فى هذه الأمة . وقال تعالى (٧:٥١،٥٢ ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم هدى ورحمة لقوم يؤمنون ، هل ينظرون إلا تأويله ؟ يوم يأتي تأويله يقول الذين نسوه من قبل : قد جاءت رسل ربنا بالحق ، فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا ؟ — الآية) فأخبر أن الذين تركوا اتباع الكتاب — وهو الرسالة — يقولون إذا جاء تأويله — وهو ما أخبر به — جاءت رسل ربنا بالحق .وهذا كقوله (٢٠ :١٢٣— ١٢٦ ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضَنْكا ، ونحشره يوم القيامة أعمى قال رب لم حشرتنى أعمى ، وقد كنت بصيرا ؟ قال كذلك آتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى) أخبر أن الذين تركوا اتباع آياته يصيبهم ما ذكرنا

فقد تبين أن أصل السعادة وأصل النجاة من العذاب هو توحيد الله بعبادته وحده لا شريك له ، والإيمان برسله واليوم الآخر ، والعمل الصالح .

وهذه الأمور ليست فى حكمتهم ، وفلسفتهم المبتدعة ليس فيها الأمر بعبادة الله وحده والنهي عن عبادة المخلوقات ، بل كل شرك فى العالم إنما حدث برأى جنسهم ، إذ بنوه على مافى الأرواح والأجسام من القوى والطبائع ، وأن صناعة الطلاسم والأصنام والتعبد لها يورث منافع ويدفع مضار . فهم الآمرون بالشرك والفاعلون له . ومن لم يأمر بالشرك منهم فلم ينه عنه ، بل يقر هؤلاء وهؤلاء ، و إن رجح الموحدين ترجيحا ما ، فقد يرجح غيره المشركين ، وقد يعرض عن الأمرين جميعا . فتدبر هذا فإنه نافع جدا .

ولهذا كان رءوسهم المتقدمون والمتأخرون يأمرون بالشرك . فالأولون يسمون الكواكب الآلهة الصغرى ، ويعبدونها بأصناف العبادات . كذلك كانوا فى ملة الإسلام لا ينهون عن الشرك و يوجبون التوحيد ، بل يسوغون الشرك أو يأمرون به ، أو لا يوجبون التوحيد .

وقد رأيت من مصنفاتهم فى عبادة الكواكب والملائكة وعبادة الأنفس المفارقة ـ أنفس الأنبياء وغيرهم ـ ما هو أصل الشرك .

وهم إذا ادعوا التوحيد فإنما توحيدهم بالقول لا بالعبادة والعمل والتوحيد ، الذى جاءت به الرسل لا بد فيه من التوحيد بإخلاص الدين لله ، وعبادته وحده لا شريك له . وهذا شيء لا يعرفونه . والتوحيد الذى يدعونه : إنما هو تعطيل حقائق الأسماء والصفات ، وفيه من الكفر والضلال ماهومن أعظم أسباب الإشراك

فلو كانوا موحدين بالقول والكلام ـ وهو أن يصفوا الله بما وصفته به رسله ـ لكان معهم التوحيد دون العمل . وذلك لا يكفى فى السعادة والنجاة ، بل لا بد من أن يعبد الله وحده ، و يتخذ إلها دون ما سواه . وهو معنى قول «لا إله إلا الله» فكيف ؟ وهم فى القول والكلام معطلون جاحدون ، لا موحدون ولا مخلصون .

وأما الإيمان بالرسل : فليس فيه للمعلم الأول وذويه كلام معروف . والذين دخلوا فى الملل منهم آمنوا ببعض صفات الرسل وكفروا ببعض .

وأما اليوم الآخر : فأحسنهم حالا من يقر بمعاد الأرواح دون الأجساد . ومنهم من ينكر المعادين جميعاً . ومنهم من يقر بمعاد الأرواح العالمية دون الجاهلة وهذه الأقوال الثلاثة لمعلمهم الثاني أبى نصر الفارابي . ولهم فيه من الاضطراب ما يعلم به أنهم لم يهتدوا فيه الصواب .

وقد أضلوا بشبهاتهم من المنتسبين إلى الملل من لا يحصى عدده إلا الله .

فإذا كان ما به تحصل السعادة والنجاة من الشقاوة ليس عندهم أصلا ، كان ما يأمرون به من الأخلاق والأعمال والسياسات كما قال الله تعالى (٣٠ :٧ يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون) .

وأما ما يذكرونه من العلوم النظرية : فالصواب منها منفعته فى الدنيا . وأما العلم الإلٰهى فليس عندهم منه ما تحصل به النجاة والسعادة ، بل وغالب ما عندهم منه ليس بمتيقن معلوم ، بل قد صرح أساطين الفلسفة : أن العلوم الإلٰهية لاسبيل فيها إلى اليقين ، و إنما يتكلم فيها بالأحرى والأخلق[1] فليس معهم فيها إلا الظن (٥٣ : ٢٨ و إن الظن لا يغنى من الحق شيئا) ولهذا يوجد عندهم من المخالفة للرسل أمر عظيم باهر ، حتى قيل مرة لبعض الأشياخ الكبار ممن يعرف الكلام والفلسفة والحديث وغير ذلك : ما الفرق الذى بين الأنبياء والفلاسفة ؟ فقال : السيف الأحمر . يريد أن الذى يسلك طريقتهم يريد أن يوفق بين مايقولونه و بين ماجاءت به الرسل ، فيدخل من السفسطة والقرمطة فى أنواع من المحال الذى لا يرضاه عاقل ، كما فعل أصحاب رسائل إخوان الصفا وأمثالهم . ومن هنا ضلت القرامطة والباطنية ومن شاركهم فى بعض ذلك . وهذا باب يطول وصفه ليس الغرض هنا ذكره .

و إنما الغرض أن معلمهم[2] وضع منطقهم ليزن به مايقولونه من هذه الأمور

---

(١) يعنى أنه ظن وتخمين أقرب إلى الصواب (٢) هو إرسطو

التى يخوضون فيها ، والتى هى قليلة المنفعة . وأكثر منفعتها : إنما هي فى الأمور الدنيوية وقد يستغنى عنها فى الأمور الدنيوية أيضا .

فأما أن يوزن بهذه الصناعة ما ليس من علومهم وما هو فوق قدرهم ، أو يوزن بها ما يوجب السعادة والنعيم والنجاة من العذاب الأليم : فهذا أمر ليس هو فيها و (٦٥ : ٣ قد جعل الله لكل شىء قدرا) والقوم ، وإن كان لهم ذكاء وفطنة ، وفيهم زهد وأخلاق ـ فهذا القدر لا يوجب السعادة والنجاة من العذاب ، إلا بالأصول المتقدمة : من الإيمان بالله وتوحيده ، وإخلاص عبادته ، والإيمان برسله واليوم الآخر ، والعمل الصالح .

وإنما قوة الذكاء بمنزلة قوة البدن وقوة الإرادة . فالذى يؤتى فضائل علمية وإرادية بدون هذه الأصول[1] يكون بمنزلة من يؤتى قوة فى جسمه وبدنه بدون هذه الأصول .

وأهل الرأى والعلم بمنزلة أهل الملك والإمارة . وكل من هؤلاء وهؤلاء لا ينفعه ذلك شيئا إلا أن يعبد الله وحده لا شريك له ، ويؤمن برسله وباليوم الآخر .

وهذه الأمور متلازمة . فمن عبد الله وحده لزم أن يؤمن برسله ويؤمن باليوم الآخر ، فيستحق الثواب وإلا كان من أهل الوعيد يخلد فى العذاب . هذا إذا قامت عليه الحجة بالرسل .

ولما كان كل واحد من أهل الملك والعلم قد يعارضون الرسل وقد يتابعونهم ذكر الله ذلك فى كتابه فى غير موضع . فذكر فرعون والذى حاج إبراهيم فى ربه لما آتاه الله الملك ، والملأ من قوم نوح وعاد وغيرهم من المستكبرين المكذبين للرسل ، وذكر قول علمائهم ، كقوله (٤٠ : ٨٣ ـ ٨٥ فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون . فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين . فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التى قد خلت فى عباده ، وخسر هنالك الكافرون) وقال تعالى :

(١) التى هى : الإيمان بالله ، وإخلاص العبادة له ، والإيمان برسوله واليوم الآخر

(٤٠ : ٤ـ٣٥ ما يجادل فى آيات الله إلا الذين كفروا . فلا يغررك تقلبهم فى البلاد كذبت قبلهم قوم نوح والأحزاب من بعدهم . وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه . وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق فأخذتهم ، فكيف كان عقاب ؟ ـ إلى قوله ـ الذين يجادلون فى آيات الله بغير سلطان أتاهم ، كبر مقتا عند الله وعند الذين آمنوا كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار) والسلطان هو الوحى المنزل من عند الله ، كما ذكر ذلك فى غير موضع ، كقوله (٣٠ : ٣٥ أم أنزلنا عليهم سلطانا فهو يتكلم بما كانوا به يشركون) وقوله (١٢ : ٤٠ و ٥٣ : ٢٣ ما أنزل الله بها من سلطان) وقال ابن عباس « كل سلطان فى القرآن فهو الحجة » ذكره البخارى فى صحيحه .

وقد ذكر فى هذه السورة « سورة حم غافر » من حال مخالفى الرسل من الملوك والعلماء مثل مقول الفلاسفة وعلمائهم ومجادلتهم واستكبارهم ما فيه عبرة .

مثل قوله (٤٠ : ٥٦ الذين يجادلون فى آيات الله بغير سلطان أتاهم إن فى صدورهم إلا كِبْر ماهم ببالغيه) ومثل قوله (٤٠ : ٦٩ـ٧٥ ألم تر إلى الذين يجادلون فى آيات الله : أنى يصرفون ؟ الذين كذبوا بالكتاب و بما أرسلنا به رسلنا فسوف يعلمون . إذ الأغلال فى أعناقهم والسلاسل يسحبون فى الحميم ، ثم فى النار يُسْجَرون ـ إلى قوله ـ ذلكم بما كنتم تفرحون فى الأرض بغير الحق و بما كنتم تمرحون) وختم السورة بقوله تعالى (٤٠ : ٨٣ فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم) .

وكذلك فى سورة الأنعام والأعراف وعامة السور المكية ، وطائفة من السور المدنية ، فإنها تشتمل على خطاب هؤلاء وضرب الأمثال والمقاييس لهم ، وذكر قصصهم وقصص الأنبياء وأتباعهم معهم . فقال سبحانه (٤٦ : ٢٦ ولقد مكناهم فيما إن مكنا كم فيه وجعلنا لهم سمعا وأبصاراً وأفئدة . فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شىء إذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون)

فأخبر بما مكَّنهم فيه من أصناف الإدراكات والحركات . وأخبر أن ذلك لم يغن عنهم حيث جحدوا بآيات الله ، وهى الرسالة التى بعث بها رسله . ولهذا حدثنى ابن الشيخ الخضيرى[1] عن والده الشيخ الخضيرى ـ شيخ الحنفية فى زمنه ـ قال : كان فقهاء بخارى يقولون فى ابن سينا : كان كافرا ذكيا .

وقال الله تعالى (٤٠ : ٢١ أولم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كانوا عاقبة الذين كانوا من قبلهم؟ كانوا هم أشد منهم قوة وآثارا فى الأرض ـ الآية) والقوة تعم قوة الإدراك النظرية وقوة الحركة العملية . وقال فى الآية الأخرى (٤٠ : ٨٢ كانوا أكثر منهم وأشد قوة وآثارا فى الأرض) فأخبر بفضلهم فى الكم والكيف ، وأنهم أشد فى أنفسهم وفى آثارهم فى الأرض . وقال تعالى (٤٠ :٨٢،٨٣ فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون . فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون) وقال تعالى (٣٠:٦ـ١١ وعد الله لايخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون . يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا ، وهم عن الآخرة هم غافلون ـ إلى قوله ـ الله يبدأ الخلق ثم يعيده ثم إليه ترجعون).

وقال تعالى (٦ : ٥ ، ٦ فقد كذبوا بالحق لما جاءهم ، فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون ـ إلى قوله ـ وأنشأنا من بعدهم قرناً آخرين) .

وقد قال سبحانه عن أتباع هؤلاء الأئمة من أهل الملك والعلم المخالفين للرسل

---

(١) كذا هنا الخضيرى بالخاء والضاد المعجمتين. والصواب الحصيرى بالحاء والصاد المهملتين نسبة إلى محلة ببخارى يعمل فيها الحصير . أما الابن فاسمه : أحمد بن محمود بن أحمد بن عبد السيد . مات سنة ٦٩٨ وذكره ابن خلكان فى ترجمة محمد بن محمد ابن محمد العميد ، وقال إنه قتلته التتر بمدينة نيسابور سنة ٦١٦ والصواب عندى ماتقدم لأن من مات عن هذا التاريخ لا يمكن أن يجتمع بشيخ الإسلام ابن تيمية . وأما والده فاسمه محمود بن أحمد بن عبد السيد بن عثمان البخارى الحصيرى . مات سنة ٦٣٦ ترجم فى طبقات الحنفية للقرشى هو وابنه وفى الفوائد البهية وفى النجوم الزاهرة وفى غالب كتب التاريخ والتراجم . وكتبه سليمان الصنيع

(٣٣ : ٦٦ ـ ٦٨ يوم تُقلَّب وجوههم فى النار ، يقولون : ياليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا ، وقالوا : ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا ، ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كبيرا) وقال تعالى (٤٠ :٤٧ ، ٤٨ وإذ يتحاجون فى النار ـ إلى قوله ـ إن الله قد حكم بين العباد) .

ومثل هذا فى القرآن كثير ، يذكر فيه من أقوال أعداء الرسل وأفعالهم ، وما أوتوه من قوى الإدراكات والحركات التى لم تنفعهم لما خالفوا الرسل .

وقد ذكر الله سبحانه ما فى المنتسبين إلى اتباع الرسل ، من العلماء والعباد والملوك من النفاق والضلال فى مثل قوله (٩ :٣٤ يا أيها الذين آمنوا إن كثيرا من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ، ويصدون عن سبيل الله . والذين يكنزون الذهب والفضة ولاينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم)

« ويصدون عن سبيل الله» يستعمل لازما ، يقال : صد صدوداً ، أى أعرض كما قال تعالى (٤ : ٦١ وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدودا) ويقال : صد غيره يصده ، والوصفان يجتمعان فيهم ، ومثل قوله (٤ : ٥١ ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب ، يؤمنون بالجبت والطاغوت ، ويقولون للذين كفروا : هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا) وفى الصحيحين عن أبى موسى عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « مثل المؤمن الذى يقرأ القرآن مثل الأترجة : طعمها طيب وريحها طيب ، ومثل المؤمن الذى لا يقرأ القرآن مثل التمرة : طعمها طيب ولا ريح لها ، ومثل المنافق الذى يقرأ القرآن مثل الريحانة : ريحها طيب وطعمها مر ، ومثل المنافق الذى لايقرأ القرآن مثل الحنظلة : طعمها مر ، ولا ريح لها » فبين أن فى الذين يقرءون القرآن : مؤمنين ومنافقين .

فصل

وهذا المقام لا أذكر فيه موارد النزاع ، فيقال : هو الاستدلال على المختلف بالمختلف ، لكن أنا أصف جنس كلامهم ، فأقول :

لا ريب أن كلامهم كله منحصر فى الحدود التى تفيد التصورات ، سواء كانت الحدود حقيقية ، أو رسمية أو لفظية[١] ، وفى الأقيسة التى تفيد التصديقات سواء كانت أقيسة عموم وشمول أو شَبَه وتمثيل ، أو استقراء وتتَبُّع . وكلامهم غالبه لا يخلو من تكلف : إما فى العلم و إما فى القول ، فإما أن يتكلفوا علم ما لا يعلمونه : فيتكلمون بغير علم ، أو يكون الشيء معلوماً لهم فيتكلفون من بيانه ماهو زيادة وحشو وعناء وتطويل طريق ، وهذا من المنكر المذموم فى الشرع والعقل ، قال تعالى (٣٨:٨٦ قل ما أسألكم عليه من أجر ، وما أنا من المتكلفين) وفى الصحيح عن عبد الله بن مسعود قال «أيها الناس ، من علم علما فليقل به ، ومن لم يعلم فليقل : لا أعلم ، فإن من العلم أن يقول الرجل لما لايعلم : لا أعلم ».

وقد ذم الله القول بغير علم فى كتابه ، كقوله تعالى (١٧:٣٦ ولا تقف ما ليس لك به علم) لا سيما القول على الله ، كقوله تعالى (٧ : ٣٣ قل إنما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، والإثم والبغى بغير الحق ، وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا ، وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون) وكذلك ذم الكلام الكثير الذى لا فائدة فيه ، وأمر بأن نقول القول السديد والقول البليغ .

وهؤلاء كلامهم فى الحدود غالبه من الكلام الكثير الذى لا فائدة فيه ،

---

(١) التعاريف ثلاثة : حد ورسم وتعريف بالمرادف ، فالحد : ما كان بالجنس والفصل كتعريف الإنسان بأنه حيوان ناطق . والرسم : ما كان بالجنس والخاصة ، كتعريف الإنسان بأنه حيوان ضاحك ، أومنتصب القامة ، والثالث : كتعريفه بأنه بشر ، أو آدمى ؛ والكلام على الجنس والفصل والخاصة مشروح عندهم . وتأتى الإشارة إلى الجنس والفصل فى الوجه الثامن .

بل قد يكثر كلامهم فى الأقيسة والحجج ، كثير منه كذلك وكثير منه باطل ، وهو قول بغير علم وقول بخلاف الحق .

أما الأول : فإنهم يزعمون أن الحدود التى يذكرونها يفيدون بهـا تصور الحقائق ، وأن ذلك إنما يتم بذكر الصفات الذاتية المشتركة والمميزة حتى يركب الحد من الجنس المشترك . والفصل المميز . وقد يقولون : إن التصورات لا تحصل إلا بالحدود ، ويقولون : الحدود المركبة لا تـكون إلا للأنواع المركبة من الجنس والفصل دون الأنواع البسيطة .

وقد ذكرت فى غير هذا الموضع ملخص المنطق ومضمونه ، وأشرت إلى بعض ما دخل به على كثير من الناس من الخطأ والضلال . وليس هذا موضع بسط ذلك ، لـكن نذكر [هنا] وجوها .

الوجه الأول

قولهم « إن التصور الذى ليس ببديهى لا ينال إلا بالحد» باطل . لأن الحد هو قول الحاد . فإن الحد هنا هو القول الدال على ماهيـة المحدود فالمعرفة بالحد لا تكون إلا بعد الحد . فإن الحادّ الذى ذكر الحد إن كان عرف المحدود بغير حد بطل قولهم « لا يعرف إلا بالحد » وإن كان عرفه بحـد آخر فالقول فيه كالقول فى الأول . فإن كان هذا الحاد عرفه بعد الحد الأول لزم الدور . وإنْ كان تأخر لزم التسلسل .

الوجه الثانى

أنهم إلى الآن لم يسلم لهم حد لشىء من الأشياء إلا ما يدعيه بعضهم وينازعه فيه آخرون . فإن كانت الأصول لا تتصور إلا بالحدود لزم أن لا يكون إلى الآن أحد عرف شيئاً من الأمور ، ولم يبق أحد ينتظر صحته . لأن الذى يذكره يحتاج إلى معرفة بغير حد وهى متعددة ، فلا يكون لبنى آدم شىء من المعرفة . وهذه سفسطة ومغالطة .

الوجه الثالث

أن المتكلمين بالحدود طائفة قليلة فى بنى آدم ، لا سيما الصناعة المنطقية . فإن واضعها هو إرسطو ، وسلك خلفه فيها طائفة من بنى آدم .

ومن المعلوم أن علوم بنى آدم ـ عامتهم وخاصتهم ـ حاصلة بدون ذلك. فبطل قولهم «إن المعرفة متوقفة عليها» أما الأنبياء فلا ريب فى استغنائهم عنها. وكذلك أتباع الأنبياء من العلماء والعامة . فإن القرون الثلاثة من هذه الأمة ـ الذين كانوا أعلم بنى آدم علوماً ومعارف ـ لم يكن تكلف هذه الحدود من عادتهم ، فإنهم لم يبتدعوها ، ولم تكن الكتب الأعجمية الرومية عربت لهم . وإنما حدثت بعدهم من مبتدعة المتكلمين والفلاسفة . ومن حين حدثت صار بينهم من الاختلاف والجهل مالا يعلمه إلا الله .

وكذلك علم الطب والحساب وغير ذلك لا تجد أئمة هذه العلوم يتكلفون هذه الحدود المركبة من الجنس والفصل إلا من خاط ذلك بصناعتهم من أهل المنطق .

وكذلك النحاة ، مثل سيبويه الذى ليس فى العالم مثل كتابه ، وفيه حكمة لسان العرب : لم يتكلف فيه حد الاسم والفاعل ونحو ذلك ، كما فعل غيره . ولما تكلف النحاة حد الاسم ذكروا حدوداً كثيرة كلها مطعون فيها عندهم . وكذلك ما تكلف متأخروهم من حد الفاعل والمبتدأ والخبر ونحو ذلك لم يدخل فيها عندهم من هو إمام فى الصناعة ولا حاذق فيها .

وكذلك الحدود التى يتكلفها بعض الفقهاء للطهارة والنجاسة ، وغير ذلك من معانى الأسماء المتداولة بينهم ، وكذلك الحدود التى يتكلفها الناظرون فى أصول الفقه لمثل الخبر والقياس والعلم ، وغير ذلك : لم يدخل فيها إلا من ليس بإمام فى الفن . وإلى الساعة لم يسلم لهم حد . وكذلك حدود أهل الكلام .

فإذا كان حذاق بنى آدم فى كل فن من العلم أحكموه بدون هذه الحدود المتكلفة : بطل دعوى توقف المعرفة عليها .

وأما علوم بني آدم الذين لا يصنفون الكتب : فهى مما لا يحصيه إلا الله .
ولهم فى البصائر والمكاشفات والتحقيق والمعارف ما ليس لأهل هذه الحدود المتكلفة . فكيف يجوز أن تكون معرفة الأشياء متوقفة عليها ؟

الوجه الرابع

أن الله جعل لابن آدم من الحس الظاهر والباطن ما يحس به الأشياء ويعرفها فيعرف بسمعه وبصره وشمه وذوقه ولمسه الظاهر ما يعرف . ويعرف أيضاً بما يشهده ويحسه بنفسه وقلبه ما هو أعظم من ذلك . فهذه هى الطرق التى تعرف بها الأشياء . فأمّا الكلام فلا يتصور أن يعرف بمجرده مفردات الأشياء إلا بقياس تمثيل أو تركيب ألفاظ ، وليس شىء من ذلك يفيد تصور الحقيقة .

فالمقصود أن الحقيقة : إن تصورها بباطنه أو ظاهره استغنى عن الحد القولى، وإن لم يتصورها بذلك امتنع أن يتصور حقيقتها بالحد القولى . وهذا أمر محسوس يجده الإنسان من ... . فإن من عرف المحسوسات المذوقة ـ مثلا ـ كالعسل : لم يفده الحد تصورها . ومن لم يذق ذلك ، كمن أُخبر عن السكر ـ وهو لم يذقه ـ لم يمكن أن يتصور حقيقته بالكلام والحد ، بل يمثل له ويقرب إليه ، ويقال له : طعمه يشبه كذا ، أو يشبه كذا وكذا ، وهذا التشبيه والتمثيل ليس هو الحد الذى يدعونه .

وكذلك المحسوسات الباطنة ، مثل الغضب والفرح والحزن والغم والعلم ونحو ذلك ، من وجدها فقد تصورها . ومن لم يجدها لم يمكن أن يتصورها بالحد ، ولهذا لا يتصور الأكمه الألوان بالحد ، ولا العنين الوقاع بالحد . فإذن القائل بأن الحدود هى التى تفيد تصور الحقائق قائل للباطل المعلوم بالحس الباطن والظاهر .

الوجه الخامس

أن الحدود إنما هى أقوال كلية ، كقولنا « حيوان ناطق » و « لفظ يدل على معنى » ونحو ذلك ، فتصور معناها لا يمنع من وقوع الشركة فيها ، وإن

كانت الشركة ممتنعة لسبب آخر ، فهى إذن لا تدل على حقيقة معينة بخصوصها وإنما تدل على معنى كلى . والمعانى الكلية وجودها فى الذهن لا في الخارج . فما فى الخارج لا يتعين ، ولا يعرف بمجرد الحد ، وما فى الذهن ليس هو حقائق الأشياء . فالحد لا يفيد تصور حقيقة أصلا .

الوجه السادس

أن الحد من باب الألفاظ . واللفظ لا يدل المستمع على معناه إن لم يكن قد تصور مفردات اللفظ بغير اللفظ . لأن اللفظ المفرد لا يدل المستمع على معناه إن لم يعلم أن اللفظ موضوع للمعنى ، ولا يعرف ذلك حتى يعرف المعنى . فتصور المعانى المفردة يجب أن يكون سابقاً على فهم المراد بالألفاظ . فلو استفيد تصورها من الألفاظ لزم الدور . وهذا أمر محسوس . فإن المتكلم باللفظ المفرد إن لم يبين للمستمع معناه حتى يدركه بحسه أو بنظره ، وإلا لم يتصور إدراكه له بقول مؤلف من جنس وفصل

الوجه السابع

أن الحد هو الفصل والتمييز بين المحدود وغيره ، يفيد ما تفيده الأسماء من التمييز والفصل بين المسمى وبين غيره ، فهذا لا ريب فى أنه يفيد التمييز . فأما تصور حقيقة فلا ، لكنها قد تفصل مادل عليه الاسم بالإجمال . وليس ذلك من إدراك الحقيقة فى شيء . والشرط فى ذلك : أن تكون الصفات ذاتية ، بل هو بمنزلة التقسيم والتحديد للكل ، كالتقسيم لجزئياته ويظهر ذلك .

بالوجه الثامن

وهو أن الحس الباطن والظاهر يفيد تصور الحقيقة تصوراً مطلقاً. أما عمومها وخصوصها : فهو من حكم العقل . فإن القلب يعقل معنى من هذا المعين ومعنى

يماثله من هذا المعين ، فيصير فى القلب معنى عاماً مشتركا ، وذلك هو عقله ، أى عقله للمعانى الكلية . فإذا عقل معنى الحيوانية الذى يكون فى هذا الحيوان وهذا الحيوان ،ومعنى الناطق الذى يكون فى هذا الإنسان وهذا الإنسان ، وهو مختص به ، عقل أن فى نوع الإنسان معنى يكون نظيره فى الحيوان ، ومعنى ليس له نظير فى الحيوان .

فالأول هو الذى يقال له : الجنس . والثانى[1] الذى يقال له الفصل . وهما موجودان فى النوع .

فهذا حق ولكن لم يستفد من هذا اللفظ ما لم يكن يعرفه بعقله من أن هذا المعنى عام للإنسان ولغيره من الحيوان ، بمعنى أن ما فى هذا نظير ما فى هذا ، إذ ليس فى الأعيان الخارجة عموم وهذا المعنى يختص بالإنسان . فلا فرق بين قولك : الإنسان حيوان ناطق ، وقولك : الإنسان هو الحيوان الناطق ، إلا من جهة الإحاطة والحصر فى الثانى لا من جهة تصوير حقيقته باللفظ والإحاطة ، والحصر هو التمييز الحاصل بمجرد الاسم ، وهو قولك : إنسان و بشر . فإن هذا الاسم إذا فهم مسماه أفاد من التمييز ما أفاده الحيوان الناطق فى سلامته عن المطاعن .

وأما تصور أن فيه معنى عاما ومعنى خاصا فليس هذا من خصائص الحد كما تقدم . والذى يختص بالحد ليس إلا مجرد التمييز الحاصل بالأسماء. وهذا بين لمن تأمله

وأما إدراك صفات فيه ، بعضها مشترك و بعضها مختص ، فلا ريب أن هذا قد لا يتفطن له بمجرد الاسم ، لكن هذا يتفطن له بالحد و بغير الحد . فليس فى الحد إلا ما يوجد فى الأسماء ، أو فى الصفات التى تذكر للمسمى . وهذان نوعان معروفان ، الأول : معنى الأسماء المفردة ، والثانى : معرفة الجمل المركبة الاسمية والفعلية التى يخبر بها عن الأشياء ، وتوصف بها الأشياء . وكلا هذين النوعين

(١) أى الثانى المختص بالإنسان وهو النطق .

لا يفتقر إلى الحد المتكلف . فثبت أن الحد ليس فيه فائدة إلا وهى موجودة فى الأسماء والكلام بلا تكلف . فسقطت فائدة خصوصية الحد .

الوجه التاسع

أن العلم بوجود صفات مشتركة ومختصة حق ، لكن التمييز بين تلك الصفات بجعل بعضها ذاتيا تتقوم منه حقيقة المحدود ، و بعضها لازما لحقيقة المحدود : تفريق باطل ، بل جميع الصفات الملازمة للمحدود ـ طردا وعكسا ـ هى جنس واحد . فلافرق بين الفصل والخاصة ، ولا بين الجنس والعرض العام(١) .

وذلك أن الحقيقة المركبة من تلك الصفات : إما أن يعني بها الخارجة أو الذهنية أو شيء ثالث . فإن عنى بها الخارجة : فالنطق والضحك فى الإنسان حقيقتان لازمتان يختصان به . و إن عنى الحقيقة التى فى الذهن : فالذهن يعقل اختصاص هاتين الصفتين به دون غيره .

و إن قيل : بل إحدى الصفتين يتوقف عقل الحقيقة عليها . فلايعقل الإنسان فى الذهن حتى يفهم النطق . وأمّا الضحك فهو تابع لفهم الإنسان . وهذا معنى قولهم « الذاتى ما لا يتصور فهم الحقيقة بدون فهمه ، أو ما تقف الحقيقة فى الذهن والخارج عليه »

قيل : إدراك الذهن أمر نسبي إضافى . فإن كون الذهن لايفهم هذا إلا بعد هذا : أمريتعلق بنفس إدراك الذهن ، ليس هو شيئاً ثابتاً للموصوف فى نفسه . فلا بد أن يكون الفرق بين الذاتى والعرضى بوصف ثابت فى نفس الأمر ، سواء حصل الإدراك له أو لم يحصل ، إن كان أحدهما جزءا للحقيقة دون الآخر و إلا فلا

(١) مثاله «النطق» أى التعقل فصل لنوع الإنسان ، والضحك أو انتصاب القامة خاصة له وأن الحيوانية جنسه القريب،والمشيأو التحرك بالاختيارعرض عام لهولغيره.

الوجه العاشر

أن يقال : كون الذهن لا يعقل هذا إلا بعد هذا : إن كان إشارة إلى أذهان معينة ، وهى التى تصورت هذا : لم [يكن] هذا حجة، لأنهم هم وضعوها هكذا فيكون التقدير : أن ما قدمناه فى أذهاننا على الحقيقة فهو الذاتى ، وماأخرناه فهو العرضي . ويعود الأمر إلى أنا تحكمنا بجعل بعض الصفات ذاتيا و بعضها عرضيا لازما وغير لازم ، و إن كان الأمر كذلك كان هذا الفرقان مجرد تحكم بلا سلطان. ولا يستنكر من هؤلاء أن يجمعوا بين المفترقين و يفرقوا بين المتماثلين . فما أكثر هذا فى مقاييسهم التى ضلوا بها وأضلوا . وهم أول من أفسد دين المسلمين ، وابتدع ما غير به الصابئة مذاهب أهل الإيمان المهتدين .

و إن قالوا : بل جميع أذهان بنى آدم والأذهان الصحيحة لا تدرك الإنسان إلا بعد خطور نطقه ببالها دون ضحكه .

قيل لهم : ليس هذا بصحيح . ولا يكاد يوجد هذا الترتيب إلا فيمن يقلد عنكم هذه الحدود من المقلدين لكم فى الأمور التى جعلتموها ميزان المعقولات ، و إلا فبنو آدم قد لا يخطر لأحدهم أحد الوصفين ، وقد يخطر له هذا دون هذا وبالعكس . ولو خطر له الوصفان وعرف أن الإنسان حيوان ناطق ضاحك : لم يكن بمجرد معرفته هذه الصفات مدركا لحقيقة الإنسان أصلا . وكل هذا أمر محسوس معقول .

فلايغالط العاقل نفسه فى ذلك لهيبة التقليد لهؤلاء الذين هم من أكثر الخلق ضلالاً مع دعوى التحقيق . فهم فى الأوائل كمتكلمة الإسلام فى الأواخر . ولما كان المسلمون خيراً من أهل الكتابين والصابئين[1] كانوا خيراً منهم وأعلم وأحكم فتدبر فإنه نافع جدا .

---

(١) التوراة والإنجيل وأهلهما اليهود والنصاري . وأما الصابئون فهم مشركو الروم والهند والفرس ممن لا دين لهم سوى ما تواضعوه بأهوائهم .

ومن هنا يقولون : الحدود الذاتية عَسِرَة ، وإدراك الصفات الذاتية صعب ، وغالب ما بأيدى الناس : حدود رسمية . وذلك كله لأنهم وضعوا تفريقا بين شيئين بمجرد التحكم الذى هم أدخلوه .

ومن المعلوم : أن ما لا حقيقة له فى الخارج ولا فى المعقول ، وإنما هو ابتداع مبتدع وصعه وفرق به بين المتماثلين فيما تماثلا فيه ـ لا تعقله القلوب الصحيحة[1] ـ إذ ذاك من باب معرفة المذاهب الفاسدة التي لا ضابط لها . وأكثر ما تجد هؤلاء الأجناس يعظمونه من معارفهم ويدعون اختصاص فضلائهم به هو : من الباطل الذى لا حقيقة له ، كما نبهنا على هذا فيما تقدم .

الوجه الحادى عشر

قولهم : الحقيقة مركبة من الجنس والفصل ، والجنس هو الجزء المشترك ، والفصل هو الجزء المميز .

يقال لهم : هذا التركيب : إما أن يكون فى الخارج أو فى الذهن . فإن كان فى الخارج فليس فى الخارج نوع كلى يكون محدوداً بهذا الحد إلا الأعيان المحسوسة والأعيان فى كل عين صفة يكون نظيرها لسائر الحيوانات كالحس والحركة الإرادية ، وصفة ليس مثلها لسائر الحيوان وهى النطق . وفى كل عين يجتمع هذان الوصفان ، كما يجتمع سائر الصفات والجواهر القائمة لأمور مركبة من الصفات المجعولة فيها .

وإن أردتم بالحيوانية والناطقية جوهراً فليس في الإنسان جوهران أحدهما حى ، والآخر ناطق . بل هو جوهر واحد له صفتان . فإن كان الجوهر مركبا

---

(١) خبر إن ، أى إن ما لا حقيقة له خارجا ولا ذهنا وكان محض ابتداع وتحكم فهو مما لا تعقله القلوب الصحيحة لأنه فاسد لا ضابط له .

من عرضين لم يصح . وإن كان من جوهر عام وخاص فليس فيه ذلك . فبطل كون الحقيقة الخارجة مركبة .

وإن جعلوها تارة جوهراً وتارة صفة : كان ذلك بمنزلة قول النصارى فى الأقانيم[١] ، وهو من أعظم الأقوال تناقضاً باتفاق العلماء .

وإن قالوا : المركب الحقيقة الذهنية المعقولة .

قيل ـ أولا ـ تلك ليست هى المقصودة بالحدود ، إلا أن تكون مطابقة للخارج . فإن لم يكن هناك تركيب لم يصح أن يكون فى هذه تركيب . وليس فى الذهن إلا تصور الحى الناطق . وهو جوهر واحد له صفتان ، كما قدمنا . فلا تركيب فيه بحال .

واعلم أنه لانزاع أن صفات الأنواع والأجناس منها ما هو مشترك بينها وبين غيرها . كالجنس والعرض العام ، ومنها ماهو لازم للحقيقة ، ومنها ما هو عارض لها ، وهو ماثبت لها فى وقت دون وقت كالبطىء الزوال وسريعه، وإنما الشأن فى التفريق بين الذاتى والعرضى اللازم . فهذا هو الذى مداره على تحكم ذهن الحاد .

ولا تنازع فى أن بعض الصفات قد يكون أظهر وأشرف . فإن النطق أشرف من الضحك . ولهذا ضرب الله به المثل فى قوله (٥١:٢٣ إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون) ولكن الشأن فى جعل هذا ذاتيا تتصور به الحقيقة دون الآخر.

الوجه الثانى عشر

أن هذه الصفات الذاتية قد تعلم ولا يتصور بها كنه المحدود ، كما فى هذا المثال وغيره . فعلم أن ذلك ليس بموجب لفهم الحقيقة .

الوجه الثالث عشر

أن الحدّ إذا كان له جزءان فلابد لجزءيه من تصور كالحيوان والناطق، فإنْ

---

(١) المسماة عندهم الآب والإبن وروح القدس . ثم يقولون : إله واحد ثلاثة فى واحد هو ثلاثة.

احتاج كل جزء إلى حد لزم التسلسل أو الدور . فإن كانت الأجزاء متصورة بنفسها بلا حد – وهو تصور الحيوان ، أو الحساس ، أو المتحرك ، بالإرادة ، أو النامى ، أو الجسم – فمن المعلوم : أن هذه أعم . وإذا كانت أعم يكون إدراك الحس لأفرادها أكثر . فإن كان إدراك الحس لأفرادها كافيا فى التصور فالحس قد أدرك أفراد النوع . وإن لم يكن كافيا فى ذلك لم تكن الأجزاء معروفة فيحتاج المعَرِّف إلى معَرِّف وأجزاء الحد إلى حدّ .

الوجه الرابع عشر

أن الحدود لا بد فيها من التمييز ، وكلما قلَّت الأفراد كان التمييز أيسر ، وكلما كثرت كان أصعب . فضبط العقل الكلى تقل أفراده مع ضبط كونه كلياً أيسر عليه مما كثرت أفراده ، وإن كان إدراك الكلى الكثير الأفراد أيسر عليه ، فذاك إذا أدركه مطلقا . لأن المطلق يحصل بحصول كل واحد من الأفراد .

وإذا كان ذلك كذلك فأقل ما فى أجزاء المحدود : أن تكون متميزة تمييزا كليا ليعلم كونها صفة المحدود أو محمولة عليه أم لا . فإذا كان ضبطها كلية أصعب وأتعب من ضبط أفراد المحدود كان ذلك تعريفا للأسهل معرفةً بالأصعب مَعْرفةً . وهذا عكس الواجب .

الوجه الخامس عشر

أن الله سبحانه علم آدم الأسماء كلها . وقد ميز كل مسمى باسم يدل على ما يفصله من الجنس المشترك ، ويخصه دون ما سواه ، ويبين به ما يرسم معناه فى النفس . ومعرفة حدود الأسماء واجبة ، لأنه بها تقوم مصلحة بنى آدم فى النطق الذى جعله الله رحمة لهم لا سيا حدود ما أنزل الله فى كتبه من الأسماء كالخمر والربا . فهذه الحدود هى الفاصلة المميزة بين ما يدخل فى المسمى ويتناوله ذلك الاسم وما دل عليه من الصفات ، وبين ما ليس كذلك . ولهذا ذم الله من

سمى الأشياء بأسماء ما أنزل الله بها من سلطان . فإنه أثبت للشيء صفة باطلة كإلهية الأوثان .

فالأسماء النطقية سمعية . وأما نفس تصور المعانى ففطرى يحصل بالحس الباطن والظاهر ، وبإدراك الحس وشهوده ببصر الإنسان بباطنه وبظاهره وبسمعه يعلم أسماءها ، وبفؤاده يعقل الصفات المشتركة والمختصة .

والله أخرجنا من بطون أمهاتنا لا نعلم شيئاً ، وجعل لنا السمع والأبصار والأفئدة .

فأما الحدود المتكلفة فليس فيها فائدة لا فى العقل ، ولا فى الحس ، ولا فى السمع إلا ما هو كالأسماء مع التطويل ، أو ما هو كالتمييز كسائر الصفات .

ولهذا لما رأوا ذلك جعلوا الحد نوعين : نوعا بحسب الاسم ، وهو بيان ما يدخل فيه . ونوعا بحسب الصفة أو الحقيقة أو المسمى . وزعموا كشف الحقيقة وتصويرها والحقيقة المذكورة إن ذكرت بلفظ دخلت فى القسم الأول ، وإن لم تذكر بلفظ فلا تدرك بلفظ ولا تحد بمقال إلا كما تقدم .

وهذه نكت تنبه على جمل المقصود . وليس هذا موضع بسط ذلك .

الوجه السادس عشر

أن فى الصفات الذاتية المشتركة والمختصة ـ كالحيوانية والناطقية ـ إن أرادوا بالاشتراك : أن نفس الصفة الموجودة فى الخارج مشتركة . فهذا باطل . إذ لا اشتراك فى المعينات التى يمنع تصورها من وقوع الشركة فيها .

وإن أرادوا بالاشتراك : أن مثل تلك الصفة حاصلة للنوع الآخر .

قيل لهم : لا ريب أن بين حيوانية الإنسان وحيوانية الفرس قدرا مشتركا ، وكذلك بين صوتيهما وتمييزهما قدراً مشتركا . فإن الإنسان له تمييز وللفرس تمييز ، ولهذا صوت هو النطق ، ولذلك صوت هو الصهيل ، فقد خص كل صوت باسم يخصه . فإذا كان حقيقة أحد هذين يخالف الآخر ويختص بنوعه ؟ فمن أين

جعلتم حيوانية أحدهما مماثلة لحيوانية الآخر فى الحد والحقيقة .

وهلاقيل: إن بين حيوانيتهما قدراً مشتركا ومميزا ، كما أن بين صوتيهما كذلك؟ وذلك أن الحس والحركة الإرادية إما أن توجد للجسم أو للنفس . فإن الجسم يحس ويتحرك بالإرادة ، والنفس تحس وتتحرك بالإرادة ، وإن كان بين الوصفين من الفرق ما بين الحقيقتين . وكذلك النطق هو للنفس بالتمييز والمعرفة ، والكلام النفسانى ، وهو للجسم أيضاً بتمييز القلب ومعرفته والكلام اللسانى . فكل من جسمه ونفسه يوصف بهذين الوصفين . وليست حركة نفسه وإرادتها ومعرفتها ونطقها مثل ماللفرس ، وإن كان بينها قدر مشترك . وكذلك ما يقوم بجسمه من الحس والحركة الإرادية ليس مثل ماللفرس ، وإن كان بينهما قدر مشترك . فإن الذى يلائم جسمه من مطعم ومشرب وملبس ومنكح ومشموم ومرئى ومسموع بحيث يحسه ويتحرك إليه حركة إرادية ليس هو مثل ما للفرس .

فالحس والحركة الإرادية هى بالمعنى العام لجميع الحيوان ، وبالمعنى الخاص ليس إلا للإنسان . وكذلك التمييز سواء . ولهذا قال النبى صلى الله عليه وسلم « أحب الأسماء إلى الله : عبد الله وعبد الرحمن . وأصدق الأسماء : حرث وهمام . وأقبحها : حرب ومرة » رواه مسلم . فالحارث هو العامل الكاسب المتحرك . والهمام هو الدائم الهم الذى هو مقدم الإرادة . فكل إنسان حارث فاعل بإرادته ، وكذلك مسبوق بإحساسه .

فحيوانية الإنسان ونطقه ، كل منهما فيه ما يشترك مع الحيوان فيه ، وفيه ما يختص به عن سائر الحيوان ، وكذلك بناء بنيته . فإن نموه واغتذاءه وإن كان بينه وبين النبات فيه قدر مشترك ، فليس مثله هو . إذ هـذا يغتذى بما يلذ به ويسر نفسه ، وينمو بنمو حسه وحركته وهمه وحرثه . وليس النبات كذلك .

وكذلك أصناف النوع وأفراده . فنطق العرب بتمييز قلوبهم وبيان ألسنتهم أكمل من نطق غيرهم ، حتى ليكون فى بنى آدم من هو دون البهائم فى النطق والتمييز . ومنهم من لا تُدرك نهايته .

وهذا كله يبين أن اشتراك أفراد الصنف ، وأصناف النوع ، وأنواع الجنس والأجناس السافلة فى مسمى الجنس الأعلى : لايقتضى أن يكون المعنى المشترك فيها بالسواء كما أنه ليس الحقائق الخارجة شيء مشترك ، ولكن الذهن فهم معنى يوجد فى هذا ويوجد نظيره فى هذا . وقد تبين أنه ليس نظيراً له على وجه المماثلة ، لكن على وجه المشابهة ، وأن ذلك المعنى المشترك هو فى أحدهما على حقيقة تخالف حقيقة ما فى الآخر .

ومن هنا يغلط القياسيون الذين يلحظون المعنى المشترك الجامع دون الفارق المميز .

والعرب من أصناف الناس والمسلمون من أهل الأديان : أعظم الناس إدرا كا للفروق ، وتمييزاً للمشتركات . وذلك يوجد فى عقولهم ولغاتهم وعلومهم وأحكامهم ولهذا لما ناظر متكلمو الإسلام العربُ هؤلاء المتكلمة الصابئة عجم الروم ، وذكروا فضل منطقهم وكلامهم على منطق أولئك وكلامهم : ظهر رجحان كلام الإسلاميين كما فعله القاضي أبو بكر بن الباقلانى فى كتاب الدقائق الذى رد فيه على الفلاسفة كثيراً من مذاهبهم الفاسدة فى الأفلاك والنجوم ، والعقول والنفوس ، وواجب الوجود وغير ذلك . وتكلم على منطقهم وتقسيمهم الموجودات ، كتقسيمهم الموجود إلى الجوهر والعرض ، ثم تقسيم الأعراض إلى المقولات التسعة ، وذكر تقسيم متكلمة المسلمين الذى فيه من التمييز والجمع والفرق ما ليس فى كلام أولئك .

وذلك أن الله علم الإنسان البيان ، كما قال تعالى (٥٥ : ١ ـ ٣ الرحمن علم القرآن. خلق الإنسان . علمه البيان) وقال تعالى (٢: ٣١ وعلم آدم الأسماء كلها) وقال (٩٦ : ٥ علم الإنسان مالم يعلم) والبيان : بيان القلب واللسان ، كما أن العمى والبكم يكون فى القلب واللسان ، كما قال تعالى (٢ : ١٨ صم بكم عمى فهم لا يرجعون) وقال (٢: ١٧١ صم بكم عمي ، فهم لا يعقلون) وقال النبى صلى الله عليه وسلم « هلا سألوا إذ لم يعلموا ؟ إنما شفاء العى السؤال » وفى الأثر « العي عى

القلب لاعى اللسان » أو قال « شر العى عى القلب » وكان ابن مسعود يقول « إنكم فى زمان كثير فقهاؤه ، قليل خطباؤه . وسيأتى عليكم زمان قليل فقهاؤه كثير خطباؤه » .

وتبين الأشياء للقلب ضد اشتباهها عليه ، كما قال صلى الله عليه وسلم : « الحلال بين والحرام بين ، و بينهما أمور مشتبهات ـ الحديث » وقد قرىء قوله تعالى (٦ : ٥٥ ولتستبين سبيل المجرمين) بالرفع والنصب ، أى ولتتبين أنت سبيلهم .

فالإنسان يستبين الأشياء . وهم يقولون : قد بان الشىء ، و بينته ، وتبين الشىء وتبينته ، واستبان الشىء واستبنته ـ كل هذا يستعمل لازما ومتعدياً . ومنه قوله تعالى (٤٩ : ٦ إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا) هو هنا متعد . ومنه قوله (٤ : ١٨ بفاحشة مبينة) أى متبينة . فهنا هو لازم . والبيان كالكلام ، يكون مصدر بان الشىء بيانا ، و يكون اسم مصدر لبيَّن كالكلام ، والسلام لِسلَّم و بيَّن . فيكون البيان بمعني تبين الشىء . و يكون بمعنى بينتُ الشىء : أى أوضحته . وهذا هو الغالب عليه . ومنه قوله صلى الله عليه وسلم « إن من البيان لسحراً » .

والمقصود ببيان الكلام حصول البيان لقلب المستمع ، حتى يتبين له الشىء و يستبين ، كما قال تعالى (٣ : ١٣٨ هذا بيان للناس) الآية . ومع هذا فالذى لا يستبين له كما قال تعالى (٤١ : ٤٤ قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون فى آذانهم وَقر ، وهو عليهم عمى) وقال (١٦ : ٤٤ وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس مانزل إليهم ولعلهم يتفكرون) وقال (١٤ : ٤ وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم) وقال (٢٤ : ٥٤ وما على الرسول إلا البلاغ المبين) وقال (٩ : ١١٥ وما كان الله ليضل قوما بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون) وقال (٤ : ١٧٦ يبين الله لكم أن تضلوا) وقال (٦ : ٥٧ قل إنى على بينة من ربى) الآية . وقال (٤٧ : ١٤ أفمن كان على بينة من ربه) وقال

(٢٤: ٣٤ ولقد أنزلنا إليكم آيات مبينات) وقال (٢٤ : ٦١ يبين الله لكم الآيات لعلكم تعقلون)

فأما الأشياء المعلومة التي ليس في زيادة وصفها إلا كثرة كلام ونفيهق وتشدق وتكبر والإفصاح بذكر الأشياء التي يستقبح ذكرها : فهذا مما ينهى عنه ، كما جاء في الحديث « إن الله يبغض البليغ من الرجال ، الذي يتخلل بلسانه كما تتخلل الباقرة بلسانها[1] » وفي الحديث[2] « الحياء والعى شعبتان من الإيمان ، والبذاء والبيان شعبتان من النفاق » ولهذا قال صلى الله عليه وسلم « إن طول صلاة الرجل وقصر خطبته مَئِنةٌ من فقهه[3] » . وفى حديث سعد[4] لما سمع ابنه أو لما وجد ابنه يدعو ، وهو يقول «اللهم إنى أسألك الجنة ونعيمها وبهجتها وكذا وكذا ، وأعوذ بك من النار وسلاسلها وأغلالها وكذا وكذا ، قال : يا بني

---

(١) أخرجه الإمام أحمد وأبو داود والترمذى من حديث عبد الله بن عمرو وقال الترمذى : حسن غريب.

(٢) رواه الإمام أحمد والترمذى فى البر والصلة من حديث أبي أمامة رضى الله عنه ، وقال الترمذى: حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث أبي غسان محمد بن مطرف اه . منذرى فى الترغيب ، والحاكم فى مستدركه .

(٣) رواه الإمام أحمد فى مسنده ومسلم فى صحيحه من حديث عمار بن ياسر

(٤) لم يكن لفظ الحديث بدعاء ابن سعد بن أبى وقاص موجوداً بالأصل ، فأتمه الشيخ سليمان الصنيع من سنن أبي داود ومسند أحمد . وقد علق الشيخ محمد بن عبد الرزاق بقوله : روى الإمام أحمد وأبو داود من حديث زياد بن مخراق عن أبي نعامة عن مولى لسعد « أن سعداً سمع ابناً له يدعو ، وهو يقول : اللهم إنى أسألك الجنة ونعيمها واستبرقها ، ونحواً من هذا . وأعوذ بك من النار وسلاسلها وأغلالها . فقال لقد سألت الله خيراً كثيراً . وتعوذت بالله من شر كثير ، وإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : سيكون قوم يعتدون فى الدعاء ، وقرأ هذه الآية (ادعوا ربكم تضرعاً وخفية ، إنه لايحب المعتدين) وإن بحسبك أن تقول : اللهم إنى أسألك الجنة وما قرب إليها من قول وعمل ، وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول وعمل » .

إنى سمعت رسول الله صلى عليه وسلم ، يقول : سيكون قوم يعتدون فى الدعاء ، فإياك أن تكون منهم ، إنك إن أعطيت الجنة أعطيتها ومافيها من الخير ، و إن أعذت من النار أعذت منها وما فيها من الشر » .

وعامة الحدود المنطقية هى من هذا الباب : حشو لكلام كثير ، يبينون به الأشياء ، وهى قبل بيانهم أبين منها بعد بيانهم . فهى مع كثرة مافيها من تضييع الزمان و إتعاب الفكر واللسان لا توجب إلا العمى والضلال ، وتفتح باب المراء والجدال إذ كل منهم يورد على حد الآخر من الأسئلة ما يفسد به ، و يزعم سلامة حده منه وعند التحقيق : تجدهم متكافئين أو متقاربين ، ليس لأحدهم على الآخر رجحان مبين ، فإما أن يُقبل الجميع أو يرد الجميع ، أو يُقبل من وجه [و يرد من وجه] .

هذا فى الحدود التى تشترك فى تمييز المحدود وفصْله عما سواه ، وأما متى أدخل أحدهما فى الحد ما أخرجه الآخر ، أو بالعكس : فالكلام فى هذا علم يستفاد به حد الاسم ومعرفة عمومه وخصوصه ، مثل الكلام فى حد الخمر : هل هى عصير العنب المشتد ، أم هى كل مسكر ؟ وحد الغيبة ونحو ذلك .

وهذا هو الذى يتكلم فيه العلماء ، كما قيل للنبى صلى الله عليه وسلم «ما الغيبة ؟ قال : ذكرك أخاك بما يكره ـ الحديث » وكذلك قوله : « كل مسكر خمر » وقول عمر على المنبر « الخمر ما خامر العقل » وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم لما قال « لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرّة من كبر، فقال له رجل : يارسول الله ، الرجل يحب أن يكون نعله حسناً وثو به حسناً ، أفمن الكبر ذلك ؟ فقال : لا ، إن الله جميل يحب الجمال ، الكبر بَطْر الحق وغمط الناس » ومنه تفسير الكلام وشرحه و بيانه .

فكل من شرح كلام غيره وفسره و بَيَّن تأو يله ، فلابد له من معرفة حدود الأسماء التى فيه .

فكل ما كان من حد بالقول فإنما هو حد للاسم بمنزلة الترجمة والبيان . فتارة يكون لفظاً محضاً إن كان المخاطب يعرف المحدود ، وتارة يحتاج إلى ترجمة المعنى و بيانه ، إذا كان المخاطب لم يعرف المسمى . وذلك يكون بضرب المثل ، أو تركيب صفات، وذلك لايفيدتصو ير الحقيقة لمن لم يتصورها بغير الكلام فليعلم ذلك

وأما ما يذكرونه من حد الشيء ، أو الحد بحسب الحقيقة ، أو حد الحقائق فليس فيه من التمييز إلا ذكر بعض الصفات التي للمحدود كما تقدم ، وفيه من التخليط ما قد نبهنا على بعضه .

[فصل]

وأما مسألة القياس فالكلام عليه في مقامين :

أحدهما : في القياس المطلق الذي جعلوه ميزان العلوم ، وحرروه في المنطق .

والثاني : في جنس الأقيسة التي يستعملونها في العلوم .

أما الأول : فنقول : لا نزاع أن المقدمتين إذا كانتا معلومتين وألّفتا على الوجه المعتدل : أنه يفيد العلم بالنتيجة . وقد جاء في صحيح مسلم مرفوعاً : « كل مسكر خمر ، وكل خمر حرام » لكن هذا لم يذكره النبي صلى الله عليه وسلم ، ليستدل به على منازع ينازعه ، بل التركيب في هذا كما قال أيضاً في الصحيح : « كل مسكر خمر وكل خمر حرام » أراد أن يبين لهم أن جميع المسكرات داخلة في مسمى الخمر الذي حرمه الله . فهو بيان لمعنى الخمر ، وهم قد علموا أن الله حرم الخمر وكانوا يسألونه عن أشربة من عصير العنب ، كما في الصحيحين عن أبي موسى أنه صلى الله عليه وسلم « سئل عن شراب يصنع من الذرة يسمى المِزْر ، وشراب يصنع من العسل يسمى البِتْع . وكان قد أوتي جوامع الكلم ، فقال : كل مسكر حرام » فأراد أن يبين لهم بالكلمة الجامعة ـ وهي القضية الكلية ـ أن كل مسكر خمر . ثم جاء بما كانوا يعلمونه من أن « كل خمر حرام »حتى يثبت تحريم المسكر في قلوبهم ، كما صرح به في قوله « كل مسكر حرام » ولو اقتصر على قوله

« كل مسكر حرام » لتأوله متأول على أنه أراد القَدَح الآخر كما تأوله بعضهم[1] ولهذا قال أحمد : قوله « كل مسكر خمر » أبلغ . فإنهم لا يسمون القدح الآخر خمراً . ولو قال « كل مسكر خمر » فقط لتأوله بعضهم على أنه يشبه الخمر فى التحريم فلما زاد « وكل خمر حرام » علم أنه أراد دخوله فى اسم الخمر التى حرمها الله .

والغرض هنا : أن صورة القياس المذكورة فطرية لا تحتاج إلى تعلم ، بل هى عند الناس بمنزلة الحساب ، ولكن هؤلاء يطولون العبارات و يُغْرِبونها[2] .

وكذلك انقسام المقدمة التى تسمى « القضية » ــ وهى الجملة الخبرية ــ إلى خاص وعام ، ومنفى ومثبت ونحو ذلك ، وأن القضية الصادقة يصدق عكسها وعكس نقيضها ، و يكذب نقيضها . وأن جملتها تختلف ونحو ذلك .

وكذلك تقسيم القياس إلى الحملى الأفرادى ، والاستثنائى التلازمى والتعاندى وغير ذلك : غالبه ــ و إن كان صحيحاً ــ ففيه ماهو باطل . والحق الذى هو فيه : فيه من تطويل الكلام وتكثيره بلا فائدة ، ومن سوء التعبير والعي فى البيان ، ومن العدول عن الصراط المستقيم القريب إلى الطريق المستدير البعيد : ما ليس هذا موضع بيانه .

فقه النافع فطرى لا يحتاج إليه ، وما يحتاج إليه ليس فيه منفعة إلا معرفة اصطلاحهم وطريقهم أو خطئهم .

وهذا شأن كل ذي مقالة من المقالات الباطلة . فإنه لابد منه فى معرفة لغته وضلاله . فاحتيج إليه لبيان ضلاله الذى يعرف به الموقنون حاله . و يستبين لهم ما بَيَّن الله من حكمه جزاء وأمرا ، وأن هؤلاء داخلون فيما يذم به من تكلف القول الذى لا يفيد ، وكثرة الكلام الذى لا ينفع .

والمقصود هنا : ذكر وجوه

---

(١) وهم أهل الكوفة الذين لا يحرمون عصير غير العنب إلا بمقدار مايسكر

(٢) أى يتكلفون مايجعلونها به غريبة .

الوجه الأول

أن القياس المذكور لا يفيد علما إلا بواسطة قضية كلية موجبة . فلابد من كلية جامعة ثابتة فى كل قياس . وهذا متفق عليه معلوم أيضا . ولهذا قالوا : لاقياس عن سالبتين ، ولا عن جزئيتين . وإذا كان كذلك وجب أن تكون العلوم الكلية الكلمات الجامعة هى أصول الأقيسة والأدلة ، وقواعدها التى تبنى عليها وتحتاج إليها .

ثم قالوا : إن مبادىء القياس البرهانى هى العلوم اليقينية التى هى الحسيات الباطنة والظاهرة ، والعقليات والبديهيات والمتواترات والمجربات ، وزاد بعضهم: الحدسيات . وليس فى شىء من الحسيات الباطنة والظاهرة قضايا كلية ، إذ الحس الباطن والظاهر لا يدرك إلا أمورا معينة لا تكون إلا إذا كان المخبر أدرك ماأخبر به بالحس ، فهى تبع للحسيات . وكذلك التجربة إنما تقع على أمور معينة محسوسة . وإنما يحكم العقل على النظائر بالتشبيه ، وهو قياس التمثيل ، والحدسيات عند من يثبتها منهم : من جنس التجريبيات ، لكن الفرق : أن التجربة تتعلق بفعل المجرب كالأطعمة والأشربة والأدوية ، والحدس يتعلق بغير فعل ، كاختلاف أشكال القمر عند اختلاف مقابلته للشمس . وهو فى الحقيقة تجربة علمية بلا عمل فالمستفاد به أيضا أمور معينة جزئية ، لا تصير عامة إلا بواسطة قياس التمثيل .

وأما البديهيات ـ وهى العلوم الأولية التى يجعلها الله فى النفوس ابتداء بلا واسطة ، مثل الحساب ، وهى كالعلم بأن الواحد نصف الاثنين ـ فإنها لا تفيد العلم لشىء معين موجود فى الخارج ، مثل الحكم على العدد المطلق والمقدار المطلق وكالعلم بأن الأشياء المساوية لشىء واحد هى متساوية فى أنفسها . فإنك إذا حكمت على موجود فى الخارج لم يكن إلا بواسطة الحس ، مثل العقل . فإن العقل إنما هو عقل ما علمته بالإحساس الباطن أو الظاهر بعقل المعانى العامة أو الخاصة .

فأما أن العقل الذى هو عقل الأمور العامة التى أفرادها موجودة فى الخارج

يحصل بغير حس فهذا لا يتصور . وإذا رجع الإنسان إلى نفسه وجد ذلك ، وأنه لا يعقل مستغنيا عن الحس الباطن والظاهر لكليات مقدرة فى نفسه ، مثل الواحد والاثنين والمستقيم والمنحنى ، والمثلث والمربع ، والواجب والممكن والممتنع ، ونحو ذلك مما يفرضه هو ويقدره . فأما العلم بمطابقة ذلك المقدر للموجود فى الخارج والعلم بالحقائق الخارجية فلا بد فيه من الحس الباطن أو الظاهر . فإذا اجتمع الحس والعقل ـ كاجتماع البصر والعقل ـ أمكن أن يدرك الحقائق الموجودة المعينة ويعقل حكمها العام الذى يندرج فيه أمثالها [لا] أضدادها ، ويعلم الجمع والفرق . وهذا هو اعتبار العقل وقياسه .

وإذا انفرد الإحساس الباطن أو الظاهر أدرك وجود الموجود المعين . وإذا انفرد المعقول المجرد علم الكليات المقدرة فيه التى قد يكون لها وجود فى الخارج وقد لا يكون ، ولا يعلم وجود أعيانها وعدم وجود أعيانها إلا بإحساس باطن أو ظاهر .

فإنك إذا قلت : موجود المائة عشر الألف لم تحكم على شيء فى الخارج ، بل لو لم يكن فى العالم ما يعد بالمائة والألف لكنت عالما بأن المائة المقدرة فى عقلك عشر الألف ، ولكن إذا أحسست بالرجال والدواب والذهب والفضة ، وأحسست بحسك أو بخبر من أحس أن هناك مائة رجل أو درهم ، وهناك ألف ونحو ذلك : حكمت على أحد المعدودين بأنه عشر الآخر . فأما المعدودات فلا ندرك إلا بالحس . والعدد المجرد يعقل بالقلب ، وبعقل القلب والحس يعلم العدد والمعدود جميعا ، وكذلك المقادير الهندسية هى من هذا الباب .

فالعلوم الأولية البديهية العقلية المحضة ليست إلا فى المقدرات الذهنية كالعدد والمقدار ، لا فى الأمور الخارجية الموجودة .

فإذا كانت مواد[1] القياس البرهانى لا يدرك بعامتها إلا أمور معينة ليست

(١) مواد القياس هى التى يأتى تفسيرها بقوله « الحس الباطن الخ » والحس =

كلية ، وهى الحس الباطن والظاهر ، والتواتر والتجربة والحدس ، والذى يدرك الـكليات البديهية الأولية إنما يدرك أمورا مقدرة ذهنية ، لم يكن فى مبادىء البرهان ومقدماته المذكورة ما يعلم به قضية كلية عامة للأمور الموجودة فى الخارج والقياس لا يفيدالعلم إلا بواسطة قضية كلية . فامتنع حينئذ أن يكون فيما ذكروه من صورة القياس ومادته حصول علم يقينى .

وهذا بين لمن تأمله . و بتحريره وجودة تصوره تنفتح علوم عظيمة ومعارف وسنبين إن شاء الله من أى وجه وقع عليهم اللبس .

فتدبر هذا فإنه من أسرار عظائم العلوم التى يظهر لك به مايجل عن الوصف من الفرق بين الطريقة الفطرية العقلية السمعية الشرعية الإيمانية ، و بين الطريقة القياسية المنطقية الـكلامية .

وقد تبين لك بإجماعهم و بالعقل أن القياس المنطقى لايفيد إلا بواسطة قضية وتبين لك أن القضايا التى [هى] عندهم مواد البرهان وأصوله ليس فيها قضية كلية للأمور الموجودة، وليس فيها ما تعلم به القضية الكلية إلا العقل المجرد الذى يعقل المقدرات الذهنية و إذا لم يكن فى أصول برهانهم علم بقضية عامة للأمور الموجودة لم يكن فى ذلك علم .

وليس فيما ذكرناه ما يمكن النزاع فيه إلا القضايا البديهية فإن فيها عموما ، وقد يظن أن به تعلم الأمور الخارجة ، فيفرض أنها تفيد العلوم الـكلية . لـكن بقية المبادىء ليس فيها علم كلى .

فـكان الواجب أن لا يجعل مقدمة البرهان إلا القضـايا العقلية البديهية المحضة . إذ هى الـكلية . وأما بقية القضايا فهى جزئية ، فـكيف يصلح أن تجعل

= الباطن هو مايسمونه الوجدانيات ، والحس الظاهر هو المحسات بالبصر والسمع واللمس والذوق . والتواتر والتجربة معروفان . والحدس كمن رأى القمر تختلف وجوهه بحسب قربه من الشمس وبعده عنهاحدس له : أن نوره مستفاد من الشمس

من مقدمات البرهان ؟ إلا أن يقال : تعلم بها أمور جزئية و بالعقل أمور كلية ، فبمجموعهما يتم البرهان ، كما يعلم بالحس أن مع هذا ألف درهم ومع هذا ألفان ، و يعلم بالعقل أن الاثنين أكثر من الواحد فيعلم أن مال هذا أكثر .

فيقال : هذا صحيح ، لكن هذا إنما يفيد قضية جزئية معينة . وهو كون مال هذا أكثر من مال هذا . والأمور الجزئية المعينة لاتحتاج فى معرفتها إلى قياس بل قد تعلم بلا قياس ، وتعلم بقياس التمثيل ، وتعلم بالقياس عن جزئيتين . فإنك تعلم بالحس أن هذا مثل هذا ، وتعلم أن هذا من نعته كيت وكيت ، فتعلم أن الآخر مثله ، وتعلم أن حكم الشيء حكم مثله . وكذلك قد يعلم أن زيدا أكبر من عمرو وعمرا أكبرمن خالد ، وأمثال هذه الأمور المعينة التى تعلم بدون قياس الشمول الذي اشترطوا فيه ما اشترطوا .

فقد تبين أن هذا القياس العقلى المنطقى الذي وضعوه وحددوه لا يعلم بمجرده شيء من العلوم الكلية الثابتة فى الخارج . فبطل قولهم « إنه ميزان العلوم الكلية البرهانية » ولكن يعلم به أمور معينة شخصية جزئية ، وتلك تعلم بغيره أجود مما تعلم به . وهذا هو :

الوجه الثانى

فنقول : أما الأمور الموجودة المحققة فتعلم بالحس الباطن والظاهر ، وتعلم بالقياس التمثيلى ، وتعلم بالقياس الذى ليس فيه قضية كلية ولا شمول ولا عموم ، بل تكون الحدود الثلاثة فيه — الأصغر والأوسط والأكبر — أعيانا جزئية ، والمقدمتان والنتيجة قضايا جزئية . وعلم هذه الأمور المعينة بهذه الطرق أصح وأوضح وأكمل . فإن من رأى بعينه زيدا فى مكان وعمرا فى مكان آخر : استغنى عن أن يستدل على ذلك يكون الجسم الواحد لا يكون فى مكانين . وكذلك من وزن دراهم كل منهما ألف درهم استغنى عن أن يستدل على ألف درهم منها بأنها مساوية للصنجة . وهى شيء واحد ، والأشياء المساوية لشيء واحد متساوية . وأمثال ذلك كثير .

ولهذا يسمى هؤلاء أهلُ كلام ، أى لم يفيدوا علما لم يكن معروفا . وإنما أتوا بزيادة كلام قد لا يفيد . وهو ما ضربوه من القياس لإيضاح ما علم بالحس . وإن كان هذا القياس وأمثاله ينتفع به فى موضع آخر ، ومع من ينكر الحس ، كما سنذكره إن شاء الله .

وكذلك إذا علم الإنسان أن هذا الدينار مثل هذا ، وهذا الدرهم مثل هذا ، وأن هذه الحنطة والشعير مثل هذا ، ثم علم شيئا من صفات أحدهما وأحكامه الطبيعية ، مثل الاغتذاء والانتفاع ، أو العادية مثل القيمة والسعر ، أو الشرعية : مثل الحل والحرمة — علم أن حكم الآخر مثله .

فأقيسة التمثيل تفيد العقيدة بلا ريب أعظم من أقيسة الشمول . ولا يحتاج مع العلم بالتماثل إلى أن يضرب لهما قياس شمول ، بل يكون من زيادة الفضول .

وبهذا الطريق عرفت القضايا الجزئية بقياس التمثيل .

ومن قال : إن ذلك بواسطة قياس شمول ينعقد فى النفس ، وهو أن هذا لو كان اتفاقيا لما كان أكثريا . فقد قال الباطل . فإن الناس العالمين بما جربوه لا يخطر بقلوبهم هذا ، ولكن بمجرد علمهم بالتماثل يبادرون إلى التسوية فى الحكم . لأن نفس العلم بالتماثل يوجب ذلك بالبديهة العقلية ، فكما علم بالبديهة العقلية : أن الواحد نصف الاثنين علم بها أن حكم الشىء حكم مثله ، وأن الواحد مثل الواحد ، كما علم أن الأشياء المساوية لشىء واحد متساوية .

فالتماثل والاختلاف فى الصفة أو القدر قد يعلم بالإحساس الباطن والظاهر ، والعلم بأن المثلين سواء وأن الأكثر والأكبر أعظم وأرجح يعلم ببديهة العقل .

وكذلك القياس المؤلف من قضايا معينة ، مثل العلم بأن زيداً أخو عمرو ، وعمرو أخو أبى بكر فزيد أخو أبى بكر ، ومثل العلم بأن أبا بكر أفضل من عمر ، وعمر أفضل من عثمان وعلى . فأبو بكر أفضل من عثمان وعلى . وأن المدينة أفضل من بيت المقدس والمدينة لا يجب أن يحج إليها ، فبيت المقدس لا يحج إليه . وقبر

الرسول صلى الله عليه وسلم أفضل القبور ولا يشرع استلامه ولا تقبيله ، فقبر فلان وفلان لايشرع استلامه ولا تقبيله . وأمثال هذه الأقيسة ملء العالم . وهذا أبلغ فى إفادة حكم المعين من ذكر العالم . فدلالة الاسم الخاص على المعين أبلغ من الدلالة عليه بالاسم العام ، وإن كان فى العام أمور أخرى ليست فى الخاص .

فتبين أن المعلوم من الأمور المعينة يعلم بالحس وبقياس التمثيل ، والأقيسة المعينة أعظم مما يعلم أعيانها بقياس الشمول . فإذا كان قياس الشمول ـ الذى حرروه ـ لايفيد الأمور الكلية ،كما تقدم ولاتحتاج إليه الأمور المعينة ـ كما تبين ـ لم يبق فيه فائدة أصلا ، ولم يحتج إليه فى علم كلى ، ولا علم معين ، بل صار كلامهم فى القياس الذى حرروه كالكلام فى الحدود . وهذا هذا . فتدبره فإنه عظيم القدر .

الوجه الثالث

أن يقال : إذا كان لا بد فى القياس من قضية كلية والحس لا يدرك الكليات وإنما تدرك بالعقل ، ولا يجوز أن تكون معلومة بقياس آخر ، لما يلزم من الدور أو التسلسل . فلا بد من قضايا كلية تعقل بلا قياس ، كالبديهيات التى جعلوها .

فنقول : إذ وجب الاعتراف بأن من العلوم الكلية العقلية ما يبتدىء فى النفوس ويبدهها بلا قياس ، وجب الجزم بأن العلوم الكلية العقلية قد تستغنى عن القياس . وهذا مما اعترفوا به هم وجميع بنى آدم : أن من التصور والتصديق ما هو بديهى لا يحتاج إلى كسب بالحد والقياس ، وإلا لزم الدور أو التسلسل .

وإذا كان كذلك فنقول : إذا جاز هذا فى علم كلى جاز فى آخر ، إذ ليس بين ما يمكن أن يعلم ابتداء من العلوم البديهية وما لا يجوز أن يعلم فصل يطرد ، بل هذا يختلف باختلاف قوة العقل وصفائه ، وكثرة إدراك الجزئيات التى تعلم

بواسطتها الأمور الكلية . فما من علم من الكليات إلا وعلمه يمكن بدون القياس المنطقى . فلا يجوز الحكم بتوقف شىء من العلوم الكلية عليه . وهذا يتبين :

بالوجه الرابع

وهو أن نقول : هب أن صورة القياس المنطقى ومادته تفيد علوماً كلية ، لكن من أين يعلم أن العلم الكلى لا ينال حتى يقول هؤلاء المتكلفون القافون ما ليس لهم به علم[1] هم ومن قلدهم من أهل الملل وعلمائهم : إن ما ليس ببديهى من التصورات والتصديقات لا يعلم إلا بالحد والقياس ، وعدم العلم ليس علماً بالعدم . فالقائل لذلك لم يمتحن أحوال نفسه . ولو امتحن أحوال نفسه لوجد له علوماً كلية بدون القياس المنطقى ، وتصورات كثيرة بدون الحد . وإن علم ذلك من نفسه أو بنى جنسه فمن أين له أن جميع بنى آدم — مع تفاوت فطرهم وتلونهم ومواهب الحق لهم — هم بمنزلته ، وأن الله لا يمنح أحداً علماً إلا بقياس منطقى ينعقد فى نفسه ، حتى يزعم هؤلاء : أن الأنبياء كانوا كذلك ، بل صعدوا إلى رب العالمين ، وزعموا أن علمه بأمور خلقه إنما هو بواسطة القياس المنطقى . وليس معهم بهذا النفى الذى لم يحيطوا بعلمه من حجة إلا عدم العلم ، فيدعون العلم .

وقد تكلموا بهذه القضية الكلية السالبة التى تعم ما لا يحصى عدده إلا الله بلا علم لهم بها أصلا : ويزيد هذا بيانا :

الوجه الخامس

وهو أن المبادىء المذكورة التى جعلوها مفيدة لليقين — وهى الحسيات الباطنة والظاهرة ، والبديهيات والتجريبيات والحدسيات — لا ريب أنها تفيد اليقين

(١) إشارة إلى قوله تعالى « ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولا »

الحسنى . فمن أين لهم أن اليقين لا يحصل بغيرها ؟ لا بد من دليل على النفى ، حتي يصح قولهم : لا يحصل اليقين بدونها ؟

فهذا صحيح لكنه ليس هو قول رءوسهم .

ولا ريب أن من له عقل وإيمان يجب أن يخالفهم فى تكذيبهم بالحق الخارج عن هذا الطريق .

ومن هذا الموضع صار منافقا وتزندق من نافق منهم . وصار عند عقلاء الناس من أهل الملل وغيرهم : أن المنطق مظنة التكذيب بالحق والعناد والزندقة والنفاق حتى حكى لنا بعض الناس : أن شخصاً من الأعاجم جاء ليقرأ على بعض شيوخهم منطقاً ، فقرأ منه قطعة ، ثم قال : خواجا [1] أي باب ترك الصلاة ؟ فضحكوا منه .

وهذا موجود بالاستقراء : أن مَنْ حَسَّن الظن بالمنطق وأهله إن لم يكن له مادة من دين وعقل يستفيد بها الحق الذى ينتفع به ، وإلا فسد عقله ودينه .

ولهذا يوجد فيهم من الكفر والنفاق والجهل والضلال وفساد الأقوال والأفعال ما هو ظاهر لكل ناظر من الرجال . ولهذا كان أول من خلطه بأصول الفقه ونحوه من العلوم الإسلامية كثير الاضطراب .

فإنه كان كثير من فضلاء المسلمين وعلمائهم يقولون : المنطق كالحساب ونحوه مما لا يعلم به صحة الإسلام ولا فساده ولا ثبوته ولا انتفاؤه .

وهذا كلام من رأى ظاهره وما فيه من الكلام على الأمور المفردة لفظاً ومعنى ، ثم على تأليف المفردات ، وهو القضايا ونقيضها وعكسها المستوى وعكس النقيض ، ثم على تأليفها بالحد والقياس ، وعلى مواد القياس ، وإلا فالتحقيق : أنه مشتمل على أمور فاسدة ، ودعاوى باطلة كثيرة لا يتسع هذا الموضع لاستقصائها والله أعلم . والحمد لله رب العالمين .

---

(١) أى أستاذ .

وصلى الله وسلم على عبد الله ورسوله محمد الداعى إلى الهدى والرشاد ، وعلى آله ومن اتبع هداه .

قد تم نسخ هذه الوريقات على يد أفقر المخلوقات إلى من استوى على عرشه فوق سبع سموات . وكتبها بيده « عبد المعطى بن السيد يوسف على » .

وذلك عن أصل فى ضمن مجموعة خطية لشيخ الإسلام أبي العباس أحمد بن تيمية رحمه الله تعالى مودعة بالمكتبة المحمودية فى بلدة المدينة المنورة مهاجَر خير البرية ، مسماة تلك المجموعة ببيان المسائل المشكلة من الفقه ، تحت رقم ٣٣ من كتب الفقه الحنفي .

وكان الفراغ من نسخها فى يوم الإثنين الموافق للثامن والعشرين من شهر جمادى الثانية سنة ١٣٥٨ هـ .

ولم يذكر ناسخ الأصل اسمه فى آخر هذه الرسالة ، ولا تاريخ نسخه لها . والذى يظهر من رسائل أخرى فى هذه المجموعة يشابه خطها خط هذه الرسالة : أن اسمه عبد الله بن زيد بن ابراهيم بن محمد بن سليمان ، وأن تاريخ النسخ هو فى حدود سنة ١١٨٧ هـ .

والله أعلم وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

وقد كان الفراغ من مقابلة هذه الرسالة على أصلها المذكور فى يوم الخميس الموافق للحادى عشر من شهر رجب الفرد سنة ١٣٥٨ على يد ناسخها عبد المعطى المذكور — و بيده الأصل — والأستاذ الشيخ محمد بن على آل حركان — و بيده هذه النسخة — وذلك حسب رغبة المستنسخ الوجيه المفضال الشيخ محمد بن حسين نصيف من أعيان السلفيين بجدة .

والله أعلم وأعز وأكرم . وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

وكان الفراغ من طبعها وتصحيحها حسب الطاقة فى مطبعة السنـة المحمدية فى يوم الأربعاء العاشر من شهر ربيع الأول سنة سبعين وثلاثمائة وألف من هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم . وطبعت على النسخة التى استنسخها لنفسه المفضال خادم علوم السلف ، والسـاعى فى نشرها : الشيخ محمد بن حسين نصيف من أعيان جدة الحجاز .

وقد تفضل بها للطبع ابتغاء وجه الله والدار الآخرة . فجزاه الله أحسن الجزاء ، وجعلنا الله وإياه من المهتدين بهدى عبد الله ورسوله محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم .

وكتبه فقير عفو الله ومغفرته

محمد حامد الفقى

فهرس